

جورج أورويل

ابنة القس

رواية

ترجمة

أسعد الحسين

نينوى

ابنة القس

ابنة القس

جورج أورويل

ترجمة : أسعد الحسين

عدد الصفحات: ٣٤٤

القياس: ١٤,٥ * ٢١,٥

١٠٠٠/٢٠١٠م - ١٤٣١هـ



سورية . دمشق. ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٢٣١٤٥١١ ١١ ٩٦٣ +

هاتـــف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

الإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني ـ دار نينوى

جورج أورويل

ابنـــة القس

رواية

ترجمة
أسعد الحسين

العنوان الأصلي للكتاب

A Clergyman's Daughter
by George Orwell

المؤلف: جورج أورويل

- ولد ايريك ارثر بلير (جورج اورويل) عام ١٩٠٣ ومات عام ١٩٥٠ متأثرا بالسل.
- أنهى دراسته الثانوية في ايتون عام ١٩١٧.عمل في بورما في الشرطة الامبريالية الهندية لمدة ست سنوات ثم عاد إلى بريطانية عام ١٩٢١.
- كره الاستعمار وكل أشكال الحكم الاستبدادية كما كره الرأسمالية والآلات.
- شارك في الحرب الأهلية الاسبانية وأصيب فيها عام ١٩٣٦. تطوع للحرب ضد النازية لكنه رفض بسبب ظروفه الصحية.
- عمل مذيعاً في محطة البي بي سي عام ١٩٤١. استقال منها بعد أن نشر روايته مزرعة الحيوان وأصبح مشهورا عام ١٩٤٥. تزوج مرتين.
- كتب تسع روايات وعدد هائل من المقالات.
- من أعماله: بائس ومتشرد في باريس ولندن - أيام بورمية - ابنة القس - الطريق إلى رصيف ويغان - الصعود إلى الهواء - مزرعة الحيوان - ورواية ١٩٨٤.

إضافة إلى عدد من المقالات المنوعة والنقد الأدبي.

المترجم: أسعد الحسين

- حائز على إجازة في اللغة الانكليزية وآدابها من جامعة حلب عام ١٩٧٨.
- عمل مدرساً للغة الانكليزية في سوريا وقطر حتى عام ٢٠٠٤.
- تفرغ للترجمة ونقل عدد من الكتب والروايات والمسرحيات إلى اللغة العربية.
- صدر منها رواية الصعود إلى الهواء لجورج أورويل عام ٢٠٠٨.
- وصدر أيضاً كتاب الحرب الطبقية العالمية للمفكر جف فو عام ٢٠٠٩.
- له مقالات فكرية وأدبية في بعض المجلات والجرائد العربية.

الفصل الأول

١

عندما دوّى جرس المنبه الموضوع على منضدة الأدراج مثل قنبلة صغيرة تلوت دوروثي من الألم ووثبت مستيقظة من أعماق حلم مزعج ومعقد ثم تمددت على ظهرها وهي تحدق في الظلام بتعب شديد. استمر جرس المنبه بإزعاجه الرقيق الذي سيستمر خمس دقائق إن لم توقفه. كانت دوروثي تتوجع من رأسها حتى قدميها ويسيطر عليها شعور ماكر وخسيس بالإشفاق على الذات يجعلها تدس رأسها تحت أغطية السرير عندما يحين وقت الإستيقاظ الصباحي. حاولت أن تسكت الضجيج الكريه وتطرده من مسمعها وجاهدت للتغلب على تعبها كعاداتها بحض نفسها بصيغة ضمير المخاطب. هيا انهضي يا دوروثي لا تغف أرجوك! الأمثال، السادس، ٩ ثم تذكرت أن الضجيج سيوقظ والدها لو استمر مدة أطول فقفزت من السرير بحركة سريعة وتناولت العباءة من الخزانة لتسكت المنبه الذي تعمدت أن تتركه بعيداً على الخزانة كي يجبرها على الخروج من السرير لإسكاته. قرفصت بجانب السرير وتلت صلاتها في الظلام بخبل وقدماها تتوجعان من البرد.

كانت الساعة الخامسة والنصف تماماً وكان الجو بارداً بالنسبة لصباح يوم من شهر آب. لبست دوروثي - أسمها الكامل دوروثي هير وهي الطفلة الوحيدة للمبجل تشارلز هيرقس اثلستان نايبهل في

سوفولك .. عباءتها القطنية القديمة وتلمست دربها إلى الطابق السفلي. هبت بوجهها رائحة الصباح المشبع بالغبار والجص الرطب والسمك المقلي الذي تناولوه على عشاء البارحة وسمعت على جانبي ممر الطابق الثاني تجاوب شخير والدها والخادمة أيلين التي تقوم بكل أعمال البيت ولكي لا تصطدم بطاولة المطبخ بسبب الظلام قامت بحيلة معقدة للاحتراس منها وهي تحاول الوصول إلى الخارج لكنها في النهاية أصابتها في عظم الورك رغم الحدر. تحسست دوروثي طريقها داخل المطبخ وأشعلت شمعة كانت على رف الموقد وهي تتألم من التعب. قرفصت لتجمع الرماد وأخرجته من الموقد. كانت عملية إشعال نار المطبخ صعبة لأن مدخنته كانت ملتوية وشبه مسدودة دائماً ولا تشتعل إلا بعد تزويدها بفنجان من الكيروسين مثل رشفة السكير الصباحية من الجن. صعدت دوروثي إلى الطابق العلوي لتشغل حمامها بعد أن وضعت الغلاية لتسخين ماء حلاقة لوالدها. لا تزال إيلين نائمة وتشخر بقوة وهي خادمة نشيطة عندما تكون مستيقظة لكنها واحدة من تلك الفتيات التي لا يستطيع الشيطان وأعوانه إخراجها من السرير قبل الساعة السابعة صباحاً.

ملأت دورثي الحمام ببطء لأن شرشرة الماء كانت توقظ والدها دائماً عندما يفتح الصنبور بقوة. وقفت برهة وهي تتأمل بركة الماء الشاحبة المنفرة لقد أصبح كل جسدها مثل جلد الإوزة. لأنها تكره الحمامات الباردة سنت على نفسها قانوناً بأخذ كل حماماتها باردة من شهر نيسان إلى تشرين الثاني. وضعت يدها في الماء البارد بتردد ووجدته مرعباً. دفعت نفسها للأمام بتحريضها المعتاد. هيا يا دوروثي ادخلي! لا تخفقي رجاءاً!

بعد ذلك خطت بعزم داخل الحمام وجلست لتدع حزام الماء الجليدي ينزلق صاعداً فوق جسمها ويغمرها ماعدا شعرها الذي عقصته خلف رأسها فخرجت إلى السطح في اللحظة التالية وهي تلهث وتتلوى وقبل أن تسترد أنفاسها تذكرت قائمة الملاحظات التي أحضرتها في جيب عباءتها ونوت بأن تقرأها. أخرجتها واستندت على طرف الحمام وخصرها مغمور في الماء البارد لتقرأ الملاحظات على ضوء الشمعة التي على الكرسي:

- ٧ تشرين الأول العشاء الرباني
- يجب زيارة طفل السيدة تي؟
- الفطور. لحم خنزير. يجب أن أطلب نقوداً من أبي. (بي)
- اسأل ايلين عن مواد المطبخ المقوية لأبي (ملاحظة) اسأل عن مواد للستائر في سولبايبب.
- زيارة السيدة بي، قصاصة من ديلي أم شاي انجليكا مفيد للروماتيزم السيدة ال. . لزقة الحبوب. .
- ١٢ تشرين الأول بروفة تشارلز الأول. ملاحظة طلب نصف باوند من اللاصق وعلبة واحدة من طلاء الألمنيوم.
- الغداء (مشطوب) لحم بقر. . . . . ؟
- جولة في الأبرشية ماغ ملاحظة. السيدة ف مدانة ٣/٦د
- ٤. ٣٠ مساءاً حفلة شاي الأمهات لا تنسِ ياردتين ونصف قماش للنافذة.

- زهور للكنيسة. . ملاحظة علبة براسو
- العشاء. بيض مخفوق
- طبع خطبة أبي، ماذا عن الشريط الجديد للطابعة؟

- ملاحظة التفريق بين شتلات البازلاء

خرجت دوروثي من مغطس الحمام وجففت نفسها بمنشفة ليست أكبر من منديل طاولة الطعام ـ توقفوا عن توفير مناشف بحجم جيد لبيت القس ـ . إنفك شعرها وتهدل فوق كتفيها على شكل جديلتين ثخينتين. كان شعرها كثيفاً وناعماً وذو لون فاتح جداً وربما كان الشيء الجميل الإيجابي فيها وربما منعها والدها من عقصه. أما فيما تبقى فهي فتاة متوسطة القامة تميل إلى النحافة لكنها قوية وحسنة الشكل أما وجهها فقد كان نقطة ضعفها فهو أشقر نحيل ولا يتميز بشيء وعيناها باهتتان وأنفها طويل جداً؛ وإن نظرت إليها من قرب سترى تجاعيد حول عينيها كما يبدو فمها متعباً وهي مسترخية لكنه للآن لا يشبه تماماً وجه عانس أما بعد عدة سنوات فسيبدو كذلك حتماً ومع ذلك فقد ظل الغرباء دائماً يقدرون عمرها الذي لم يكمل الثامنة والعشرين بأقل مما هي عليه في الواقع بعدة سنوات بسبب ملامح عينيها الطفولية. كان ذراعها الأيسر ملطخاً ببقع حمراء كأنها لسع حشرات.

لبست دوروثي ثياب النوم ثانية ونظفت أسنانها بالماء طبعاً تفضل عدم استخدام معجون الأسنان قبل العشاء الرباني. لكن في نهاية الأمر إما أنك صائم أو لا. إن الكاثوليكيين على حق في ذلك ولكنها ترددت وتوقفت ووضعت فرشاة الأسنان من يدها. تغلغل ألم بدني ووخزاً مميتاً في كل أحشائها.

لقد تذكرت فاتورة الجزار كارجيل المستحقة منذ سبعة شهور بصدمة مزعجة مثل شخص يتذكر شيئاً غير مقبول للمرة الأولى في الصباح ـ تلك الفاتورة المخيفة التي قد تصل إلى تسعة عشر جنيهاً أو

حتى عشرين وليس هناك أي أمل في سدادها وهي إحدى منغصات حياتها وكانت تكمن في قلب ضميرها وهي تستعد للانقضاض عليها وتعذيبها طيلة ساعات الليل والنهار ثم تأتي معها الفواتير الأقل التي يبلغ مجملها رقم لا تجرؤ على التفكير فيه. وبدأت تدعو بشكل غير إرادي (أرجوك يا ربي أن لا يطلب كارجيل دفع فاتورته مرة أخرى اليوم) لكنها تذكرت بعد لحظة أن هذه الدعوة دنيوية ومدنسة ورجت المسامحة. ثم لبست عباءة النوم وركضت إلى المطبخ على أمل أن تزيل الفاتورة من ذهنها.

انطفأت النار كالعادة وحاولت دوروثي إشعالها ثانية فاتسخت يداها بغبار الفحم، زودتها بجرعة كيروسين جديدة وظلت تنتظر حتى بدأ ماء الغلاية بالغليان فأخذت دوروثي الماء الساخن إلى الطابق العلوي ودقت باب غرفة أبيها الذي يتوقع بأن يكون ماء حلاقته جاهزاً في السادسة إلا ربع لكنها تأخرت سبع دقائق فقط.

- ادخلي، ادخلي قال بصوت مكتوم وسريع الغضب.

كانت الغرفة مغطاة بستائر كتيمة وهواءها فاسد ممزوج برائحة ذكورية. أشعل القس الذي كان مستلقياً إلى جانبه وينظر إلى ساعته الذهبية شمعة أخرجها من تحت الوسادة التي بجانب السرير. كان شعره أبيضاً، كثيفاً كزغب شوكة. نظر بنزق إلى دوروثي بعين براقة سوداء.

- صباح الخير يا أبي

- أتمنى ذلك فعلاً يا دوروثي، قال القس بشكل غريزي - كان صوته دائماً مكتوماً وشائخاً إلى أن يضع أسنانه الإصطناعية (عليك بذل مجهود لتخرجي إيلين من السرير في الصباح. وكوني أكثر دقة

في مواعيدك أيضاً.

- أنا آسفة جداً يا أبي. نار المطبخ لا تعمل.

- حسن ضعيها على طاولة الثياب. ضعيها واسحبي تلك الستائر).

لقد بان النهار الآن، كان صباحاً بليداً وغائماً. أسرعت دوروثي إلى غرفتها ولبست ثيابها بسرعة هائلة كانت تراها ضرورية في معظم أيام الأسبوع ولم تستخدم المرآة رغم وجود واحدة مربعة صغيرة جداً في الغرفة. علقت صليبها الذهبي حول عنقها - ليس صليباً مزخرفاً بل شارة ذهبية بسيطة على شكل صليب - أرجوك! عقدت شعرها للخلف وغرزت فيه عدداً من دبابيس الشعر بشكل سطحي وارتدت ثيابها المكونة من كنزة رمادية ومعطف باليا من الصوف الإيرلندي الخشن وتنورة وجوارب لا تتناسب معها والمعطف وحذاء بني عتيق جداً بمدة لا تتجاوز الثلاثة دقائق.

يجب أن ترتب غرفة الطعام ومكتب أبيها قبل الصلاة بالإضافة إلى تلاوة صلاتها استعداداً للعشاء المقدس الذي يتطلب منها عشرين دقيقة على الأقل.

عندما أخرجت دراجتها من البوابة الأمامية كان الصباح لا يزال غائماً والعشب مترع بندى ثقيل وبدا سفح تل كنيسة اثيلستان داكناً من خلال الضباب الذي يخيم فوقه مثل كائن خرافي من الرصاص وكان ناقوسها الوحيد يدق لحناً جنائزياً! بوم بوم! لم يعد يعمل سوى ناقوس واحد أما السبعة الأخرى فقد خرجت من أقفاصها وظلت صامتة طيلة السنوات الثلاثة الأخيرة وهي ترزح بثقلها على أرض البرج ببطيء. ومن بعيد ومن وراء الضباب يمكن سماع رنين أجراس كنيسة الكاثوليك البغيضة - شيء صغير كريه وقزم اعتاد قس

اثليستان مقارنته بالفطيرة الرقيقة التي على شكل فنجان.

قادت دوروثي دراجتها وصعدت التل بسرعة وهي تستند على المقود. أصبح جسر أنفها قرمزياً من البرد. وسمعت صفير طائر فوق رأسها لكن السماء الملبدة بالغيوم حجبته. سوف تصعد لك أغنيتي في الصباح الباكر. أسندت دوروثي دراجتها على البوابة واكتشفت بأن يديها كانتا رماديتان بسبب غبار الفحم، فرفصت ونظفتهما بالعشب والطين الموجود بين القبور وبعدها توقف الجرس عن الطنين فقفزت مسرعة إلى داخل الكنيسة. كان الشماس بروجيت يمشي متثاقلاً في الممر بردائه الكهنوتي المرقع وحذائه العمالي الواسع ليأخذ مكانه بجانب المذبح.

كانت الكنيسة باردة جداً مع رائحة الشمع والرماد القديم. كنيسة واسعة أكبر بكثير من الطائفة التي تتعبد فيها لكنها مخربة وأكثر من نصفها فارغ ولم تغطي المقاعد التي كانت على شكل ثلاث جزر ضيقة سوى نصف المسافة عن الصحن أما خلفها فهناك مساحات كبيرة من الأرض الحجرية الجرداء وبضع نقوش بالية عليها تشير إلى أماكن القبور القديمة أما سقف المذبح فقد تدلى بشكل مرئي وبجانب صندوق نفقات الكنيسة هناك قطعتان خشبيتان مثقبتان تفسران بصمت فعل الخنفساء أكلة الخشب، العدو اللدود للمسيحية. ونفذ الضوء بلونه الشاحب عبر زجاج النوافذ الرقيق ومن خلال الباب الجنوبي المفتوح يمكن رؤية شجرة سرو مسننة وأغصان شجرة حمضيات مائلة للون الرمادي تتمايل بوهن في الجو غير المشمس.

وكالعادة لم يكن هناك سوى عضو واحد فقط في الكنيسة --

الآنسة العجوز ميفيل من غرانج - كان عدد الحضور في العشاء الرباني سيئاً جداً لدرجة أن القس لم يجد أي ولد ليخدمه باستثناء أيام الآحاد عندما يحب الأولاد الظهور أمام جماعة المصلين في ثيابهم الكهنوتية البيضاء. دخلت دوروثي المقعد الطويل خلف الآنسة ميفيل وأبعدت الرداء الكهنوتي وركعت على الحجارة الجرداء تكفيراً عن ذنوب الأمس. لقد بدأت الصلاة. كان القس في ردائه الكهنوتي وسترته الكتانية القصيرة يتلو صلواته بصوت سريع متمرس وواضح بعد أن وضع أسنانه الإصطناعية لكن بأسلوب غير ودي لافت للنظر. وعلا وجهه الهرم النزق والشاحب كقطعة عملة فضية تعبير من العزلة والازدراء تقريباً وكأنه يقول هذا قربان شرعي وواجبي أن أقدمه لكم. لكن تذكروا بأنني قسكم الوحيد ولست صديقكم وككائن بشري أنا أكرهكم واحتقركم.) وقف الشماس بروجيت بصبر وتبجيل دون أن يفقه شيئاً وهو يحرك جرس العشاء الصغير الذي ضاع بيديه الضخمتين المائلتين للإحمرار. وبروجيت هذا رجل في الأربعين من عمره ذو شعر مجعد أسود ووجه أحمر مرهق.

ضغطت دوروثي على عينيها بأصابعها. لم تنجح بعد بتركيز أفكارها – في الحقيقة، ذكرى جرس كارجيل لا تزال تقلقها بشكل متقطع. طافت الصلوات التي حفظتها عن ظهر قلب في رأسها دون اهتمام. رفعت عينيها لحظة لكنهما بدأتا بالشرود مباشرة فنظرتا للأعلى أولاً فرأت الملائكة الذين قطعت رؤوسهم وكانت طعنات سيوف جنود البيوريتان بادية على أعناقهم، بعدها عادتا ثانية إلى قبعة الآنسة ميفيل السوداء التي تشبه فطيرة الخنزير وأقراطها الكهرمانية السوداء الضخمة. لبست الآنسة ميفيل معطفاً بالياً أسوداً

طويلاً وطوق صغير من الصوف المجعد الملوث بالشحم الذي لا تتذكر دوروثي أنها غيرته منذ أن عرفتها وقد كان من مادة غريبة مثل الحرير المائي لكنه أخشن ويحيط به شريط زينة أسود في نموذج غير مكتشف. وربما كان من المادة الأسطورية .. نسيج الحداد الأسود. إن الآنسة ميفيل هرمة جداً بحيث لا يتذكرها أحد إلا وهي امرأة عجوز تنطلق منها رائحة ضعيفة .. رائحة أثيرية .. مزيج من ماء العطر والمواد الحافظة ونكهة شراب الجن.

سحبت دوروثي دبوس زجاجي مدبب من ثنية معطفها وضغطت رأسه بذراعها متخفية وراء الآنسة ميفيل فشعر جلدها بالوخز. لقد سنت قانوناً لنفسها بوخز ذراعها بدبوس حتى يسيل منه الدم كلما رأت نفسها غير خاشعة في صلاتها وكان ذلك خيارها في الانضباط الذاتي وحاميها من عدم التوقير والأفكار المدنسة.

عندما استقر الدبوس نجحت في الصلاة برباطة جأش لبضع دقائق. التفت والدها إلى الآنسة ميفيل باستهجان لأنها كانت تضع إشارة الصليب على نفسها بين الفواصل وهو يكره هذا التصرف. رفرف زرزور في الخارج. صدمت دوروثي حين اكتشفت أنها كانت تنظر مزهوة إلى طيات رداء والدها الذي خاطته بنفسها منذ سنتين فأطبقت أسنانها وأدخلت الدبوس بطول ثمن بوصة في ذراعها.

ركعوا مرة أخرى لقد كان الاعتراف العام. تذكرت دوروثي عينيها الشاردتين وقد حطتا هذه المرة على النافذة الزجاجية الملطخة على يمينها التي صممها السير وارد توك عام ١٨٥١ وتمثل استقبال جبريل للقديس اثليستان عند بوابة الفردوس وفيلق من الملائكة المتشابهين وأمير الوفاق. ضغطت رأس الدبوس في قسم آخر من ذراعها

فبدأت تفكر ملياً بكل كلمة وتعود إلى حالة أفضل من الانتباه. لكن رغم ذلك كانت مجبرة على استخدام الدبوس مرة أخرى عندما رن بروجيت الجرس في منتصف عبارة (لذلك كان الملائكة وملوكهم. . . . يزورنه) لأن الضحك كان يغريها دائماً في هذا المقطع بسبب قصة حكاها لها والدها عندما كان صغيرا ويعمل في خدمة القس في المذبح وكان لجرس العشاء لسان مثبت ببرغي وقد أصبح رخوا لهذا قال له القس وهو يتلو: (لذلك نحن مع الملائكة وملوكهم وكل أهل الفردوس نسبح ونمجد اسمك المجيد ونثني عليك للأبد) شد البرغي ياصاحب الرأس السمين، شده!

عندما أنهى القس الصلاة بدأت الآنسة ميفيل تجاهد للوقوف بصعوبة وبطئ بالغين مثل مخلوق خشبي مخلوع وهي تجمع نفسها قطعة تلو الأخرى وتطلق زفرة في كل حركة ويصدر من مكانها صوت صرير غريب لعظامها التي كانت تحتك ببعضها ويمكنك تخيل هيكل عظمي جاف داخل معطفها الأسود.

ظلت دوروثي واقفة على قدميها أكثر من دقيقة. ظلت الآنسة ميفيل تحبي نحو المذبح بخطوات مترنحة وبطيئة حتى استطاعت المشي بصعوبة وهي تستاء كثيراً لو حاول احد مساعدتها. برز فمها الكبير والمبلل والرخو من وجهها الشاحب الشائخ وكشفت شفته السفلية المتدلية بسبب العمر والمبللة باللعاب عن لثة قشرية وصف من الأسنان الاصطناعية الصفراء كمفاتيح البيانو القديمة أما على الشفة العليا فقد ارتسم شاربان سوداوان نديان. لم يكن فمها جذاباً ولا من النوع الذي تود أن تراه يشرب من فنجانك. عفوياً وكأن الشيطان دفعها فلت من شفتي دوروثي (بهائم انكلترا) الدعاء: يا ربي لا تدعني آخذ

كأس القربان بعد الآنسة ميفيل.

في اللحظة التالية وبرعب ذاتي فهمت معنى ما قالت، يا ليتها عضت لسانها وقطعته نصفين بدلاً من هذا القول المدنس على درجات المذبح. سحبت الدبوس مرة أخرى وغرزته في ذراعها بقوة لدرجة أنها بذلت أقصى قوتها لتكتم صرخة ألم ثم تقدمت نحو المذبح وسجدت إلى يسار الآنسة ميفيل لكي تضمن بأنها ستأخذ الكأس من بعدها.

جلست راكعة بسرعة، رأسها محني ويديها ممسكتين بركبتيها تطلب المغفرة قبل أن يصل أبيها بالماء. لكن أفكارها انقطعت وفجأة أصبح من العبث محاولة الصلاة. شفتاها تتحركان لكن صلاتها كانت بلا روح ولا معنى واستطاعت سماع حذاء بروجيت وهو يجر قدميه وصوت أبيها الواضح الهادئ عن (بهائم انكلترا) (خذ وكل) ورأت شريط السجادة الأحمر تحت ركبتيها وشمت رائحة التراب والعطر والمواد الحافظة لكنها كانت محرومة من القدرة على التفكير بدم وجسد المسيح وهو الهدف الذي جاءت من أجله. صعد خواء قاتل إلى دماغها وبدت غير قادرة على الصلاة. كافحت وجمعت أفكارها وتفوهت بشكل آلي بافتتاحيات الصلوات لكن دون جدوى - لاشيء سوى أصداف كلمات ميتة. كان والدها يحمل الماء بيده الجميلة الهرمة بين الإبهام والإصبع بحذر بطريقة مشمئزة كما لو كانت ملعقة من الدواء. كانت عينيه على الآنسة ميفيل التي كانت تتلوى مثل يرقة مع أصوات صرير كثيرة ووضعت إشارات الصليب على نفسها بطريقة مدروسة تجعل المرء يظن أنها ترسم سلسلة من الضفادع المتشابكة على مقدمة معطفها. ترددت دوروثي للحظات لتأخذ الماء لكنها لم تجرؤ على رفضها. من الأفضل

بكثير أن تهبط درجات المذبح من أن تأخذ الكأس المقدس مع كل هذا التشويش في قلبها!

ثم صدف أن ألقت نظرة جانبية عاجلة عبر الباب الجنوبي ورأت رمحاً خاطفاً من ضوء الشمس يخترق الغيوم ويخر للأسفل عبر أوراق شجرة الزيزفون فتوهجت وريقات في المدخل بلون أخضر عابر لا مثيل له أغنى من الجيد أو الزمرد أو مياه الأطلنطي كأنه جوهرة تفوق روعتها الخيال ومض لحظة فملأ الممر بضوء أخضر ثم خفت. غمر فيض من الفرح قلب دوروثي (بهائم انكلترا). لقد أعاد لها وميض اللون الحي راحة البال وحبها للرب والقدرة على العبادة بعملية أعمق مما يفعله المنطق. تمكنت بطريقة ما من الصلاة ثانية بفعل خضرة الوريقات وبدأت بتلاوة صلاتها بحماس وفرح وقالت كل الأشياء الخضراء في الأرض تسبح باسمك يا مولاي. ذابت الرقاقة الهشة على لسانها وتناولت الكأس من يد أبيها وتذوقته بنفور حتى مع الفرح الذي أضافه هذا الفصل الصغير من تحقير الذات، لقد كانت بصمات الآنسة ميفيل الرطبة على حوافه الفضية.

٢

تقع كنيسة اثليستان على أعلى نقطة من تل نايبهل ويمكنك رؤية الريف المحيط عن بعد عشرة أميال لو اخترت بأن تتسلق البرج. لا يوجد شيء يستحق النظر سوى المناظر الطبيعية الجرداء المتموجة المنخفضة للشرق الانجليزي وهي باهتة جداً في الصيف لكنها في الشتاء تسترجع بعضاً من أشجار الدردار المروحية الشكل وسماءها الرصاصية.

منذ أن تطأ البلدة يواجهك الشارع المار من غربها إلى شرقها الذي يقسمها إلى شطرين. قسم جنوبي قديم زراعي وآخر شمالي فيه أبنية معمل بليفيل.. غوردون لتكرير الشمندر وكل ما حوله وما يؤدي إليه صفوف عشوائية من الأكواخ القرميدية الصفراء القذرة التي يقطن أكثرها عمال المعمل الذين يشكلوا أكثر من نصف سكان البلدة الذين لا يتجاوز عددهم الألفي شخص وهم من القادمين الجدد والريفيين والملحدين.

يحرك حياة البلدة الإجتماعية محوران؛ الأول نادي نايبهل (مرخص تماماً) الذي يمكنك أن ترى من نافذته المقوسة وجوه نخبة البلدة الواسعة المنتفخة المتوردة وهي تحدق كأسماك ذهبية سمينة في حوض سمك زجاجي منذ ساعة فتح مشربه والثاني مشرب الشاي القديم وهو أبعد قليلاً عن الشارع العام وهو المكان الرئيسي للقاء

سيدات البلدة اللواتي يحضرن بين العاشرة والحادية عشرة من كل صباح لشرب القهوة وإمضاء نصف ساعة من الإستماع إلى اللغو السائغ بأصوات الطبقة العليا والوسطى اللواتي كن من خارج البلدة بالتأكيد (عزيزتي، لو سمحت، عنده تسع بستونيات بالإضافة إلى البنت ولم يلعب الورقة الرابحة، من فضلك. ماذا، يا عزيزتي، لا تقصدين أن تدفعي ثمن قهوتي مرة أخرى؟ لكن يا عزيزتي إنه تصرف لطيف جداً منك. غداً سأصر بأن أدفع عنك. انظري فقط إلى العزيز توتو الصغير الجالس هناك، إنه يبدو كرجل ذكي بأنفه الأسود الصغير الملتوي وسيكون المحبوب الساحر وستعطيه أمه قطعة سكر وسوف، وسوف. هناك، توتو). لقّب القس تلك السيدات بطريقته اللاذعة (بفوج القهوة). قريباً من المستعمرة السكنية المكونة من فيلات مزيفة والتي يقطنها (فوج القهوة) يقع بيت الآنسة ميفيل (غرانج) بأرضه الواسعة وهو بيت غريب وداكن من القرميد الأحمر والأسود يشبه القلعة .. حماقة شخص ما .. بني عام ١٨٧٠ ولحسن الحظ أنه مخبأ وسط أشجار كثيفة.

يقع بيت القس في منتصف المسافة عن التل وتطل واجهته على الكنيسة وظهره للشارع العام. كان بيتاً من العصر المظلم، واسع بشكل غير مناسب ومطلي بجص أصابه الاصفرار والتقشر وأضاف بعض القساوسة السابقين بيتاً زجاجياً واسعاً بأحد أطرافه استخدمته دوروثي كحجرة عمل لكنه ظل بحاجة إلى إصلاح دائم أما حديقته الأمامية فكانت تختنق بأشجار التنوب غير المقلمة وشجرة دردار كبيرة ممتدة تظلل الغرف الأمامية وحالت دون زراعة أي زهرة وفي الخلف بستان خضار واسع يحرثه بروجيت في الربيع والخريف وتقوم

دوروثي بالبذر والشتل وجز الأعشاب الضارة في وقت الفراغ الذي يمكنها توفيره لكنه رغم ذلك كان بستان الخضار أجمة مغلقة من الأعشاب الضارة.

قفزت دوروثي من دراجتها عند البوابة الأمامية التي وضع عليها أحد الفضوليين ملصقاً كتب عليه (صوتوا لبليفيل.. غوردون وللأجور العالية!) لقد كانت هناك انتخابات فرعية ويمثل السيد بليفل المحافظين. عندما فتحت دوروثي الباب الأمامي رأت رسالتين على الحصيرة البينة البالية. واحدة كانت من رورال دين والأخرى كانت رسالة كريهة نحيفة المنظر من كاتكين وبالم وهو محل الخياطة الذي يحيك ثياب والدها الدينية. لا شك أنها فاتورة. للقس خبرة اعتادها في جمع الرسائل التي تهمه وترك غيرها. انحنت دوروثي لتلتقط الرسائل ورأت مغلفاً غير ممهور ملتصقاً بحاشية الرسالة فأصابها بصدمة مرعبة من الخوف. إنها فاتورة بالتأكيد وبمجرد أن وقعت عينيها عليها عرفت بأنها فاتورة كارجيل اللحام المخيفة وتسلل إلى أحشائها شعور مسبب للوهن. وبعد لحظة بدأت تتضرع إلى ربها بأن لا تكون فاتورة كارجيل - . ولا ضير لو كانت فاتورة محل سولبايب للأقمشة أو فاتورة الانترناشنال أو الخباز أو محل الألبان - . أي شيء ماعدا فاتورة كارجيل ثم أخذت المغلف من حاشية الرسالة بعد أن سيطرت على خوفها وفضته بحركة تشنجية. (تسلم لحساب: ل ٢١ اس ٧. دي ٩)

كانت مكتوبة بخط محاسب كارجيل الجميل وقرأت في الأسفل ملاحظة بحروف عريضة وتحتها خط: (يجب أن نلفت انتباهكم للملاحظة بأن هذه الفاتورة مستحقة منذ زمن بعيد ويلزم

تسديدها بأسرع ما يمكن، اس. كارجيل.)

أصبح وجه دوروثي شاحباً ولم تعد بحاجة إلى الفطور. دست الفاتورة في جيبها ودخلت إلى غرفة الطعام. كانت غرفة صغيرة مظلمة وبأمس الحاجة إلى الإصلاحات وحالها حال بقية الغرف الأخرى من بيت القس أما أثاثها فكأنه من مكب نفايات أو من محل أثريات، كراسي متآكلة لا يمكنك الجلوس عليها بأمان إلا إن كنت تعرف مواطن ضعفها وهناك كليشهات معدنية مطموسة قديمة وداكنة معلقة بالجدران ومنها صورة لتشارلز الأول بريشة فان دايك وهي الوحيدة التي لها بعض القيمة إن لم تكن أفسدتها الرطوبة.

وقف القس أمام الموقد يدفئ نفسه بنار وهمية وهو يقرأ رسالة أخرجها من مغلف أزرق طويل ومرتدياً ردائه الكهنوتي الحريري الأسود الذي بدا فيه بأفضل أحواله بشعره السميك الأبيض ووجهه الناعم الشاحب غير اللطيف أبداً. وضع الرسالة جانباً وأخرج ساعته ونظر إليها باهتمام عندما أتت دوروثي.

- أرجو أن لا أكون متأخرة يا أبي

- نعم لقد تأخرت قليلاً يا دوروثي، قال القس مكرراً كلماتها بكياسة لكن بتأكيد ملحوظ. (لقد تأخرت اثنتا عشر دقيقة لو أردنا الدقة. ألا تعتقدين أنه من الأنسب لو أتيت للإفطار دون أن تتأخري قليلاً وتعرفين بأنني عدت إلى البيت متعباً وجائعاً بعد أن استيقظت من السادسة إلا الربع لاحتفل بالعشاء الرباني المقدس؟

من الواضح أن القس كان في ما سمته دوروثي بشكل ملطف (مزاجه غير المريح). له صوت منحوت مزعج لا يغضب أبداً ولا يقترب من المزاج الطيب بأي شكل - صوت وكأنه يقول دائماً (أنا لا

استطيع فعلاً أن افهم سبب كل هذا الهياج) ويعطي الانطباع بأنه يعاني باستمرار من غباء الناس وضجرهم.

ـ أنا آسفة يا أبي، ببساطة كان علي أن ازور السيدة تاوني (السيدة تي في المذكرة). لقد أنجبت طفلاً ليلة أمس وكما تعرف بأنها وعدت بأن تأتي لتعمده في الكنيسة وهي لن تفعل ذلك طبعاً لو ظنت بأننا لا نكترث بها وكما تعرف حال تلك النسوة ـ يكرهن أن يعمدن ـ ولن يجئن إلا إذا تملقتهن.

لم يقتنع القس فعليا ونطق بصوت مزعج وهو يتجه نحو طاولة الإفطار وقصد أولا أن واجب السيدة تاوني أن تأتي للتعميد دون تملق يا دوروثي ثانياً ليس لك يا دوروثي أي مصلحة لتضييع وقتك في زيارة حثالة البلدة خصوصاً قبل الإفطار. إن السيدة تاوني زوجة عامل وعاشت في أرض الكفار شمال الشارع العام. وضع القس يده على مسند الكرسي ودون أن يتكلم ورمى دوروثي بنظرة كان معناها: هل أنت مستعدة الآن؟ أم هل هناك مزيد من التأخير بعد؟

ـ أعتقد أن كل شيء جاهز يا أبي ماعدا البسملة، قالت دوروثي.

ـ تبارك إسم الرب، قال القس رافعاً غطاء الفطور الفضي البالي الذي كان إرثاً عائلياً مع ملعقة فضية مذهبة للمرملات أما السكاكين والشوك وأغلب الأواني فقد أتت من وولورثز.

ـ أرى لحم الخنزير مرة أخرى، أضاف القس معايناً شرائح اللحم الثلاث الدقيقة التي كومت على قطع مربعة من الخبز المقلي.

ـ أخشى بأن هذا كل ما لدينا في البيت، قالت دوروثي.

التقط القس شوكته بين إصبعه وإبهامه وبحركة دقيقة جداً قلب إحدى الشرائح وكأنه يلعب لعبة العيدان وقال:

- أعرف طبعاً أن لحم الخنزير على الفطور عرف انجليزي قديم قدم الحكومة البرلمانية. لكن ألا تعتقدين أننا يجب أن نقوم ببعض التغيير بين الحين والآخر يا دوروثي؟

- إن لحم الخنزير رخيص جداً الآن، (قالت دوروثي نادمة) ويبدو عدم شراءه خطيئة. هذا بخمس بنسات للباوند، كما أنني رأيت لحم خنزير محترم بثلاث بنسات فقط.

- أعتقد بأنه دانمركي. ما كل تلك الأشياء الدانمركية المتنوعة التي تغزو هذه البلاد! في الماضي بالنار والسيف والآن بلحم خنازيرهم الرخيص المقيت الذي سبب أكثر الوفيات على ما أظن

نصب القس نفسه جيداً على الكرسي بعد هذا النقد القصير الذي حسّن من شعوره وتناول كمية جيدة من لحم الخنزير الذي احتقره بينما كانت دوروثي تفكر في افتتاحية حديث جيدة (لم تتناول أي شيء من اللحم هذا الصباح - كفارة فرضتها على نفسها في الأمس لتلفظها بكلمة نابيه (اللعنة) ولاسترخائها لمدة نصف ساعة بعد الغداء)

تنتظرها مهمة كريهة بشكل لا يوصف وهي طلب نقود من والدها. كان الحصول على مال منه اقرب إلى المستحيل في أفضل الأحوال ووضح بأن الأمر سيكون أكثر صعوبة هذا الصباح. قالت دوروثي لنفسها قانطة وهي تنظر إلى المغلف الأزرق أن كلمة (صعب) ملطفة بعد أن وصلته تلك الأخبار السيئة.

أي شخص يتكلم مع القس لمدة لا تزيد عن عشر دقائق حتى لا يظل بمقدوره أن ينفي بأن هذا الرجل (صعب). ويكمن سر مزاجه السيئ الدائم في المفارقة تاريخية التي يعيش فيها. كان لا يجب أن

يولد في العالم الحديث الذي يسبب له الإزعاج ويشعره بالغثيان ولو أنه عاش قبل قرنين لكان متعدد المهن وكتب القصائد وجمع المستحاثات وعمل مساعداً لأحد القساوسة مقابل أربعين جنيه في السنة وشعر بالراحة تماما. حتى في الزمن الحالي لو أنه غني لواسى نفسه بطرد القرن العشرين خارج وعيه لكن العيش في العصور القديمة باهظ الكلفة ولا يمكن فعل ذلك بأقل من ألفي جنيه في السنة لهذا ظل القس الذي ربط فقره بعصر لينين والديلي ميل في حالة غضب مزمن ومن الطبيعي أن يرميه على أقرب شخص منه - أي دوروثي.

ولد القس في عام ١٨٧١ وهو الابن الأصغر للبارون الأصغر ودخل الكنيسة لسبب قديم (باطل) لأن الكنيسة مهنة تقليدية للأبناء الصغار. كان مكان عمله الأول في أبرشية واسعة قذرة في شرق لندن الذي كان مأوى كريهاً للمتشردين ويتذكر تلك الفترة بقرف. حتى في تلك الأيام كانت الطبقة الدنيا (كما نجح في تسميتها) تخرج عن السيطرة بلا تردد.

كانت الأمور أفضل عندما كلف للعمل مساعدا لراعي أبرشية نائية في مقاطعة كنت حيث ولدت دوروثي. آنذاك كان القرويون المسحوقون لا يزالون يرفعون قبعاتهم احتراما للقس. ثم تزوج في ذاك الوقت وكان زاوجا تعيسا جداً لكن كان على القساوسة أن لا يتشاجروا مع زوجاتهم لهذا ظلت تعاسة هذا الزواج سرية مما ضاعف سوءها عشر مرات. وفي عام ١٩٠٨جاء إلى نايبهل وقد بلغ من العمر السابعة والثلاثين وكان يعاني من مزاج فاسد عصي على الشفاء - ذلك المزاج الذي نجح في إبعاد رجال ونساء وأطفال البلدة عن الأبرشية. ليس لأنه كان قساً سيئاً بل لمجرد أنه يشبه القس. قام بواجباته

الكنسية بشكل صحيح ودقيق ـ ربما بشكل يفوق مستوى أبرشية انجليزية شرقية. كان يدير صلواته بذوق كامل ويعظ خطباً ممتازة ويقوم في ساعات غير مريحة من الصباح ليحتفل بالعشاء الرباني كل أربعاء وجمعة. لكن لم يخطر بباله أن للقس واجبات خارج جدران الكنيسة الأربعة. ولأنه لم يقدر على دفع أجر مساعد خوري ليساعده في العمل فقد ترك الأعمال القذرة في الكنيسة لزوجته وبعد موتها عام ١٩٢١ إلى دوروثي وتعود الناس على القول بحقد وافتراء بأنه كان سيترك دوروثي تلقي الخطب بلا منة لو كان ذلك جائزاً.

أدرك أفراد(الطبقات الدنيا) موقفه منهم منذ البداية لهذا كرهوه ولو كان غنياً للعقوا حذائه وتملقوه كعادتهم. لم يكترث بكرههم أو حبهم ولم يعر أي انتباه لوجودهم، لكن حاله لم تكن أفضل مع الطبقات العليا أيضاً فقد تقاتل مع سكان الإقليم الواحد تلو الآخر ومع الطبقة الارستقراطية الصغيرة في البلدة أيضاً مثل حفيد البارون الذي حقره ولم يبد أي جهد في إخفاء ذلك. لقد استطاع في ثلاث وعشرين سنة أن يقلص عدد المتعبدين في كنيسته من ستة مئة متعبد إلى أقل من مائتين. لم يكن هذا جراء أسباب شخصية فقط بل بسبب الكنيسة الإنكليزية القديمة العليا التي تحمل على مضايقة كل الجماعات في الأبرشية على السواء. في هذه الأيام لم يبق أمام القس الذي يريد أن يحافظ على مصليه سوى طريقين مفتوحين فقط. الأول أن تكون كنيسته انغلوكاثوليكية نقية وبسيطة أو نقية وغير بسيطة أما الطريق الثاني أن يكون القس نفسه عصري بشكل جريء وواسع العقل ويلقي عظات مريحة تثبت عدم وجود جهنم وأن الأديان الجيدة كلها متشابهة لكنه لم يطرق لا هذا ولا ذاك. من جهة

كان يكن أعمق الازدراء للحركة الانغلوكاثوليكية التي مرت تدون أن تترك أي تأثير عليه (كان يسمها الحمى الرومانية). ومن الجهة الأخرى تعالى جداً على الأعضاء القدماء في الأبرشية فقد كان من وقت لأخر يخيفهم ويخرجهم عن طورهم باستخدامه كلمة (كاثوليكي) المشؤومة في غير مكانها المقدس في العقيدة والوعظ أيضاً لذلك كان من الطبيعي أن تتضاءل جماعة المصلين سنة بعد أخرى. ذهب أولاً أفضل الناس مثل اللورد بوكثورن من محكمة بوكثورن الذي يملك خمس الإقليم والسيد ليفز تاجر الجلود المتقاعد والسير ادوارد هوسن من كابتري هول وغيرهم من الطبقة الارستقراطية الصغيرة مثل مالكي السيارات التي تملك كل اثليستان القاحلة. كان أغلبهم يسوقون سياراتهم صباح الأحد ويذهبون إلى ملبورو التي تبعد خمسة أميال. وميلبورو هذه بلدة يقطنها خمسة آلاف نسمة ويتوفر لك فيها الاختيار بين كنيستين كنيسة القديس ادموند وكنيسة القديس ويدكايند. كانت كنيسة القديس ادموند نسخة حديثة عن القدس التي تصورها بليك وتزين الزخرفة مذبحها ويصب نبيذ العشاء المقدس فيها من زجاجات، أما كنيسة القديس ويدكايند فقد كانت انغلوكاثوليكية وفي حالة حرب عصابات دائمة مع الأسقف. كما تحول السيد كاميرون سكرتير نادي نايبهل المحافظ إلى الطائفة الرومانية الكاثوليكية وانخرط أولاده في حركتها الأدبية وقيل أن لديهم ببغاء كانوا يعلمونه القول خارج الكنيسة لا يوجد آمان لهذا لم يظل أي شخص في كنيسة اثليستان مهما كان موقفه وإخلاصه لها سوى الآنسة ميفيل من غرانج التي أوصت بأكثر أموالها للكنيسة ـ كما قالت ـ لكن لم يذكر أحد

بأنها وضعت أكثر من ستة بنسات في كيس التبرع وبدا أنها ستعيش إلى الأبد.

مرت الدقائق العشر الأولى من الفطور بصمت تام. كانت دوروثي تستنهض شجاعتها للكلام ـ من الواضح أنها ستبدأ بحديث ما قبل إثارة موضوع النقود ـ لكن والدها لم يكن رجلاً سهلاً لبدء حديث قصير معه كما أنه يقع مرات في نوبات من التفكير التجريدي العميق لدرجة يصعب على المرء فيها جذب انتباهه وأحياناً أخرى يكون لطيفاً جداً ويستمع بانتباه إلى ما يستحق من القول. إن الملاحظات المبتذلة المهذبة عن الطقس وغيره تدفعه عادة للسخرية. ومع ذلك قررت دوروثي أن تبدأ بالطقس أولاً.

ـ إنه يوم عجيب أليس كذلك؟ قالت ـ مدركة عند القول تفاهة هذه الملاحظة.

ـ ما العجيب في الأمر؟ سأل القس.

ـ حسناً أقصد أنه كان صباحاً بارد جداً وضبابياً أما الآن فقد تحول إلى يوم جميل بعد أن طلعت الشمس.

ـ وهل هناك أي شيء عجيب بشكل خاص في ذلك؟

لم ينفع ذلك. من الواضح أنه تلقى أنباء سيئة، وحاولت ثانية.

ـ أتمنى لو تخرج وتلقي نظرة على الأشياء التي في الحديقة الخلفية في وقت ما يا أبي. إن حبات الفاصوليا تنمو بشكل ممتاز! البسلة أصبحت أطول من قدم. سأبقي على أفضلها حتى موسم الحصاد طبعاً. أعتقد لو أننا زينا المنبر بأشرطة من نبات الفاصوليا وبعض حبات البندورة التي تتدلى منه.

كانت هذه مخالفة اجتماعية مربكة. نظر القس من فوق طبقه

بنفور عميق وقال بحدة:

ـ يا عزيزتي دوروثي هل من الضروري البدء بإزعاجي بعيد الحصاد مسبقاً؟

ـ آسفة يا أبي، لم أقصد أن أزعجك. فقط ظننت...، قالت دوروثي مضطربة.

ـ هل تعتقدين أنه من الممتع لي أن ألقي خطبتي وسط شرائط زينة من نبات الفاصوليا؟ أنا لست بائع خضار. إن مجرد التفكير فيها يصد نفسي من متابعة إفطاري، متى سيحل هذا الحدث البائس؟ تابع القس:

ـ في السادس عشر من أيلول يا أبي.

ـ ذلك يعني بعد شهر من الآن. بحق السموات دعيني أنساه لفترة أطول! أعتقد بأننا يجب أن نقيم هذا العمل السخيف مرة في السنة لنرضي غرور كل بستاني مبتدئ في الأبرشية. لكن دعينا لا نفكر فيه أكثر مما تتطلبه الضرورة الملحة.

كما تتذكر دوروثي فإن القس لديه مقت مطلق لعيد الحصاد. حتى أنه ضيّع متعبد مهم وهو السيد توغيس مسوق الخضار المتقاعد بسبب كرهه رؤية كنيسته مزينة لتبدو مثل كشك خضار كما قال. إن المنشق السيد توغيس وبدافع المصلحة زين المذبح الفرعي في عيد الحصاد بطوق مكون من كوسا نباتية عملاقة يشبه النصب قبل التاريخي الموجد جنوب انكلترا المؤلف من أعمدة وعتبات صخرية. في الصيف السابق نجح السيد توغيس في إنبات يقطينة هائلة الحجم حمراء نارية يحتاج رفعها لرجلين ووضع تلك اليقطينة المتوحشة الضخمة في الهيكل فبدا المذبح قزماً بجانبها وأخذت كل ألوان

النافذة الشرقية وقيل بأنها جذبت الأنظار في الكنيسة. شعر السيد توغيس بالنشوة وظل يتسكع بجوار الكنيسة طول الوقت دون أن يستطيع الابتعاد عن يقطينته الغالية وأحضر مجموعات متتالية من أصدقائه ليتفرجوا عليها. يمكنك الظن من تعابير وجهه بأنه يستشهد بشعار وردسويرث على ويستمينستر بريدج: ليس لدى الأرض شيء أجمل تتباهى به، بليد الروح من يمر فقط، دون أن يتأثر جداً بفخامة هذا المشهد.

كانت دوروثي تأمل بعد كل هذا بأخذ القس إلى العشاء الرباني لكنه عندما رأى اليقطينة انتابه غضب شديد وأمر بإزالة (ذلك الشيء المقزز حالاً). فور حدوث ذلك هجر السيد توغيس الكنيسة وضاع ورثته من الكنيسة إلى الأبد.

قررت دورثي أن تقوم بمحاولة أخيرة في المحادثة. وقالت:

- لقد تقدمنا كثيراً في العمل بزي تشارلز الأول - كان طلاب مدرسة الكنيسة يتدربون على مسرحية بعنوان تشارلز الأول لمساعدة صندوق المجلة - لكن أتمنى لو اخترنا شيء أسهل. إن صنع الدرع عمل مروع وأخشى من أن الجزمة العسكرية ستكون أسوأ. يجب أن نختار مسرحية رومانية أو إغريقية على ما أظن في المرة القادمة. عصر يلبس الناس فيه ثياباً فضفاضة فقط.

أحدث هذا دمدمة مكتومة أخرى من القس. إن موقف القس من المسرحيات المدرسية والمواكب والأسواق والمبيعات الخيرية والحفلات الموسيقية لتقديم المساعدة لا يختلف عن موقفه من عيد الحصاد فكلها سيئة جداً لكنه تظاهر بعدم الإهتمام. كانت شرور ضرورية كما كان يقول. عند هذه اللحظة فتحت الخادمة ايلين الباب ودخلت

الغرفة بطريقة خرقاء بيد واحدة كبيرة حرشفية تحمل مئزرها الخيش حول بطنها كانت فتاة طويلة مدورة الأكتاف وشعرها بلون الفأر وصوتها كئيب وبشرتها سيئة وتعاني من اكزيما مزمنة. تنقلت عينيها بسرعة على القس خائفة ثم توجهت إلى دوروثي لأنها ترتعب جداً من القس ولا تستطيع التحدث إليه مباشرة:

- من فضلك يا آنسة .. بدأت.

- نعم ؟ قالت دوروثي

- من فضلك يا آنسة إن السيد بورتر في المطبخ ويسأل إن كان القس سيأتي لتعميد طفله فهم لا يعتقدون بأنه سيظل حياً إلى آخر اليوم ولم يتم تعميده بعد.

وقفت دوروثي لكن القس قال وفمه مملوء بالطعام (اجلسي)

- ما هي مشكلة الطفل كما تعتقدين؟ قالت دوروثي.

- حسنا يا آنستي، لون وجهه يتحول إلى الأسود. إنه الإسهال، هذا الشيء القاسي.

أفرغ القس فمه بجهد وصرخ ملتفتاً إلى ايلين:

- هل من الضروري أن اسمع هذه التفاصيل المقززة وأنا أتناول فطوري؟ ابعثي بورتر ليرى مصالحه وأخبريه بأنني سأكون في بيته حوالي الساعة الثانية عشر. لا أعرف لماذا تختار الطبقات الدنيا دائماً أوقات الوجبات لتأتي وتضايقك فيها، ورمى دوروثي بنظرة هائجة وهي تجلس.

كان السيد بورتر عاملاً - للدقة معماراً. إن أفكار القس حول التعميد صحيحة تماماً. لو كان الأمر ضرورياً فعلاً لمشى عشرين ميلاً عبر الثلج كي يعمد طفلاً ميتاً. لكنه لم يحب أن يرى دوروثي تقترح

عليه ترك طاولة إفطاره استجابة لنداء معمار عادي.

لم يعد هناك أي محادثة أخرى أثناء الفطور. كان قلب دوروثي يخور أكثر فأكثر. يجب أن تتم تلبية طلب النقود التي وضح تماماً بأن مصيرها قد باء بالفشل. بعد أن انتهى من فطوره نهض القس عن الطاولة وملأ غليونه من مطريان التبغ الذي على رف الموقد. رتلت دوروثي صلاة قصيرة لتشجع نفسها وأجبرت نفسها: تابعي يا دوروثي! قوليها! لا تترددي رجاءا! وبجهد سيطرت على صوتها وقالت:

- أبي

- ماذا؟ قال القس متوقفا وعود الكبريت في يده.

- أبي، هناك شيء سأسألك عنه. إنه شيء هام.

تبدلت ملامح القس. لقد خمن مباشرة ما الذي ستقوله وبدا الآن أقل إثارة من قبل بشكل لافت لقد سيطر على وجهه هدوء حجري وكأنه كائن خرافي معزول وعاجز.

- والآن يا عزيزتي دوروثي أعرف جيداً ما ستقولينه. أعتقد أنك ستطلبين مني نقوداً أليس كذلك؟

- نعم يا أبي. لأن ...

- حسناً كي أجنبك العناء. لا أملك أي نقود بتاتاً حتى الربع التالي من العام. لقد أخذت حصتك ولا أستطيع أن أعطيك أي نصف بنس آخر. لهذا من العبث حديثك وإزعاجي الآن.

- لكن يا أبي ...

خارت قوى دوروثي أكثر. وأسوأ ما في الأمر موقفه الهادئ والعاجز عندما تأتي دوروثي لطلب النقود منه فقد كان لا يتأثر أبداً عندما تذكره بأنه غارق في الدين لإذنيه. من الواضح بأنه لم يفهم أنه

يجب على المرء أن يدفع للتجار بين الحين والآخر ولا يستطيع أي بيت من الاستمرار دون مخزون كافٍ من المال. لقد خصص ثمانية عشر جنيهاً في الشهر يعطيها لدوروثي كي تنفقها على البيت بما فيها أجور ايلين وبنفس الوقت كان (ذوقه طيبا) بما يخص طعامه ويكتشف فورا تدني نوعيته. كانت النتيجة طبعاً أن أصبح المنزل في حالة دين دائم لكن القس لم يبد أي اكتراث فعلي بذلك أو يشعر به إلا نادراً لأنه مجرد دين لتجار لا يستحق أن يزعج نفسه به بينما يقلق كثيرا إن خسر في أحد استثماراته. حلق ذيل من الدخان منبعث من غليون القس في الأعلى وحدق متأملاً بالنقش الحديدي لتشارلز الأول ونسى تماماً آمر طلب دوروثي للنقود. اخترقت غصة من اليأس أعماق دوروثي عندما رأت لامبالاة أبيها وعادت شجاعتها إليها وقالت بحدة اكبر من ذي قبل:

- أرجوك أن تسمعني يا والدي! يجب أن يكون لدي بعض المال حالاً! يجب حقاً! لا يمكننا الاستمرار بالشكل الذي نفعله الآن. إننا مدانون لكل تجار البلدة تقريباً ووصل الآمر أنني صرت أواجه صعوبة في النزول إلى الشارع صباحاً وأنا أفكر بكل الفواتير التي علينا دفعها. ألا تعرف أننا ندين لكارجيل باثنين وعشرين جنيها؟

- وماذا في الأمر؟ قال القس وهو ينفث دخانه.

- لكن الفاتورة تتزايد منذ أكثر من سبعة شهور! أرسلها عدة مرات. يجب أن ندفعها! من غير العدل أن نبقي الرجل ينتظر نقوده بهذه الطريقة!

- هراء، يا طفلتي العزيزة! يتوقع هؤلاء الناس بأنهم سيظلون ينتظرون نقودهم. يحبون ذلك لأنه يجلب لهم فائدة أكثر في النهاية.

يعلم الله كم أنا مدان لكاتين اند بالم . ـ يجب أن أسأل ـ .
ويطالبونني بإلحاح في كل رسالة لكن هل سمعت أي شكوى مني؟
ـ لكن يا أبي لا استطيع أن انظر إلى الأمر كما تفعل أنت لا استطيع! من المرعب أن تظل مدانا بشكل دائم! وهذا كريه جداً إن لم يكن خطيئة فعلية ويسبب لي الخجل الشديد! عندما اذهب إلى محل كارجيل لأطلب منه تقطيع اللحم يتكلم معي باختصار ويتركني انتظر بعد آخر زبون كل ذلك لأن فاتورتنا تتراكم دائماً والأسوأ من ذلك أنني لا أجرؤ على التوقف عن الطلب منه لأنني اعتقد بأنه سيشوه سمعتنا إن فعلت ذلك. تجهم وجه القس وقال:
ـ ماذا! هل تقصدين القول بأن الولد كان وقحا معك؟
ـ لم اقل أنه وقح يا أبي لكن لا يمكنك لومه إن غضب عندما لا يدفع له دينه.
ـ استطيع لومه بالتأكيد! أصبح تصرف هؤلاء الناس مقيت جداً هذه الأيام . ـ لكن ها أنت ترين هذا النوع من الأفعال الذي نتعرض لها في هذا القرن المبهج هذه هي الديمقراطية والتقدم كما أسعدهم تسميتها. لا تطلبي من هذا الولد ثانية. اخبريه بأنك تتعاملين مع محل آخر. تلك هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع هؤلاء الناس.
ـ لكن يا أبي ذلك لن يحل أي شيء. حقيقة وفعلا ألا تعتقد بأننا يجب أن ندفع له؟ ألا يمكننا الحصول على المال بطريقة ما؟ ألا تستطيع بيع بعض الأسهم أو أي شيء؟
ـ لا تحدثيني يا طفلتي العزيزة عن بيع الأسهم! فقد تلقيت أسوأ الأنباء من سمساري واخبرني بأن أسهمي في سومارتاتين قد هبطت من سبع وأربع بنسات إلى ست وبنس. هذا يعني خسارة قدرها ستين جنيها

وأبلغته بأن يبيع فورا قبل أن تهبط أكثر.

- إن بعت فسيكون لديك نقود جاهزة، أليس كذلك؟ ألا تعتقد بأنه من الأفضل التخلص من الدين نهائيا؟

- هراء، هراء. أنت لا تعرفين أي شيء حول هذه المسائل. يجب أن استثمر فورا في شيء ذو فائدة أكبر. إنها الطريقة الوحيدة لاسترجاع نقودي. قال القس بهدوء أكثر وهو يعيد الغليون إلى فمه.

نظر مقطباً بشرود إلى النقش المعدني وهو ويضع إبهامه في حزام سترته. لقد نصحه سمساره بالاستثمار في يونايتدكلينز. لقد كانت سوماتراتين ويونايتدكلينز وعدد آخر لا يحصى من الشركات الخيالية السبب في مصاعب القس المالية. كان مقامراً عنيداً. ولم ينظر إلى الأمر كمقامرة بل مجرد بحث مستمر مدى الحياة عن (استثمار جيد). عندما أصبح شيخا ورث أربعة آلاف جنيه قلصها تدريجياً إلى حوالي الألفين جراء استثماراته. والأسوأ انه كان ينجح في كشط خمسين جنيه من دخله البائس التي تضيع بنفس الدرب كل سنة. من الغريب أن إغواء (الاستثمار الجيد) ينتاب رجال الدين بإصرار أكبر من أي طبقة أخرى من الناس وربما هو البديل الحديث عن الشياطين التي كانت تبدو بشكل نساء لترتاد النساك في العصور المظلمة.

- سوف اشتري خمس مئة سهم من يونايتدكلينز، قال القس أخيراً.

بدأت دوروثي تفقد الأمل فأبيها يفكر الآن باستثماراته (هي لا تعرف شيئاً عن هذه الاستثمارات سوى أنها تخالف الظواهر النظامية). سقط دين المحل تماماً فوراً من ذهنه. وقامت بمحاولة أخيرة.

ـ أبي دعنا نحل هذا أرجوك. هل تعتقد بأنك ستعطيني نقوداً إضافية في القريب العاجل؟ ليس هذه اللحظة، ربما، الشهر القادم أو الشهرين؟

ـ كلا يا عزيزتي، لا أعتقد. ربما في عيد الميلاد أما قبل ذلك فمن غير المحتمل أبداً. وفي الوقت الحالي فبالتأكيد لا. لا يمكنني الاستغناء عن نصف بنس.

ـ لكن يا أبي، إن الشعور بأننا لا نستطيع سداد ديوننا مخيف ومرعب! وعيب علينا. في آخر مرة كانت السيدة ويلوين فوستر هنا ـ ـ السيد ويلوين فوستر كبير الكهنة في الريف ـ ـ تجولت في كل البلدة وسألت الكل أسئلة شخصية جداً حولنا، كيف نمضي وقتنا وكم لدينا من المال وكم طنا من الفحم نستخدم في السنة وكل شيء. وهي تحاول أن تتدخل في أمورنا دائماً. افترض أنها اكتشفت بأننا متورطون في الدين!

ـ هذا شأننا بالتأكيد ولا أفهم ما علاقة السيدة ميلوين فوستر أو غيرها بذلك.

ـ لكنها كررت ذلك في المكان كله وضخمته أيضاً! أنت تعرف ما هي السيدة ميلوين فوستر التي تحاول أن تكتشف شيئاً معيباً حول رجال الدين في كل أبرشية تذهب إليها وبعدها تعيد كل كلمة سمعتها للأسقف. لا أريد أن أكون غير متسامحة معها، لكنها فعلاً ـ ـ

صمتت دوروثي بعد أن أدركت بأنها يجب أن تكون متسامحة فعلاً.

ـ إنها امرأة محتقرة. وماذا فيها؟ ومن لم يسمع بزوجة مطران ريفي

لم تكن محتقرة؟ قال القس بهدوء.

ـ لكن يا أبي يبدو أنني لن استطيع أن أجعلك تدرك خطورة الأشياء! ليس لدينا ما نعيش عليه الشهر القادم. ولا أعرف من أين سنأتي بلحم لعشاء اليوم.

ـ الغداء، الغداء يادوروثي، أتمنى أن تسقطي عادة الطبقة الدنيا الكريهة في تسمية وجبة منتصف اليوم عشاء. قال القس بأثر من الهياج

ـ للغداء إذا. من أين سنحصل على اللحم؟ لا أجرؤ على طلب حصة أخرى من كارجيل.

ـ اذهبي إلى الجزار الأخر ـ ماذا كان اسمه؟ سولترولا تهتمي بكارجيل. هو يعرف بأنه سوف يسترد دينه آجلا أم عاجلا. يا الهي لا اعرف لماذا كل هذه الجلبة! أليس كل واحد مدان ببعض النقود لتاجره؟ أتذكر بوضوح ـ

مط القس أكتافه إلى الأمام قليلاً وأعاد وضع الغليون في فمه ونظر بعيداً، أصبح صوته مولع باستعادة الذكريات ومقبولاً بوضوح أكثر.

ـ أتذكر جيداً عندما كنت في أكسفورد بأن أبي لم يدفع بعض فواتير دينه المستحقة لأكسفورد قبل ثلاثين سنة. وظل توم ـ ـ ابن عم القس، البارون... مدان بسبعة آلاف جنيه إلى أن ورث نقوده. لقد أخبرني هذا بنفسه.

عند ذلك تلاشى آخر أمل عند دوروثي. عندما يبدأ القس بالتحدث عن ابن عمه توم وأشياء حدثت عندما كان في أكسفورد فلا يجدي معه شيء. يعني ذلك أنه انزلق إلى الماضي الذهبي الخيالي

الذي لا مكان فيه لتلك الأشياء السوقية مثل فواتير اللحام وغيرها. تمر فترات طويلة ينسى فيها بأنه ليس سوى قس ريفي فقير وليس ابن عائلة ذات ممتلكات وحقوق مستقبلية لخلفه. لقد كان الموقف الارستقراطي المكلف هو الوحيد الذي يراوده بشكل طبيعي لهذا من الطبيعي أن يعيش بشكل غير مزعج في عالمه الخيالي وكان على دوروثي أن تتقاتل مع التجار وتجعل ساق من الضأن تدوم من الأحد إلى الأربعاء. إنها تعرف عبث الجدال معه لمدة أطول الذي سينتهي بإزعاجه. نهضت عن الطاولة لتكوم الأشياء في الصينية. قالت للمرة الأخيرة عند الباب والصينية بيديها:

- هل أنت متأكد جداً بأنه لا تقدر أن تعطيني نقوداً يا أبي؟

لكن القس المحدق في البعيد وسط أكاليل الدخان لم يسمعها. لقد كان يفكر بأيامه الذهبية في أكسفورد. خرجت دوروثي من الغرفة حزينة لدرجة البكاء تقريباً ووضع موضوع الديون البائس على الرف مرة أخرى كما وضع آلاف المرات من قبل دون أي أمل في حل نهائي.

٣

نزلت دوروثي التل ممتطية دراجتها القديمة والسلة على المقود وهي تقوم بحساب ذهني لثلاثة جنيهات وتسعة عشر شلن وأربعة بنسات . . كل ما تملكه من مال حتى عيد الربيع القادم. لقد تفحصت قائمة حاجيات المطبخ لكن في الواقع كان المطبخ بحاجة لكل شيء؟ الشاي والقهوة والصابون والكبريت والشموع والسكر والعدس والحطب والصودا وملمع الأحذية والسمنة النباتية والخميرة – فهم عملياً بحاجة لكل شيء. وفي كل لحظة تظهر مادة جديدة وترعبها أكثر كفاتورة المغسلة والفحم الذي بدأ ينفذ ومشكلة السمك يوم الجمعة. كان القس صعباً فيما يتعلق بالسمك. وهو بصراحة فجة لا يأكل سوى أغلى أنواع السمك من القد والرنك والورنك والرنجة ولا يقبل بالسمك المملح والمدخن.

أما الآن فيجب عليها أن تتدبر لحم العشاء . . تطيع والدها بحذر وتسميه غداء . . عندما تتذكر. بالمقابل لا يمكن بصدق تسمية وجبة المساء إلا عشاء. قررت دوروثي أن تصنع عجة من أجل غداء اليوم لأنها لم تجرؤ على الذهاب إلى محل كارجيل مرة أخرى. وبالطبع إن تناولوا عجة على الغداء فسيكون العشاء بيض مقلي طبعاً وقد يسخر والدها من ذلك الذي سأل في آخر مرة أكلوا فيها بيض مرتين في ببرود (هل فتحت مزرعة دجاج يا دوروثي؟) وربما تحصل غداً على رطلين من

النقانق من انترناشنال وذلك سيجنبها قضية اللحم يوم آخر.

يجب أن تقضي تسعة وثلاثين يوم آخر بثلاث جنيهات وتسع عشر وأربع بنسات. استولت تلك الفكرة على مخيلة دوروثي وأرسلت داخلها موجة من الإشفاق على الذات شعرت بها فورا. والآن يا دورثي! لا تبكي أرجوك! إن وثقت بالرب ستكون كل الأمور على ما يرام. ماثيو الرابع، ٢٥. الرب سوف يوفر. هل سيوفر؟ أزالت دوروثي يدها اليمنى عن مقود الدراجة وتحسست الدبوس المدبب الزجاجي لكن فكرة التجديف خبت. في هذا اللحظة انتبهت ورأت وجه بروجيت الأحمر المتشائم وهو يحيها باحترام وبسرعة من الطرف الآخر من الطريق.

توقفت دوروثي ونزلت عن دراجتها فقال بروجيت:

ـ العفو يا آنسة، أريد التحدث معك، يا آنسة خاص.

نفثت دوروثي حسرة من أعماقها. عندما يريد بروجيت التحدث معك بموضوع خاص يمكنك التأكد مما سيقوله مسبقاً وسيكون بعض الأخبار المزعجة عن وضع الكنيسة.

كان بروجيت رجلاً متشائماً وحي الضمير كما أنه عضو مخلص جداً للكنيسة لكن على طريقته. بعقله البليد جداً والعاجز عن تبني أي معتقدات دينية معينة أبدى ورعه من خلال عنايته المكثفة بحال أبنية الكنيسة. لقد قرر منذ زمن بعيد أن كنيسة المسيح تعني الجدران والسقف والبرج في اثليستان وكان يمضي ساعات طويلة من اليوم وهو يتجول حولها مكتئباً بملاحظة حجر مشقوق هنا وعارضة خشبية متآكلة هناك وبعد ذلك طبعاً يأتي لمضايقة دوروثي بطلبات الإصلاح التي تكلف مبالغ مستحيلة من المال.

ـ ما الأمر يا بروجيت ؟ قالت دوروثي.

ـ حسنا يا آنسة هم – صوت غريب وغير جيد. . .

لم يكن كلاماً بل طيف كلام تجمع على شفتي بروجيت. يبدو أنه كان سيبدأ بحرف قاف. كان بروجيت واحداً من الرجال الذين هم دائماً على وشك الشتم لكنه يمسك نفسه قبل أن يفلت من بين أسنانه. (إنها الأجراس يا آنسة) قال بعد أن تخلص من صوت القاف بصعوبة. الأجراس التي في برج الكنيسة، تتكسر هناك على أرض البرج بطريقة تجعلك ترتعدين عند النظر إليها. يجب أن ننزلها إلى الأسفل قبل أن نعرف أين نحن. كنت في أرض البرج هذا الصباح وأقول لك إنني نزلت بسرعة أكبر من الصعود بعدما رأيتها تكسر الأرض التي تحتها.

كان بروجيت يأتي مرة كل نصف شهر على الأقل ليشكو حالة الأجراس التي صار لها ثلاث سنوات ملقاة على أرض البرج لأن كلفة إصلاحها أو إزالتها قدرت بخمسة وعشرين جنيها وهي تعادل خمسة وعشرين ألفاً بالنسبة للشخص الذي سيدفعها. لقد كانت خطرة كما أدلى بذلك بروجيت. وسوف تسقط بالتأكيد هذه السنة أو السنة القادمة أو في المستقبل القريب في أبعد تقدير من خلال أرض البرج داخل رواق الكنيسة. وكان بروجيت مولعاً بالإشارة إلى أن ذلك قد يحدث صباح يوم أحد حين تدخل جماعة المصلين إلى الكنيسة. تحسرت دورثي مرة أخرى. هذه الأجراس الحقيرة لا تغيب عن بالها طويلاً، لقد دخل سقوطها إلى أحلامها مرات كثيرة. كان هناك مشكلة ما في الكنيسة دائماً فإن لم تكن ارض البرج فهناك السقف أو الجدران أو مقعد مكسور يريد النجار عشر بنسات لإصلاحه أو

كتب التراتيل السبعة التي تحتاج واحد وست شلنات أو انسداد مدخنة الموقد وأجرة تنظيفها المقدرة بنصف كراون أو تحطم زجاج نافذة أو إهتراء سترات صبيان الكورس. لا توجد نقود كافية لأي شيء. شكّل الأرغن الجديد الذي أصر القس على شرائه قبل خمس سنوات عبئا كبيرا ظل صندوق نفقات الكنيسة يترنح تحته منذ ذلك الوقت ـ وقال القس بأن الأرغن القديم يذكره ببقرة مصابة بالربو.

ـ لا أعرف ماذا يمكننا أن نفعل، أنا فعلاً لا أعرف. نحن ببساطة لا نملك أي نقود. وحتى لو حصلنا على القليل من مسرحية أطفال المدرسة فستذهب كلها إلى صندوق الأرغن. لقد استاء أصحابه كثيرا حول فاتورتهم. هل تكلمت مع أبي؟ قالت دوروثي.

ـ نعم يا آنسة لم يفعل شيء وقال لقد بني البرج منذ خمس مئة عام ولا يمكننا التأكد إن كان سيظل متماسكاً بضع سنوات بعد أم لا.

كان هذا متناسباً تماماً مع ما سبق. لم يترك إدراك القس بأن الكنيسة كانت تنهار بشكل واضح فوق رأسه أي أثر عليه وتجاهله ببساطة مثلما تجاهل كل الأشياء الأخرى التي لم يرغب بالقلق عليها. كررت دوروثي القول:

ـ حسناً لا أعرف ماذا يمكن أن نفعل. طبعاً هناك مزاد خيري سيبدأ الأسبوع بعد القادم. أنا معولة على الآنسة ميفيل لتعطينا شيء سار في المزاد. أعرف أنها تستطيع أن تزودنا بأشياء. لديها الكثير من الأثاث والأشياء التي لا تستخدمها أبدا. لقد كنت في بيتها قبل البارحة ورأيت أجمل طقم شاي صيني كانت تخفيه في خزانة وأخبرتني بأنها لم تستعمله منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. لو أعطتنا هذا الطقم سيجلب لنا جنيهات كثيرة. يجب أن ندعو الرب

بأن ينجح المزاد الخيري يابروجيت. صل بأن يجلب لنا خمس جنيهات على الأقل. أنا متأكدة بأننا سنحصل على المال بطريقة ما لو دعونا من قلوبنا بصدق.

ـ نعم يا آنستي، قال بروجيت باحترام وحول بصره نحو الأفق البعيد.

في تلك اللحظة جاءت سيارة زرقاء لامعة واسعة على الطريق تسير ببطء مطلقة بوقاً سريعاً ومتجهة إلى الشارع العام. ومن خارج إحدى النوافذ أقحم السيد بيلفل ـ غوردن مالك معمل تكرير السكر رأسه الأملس الأسود وبدا غير متناسق مع بذلة هاريس الرملية اللون التي يلبسها وحين مر بجانبها توهج بابتسامة دافئة غزلية تقريباً بدلاً من تجاهلها كعادته. كان معه إبنه الأكبر رالف ـ أو كما يسميه هو العائلة والف وهو شاب مخنث في العشرين من عمره ميال إلى شعر إليوت الحر وبنتا اللورد بكثهورن. لقد ابتسموا جميعاً حتى بنات اللورد أيضاً.

اندهشت دوروثي من ذلك لأن هؤلاء الناس لم يتكرموا بالتعرف عليها في الشارع منذ سنين كثيرة. وقالت:

ـ أليس السيد بيلفيل ـ غوردن ودود جداً هذا الصباح؟

ـ نعم يا آنسة. أنا متأكد أنه كذلك. إن الانتخابات قادمة الأسبوع المقبل، هذا هو السبب. سيظلون كالعسل والزبدة حتى يتأكدوا بأننا انتخبناهم ثم ينسوا وجوهنا في اليوم التالي.

ـ أوه الانتخابات، قالت دوروثي بشكل مبهم.

كانت الإنتخابات البرلمانية وأمثالها بمنأى عن جولتها اليومية من عمل الأبرشية لدرجة لم تشعر بوجودها عملياً ـ وفي الواقع هي لا تعرف

الفرق بين الليبرالي والمحافظ والاشتراكي والشيوعي.

- حسناً يابروجيت، قالت فوراً ناسية الانتخابات بسبب شيء أهم منها، سوف أكلم أبي واخبره عن خطورة وضع الأجراس. اعتقد أن أفضل ما بوسعنا فعله أن ننظم اكتتاب خاص للأجراس فقط. ولا نعرف يمكننا جمع خمس جنيهات أو حتى عشرة. هل تعتقد لو أنني ذهبت إلى الآنسة ميفيل وطلبت منها أن تفتح الاكتتاب بخمس جنيهات فهل تعطيها لنا؟

- اسمعي كلامي يا آنسة ولا تقولي للآنسة ميفيل أي شيء عن الأجراس. ستخاف حتى الموت من ذلك. وإن ظنت أن ذلك البرج غير آمن فلن تكون إلى جانب الكنيسة أبداً ثانية.

- يا للهول! افترضت العكس.

- لا يا آنستي. لن نحصل على شيء منها، هذه العجوز الق..

طفا شبح حرف القاف مرة أخرى على شفتي بروجيت الذي ارتاح باله أكثر الآن بعد أن قدم تقريره النصف شهري عن حالة الأجراس ثم رفع قبعته ورحل. ركبت دوروثي دراجتها وواصلت قيادتها في الشارع العام وذهنها مشغول بالمشكلتين المتشابهتين ديون المحلات ونفقات الكنيسة اللتان تطاردان بعضهما مثل متلازمتي فيلانيل. أرسلت شمس نيسان الضعيفة التي كانت تلعب لعبة الغميضة وسط جزر من الغيوم الصوفية الصغيرة شعاعاً مائلاً أضاء واجهات بيوت الجانب الشمالي بلون ذهبي. كان شارعاً قديم الطراز ناعساً ويبدو هادئاً للزائر العرضي لكنه يختلف جداً حين تعيش وسطه ويكون لك عدو أو دائن خلف كل نافذة فيه. كانت الأبنية البارزة بالتحديد هي اولدتيشوب الذي بدا بواجهته الجصية التي ثبتت عليها عوارض مزيفة

ونوافذه الزجاجية وسقفه الدائري المجعد الكريه مثل بيت صيني وبناء مكتب البريد الجديد ذو الأعمدة الإغريقية. على بعد مائتي ياردة تقريباً يتشعب الشارع مشكلاً سوقاً صغيراً مزيناً بمضخة غير صالحة للاستعمال الآن وزوج من الأوتاد المتآكلة وعلى جانبي المضخة ينتصب دوغ اند بتل وهو الفندق الوحيد في البلدة ونادي نايبهل المحافظ. وبنهايته يطل الشارع على محل كارجيل المخيف.

اقتربت دوروثي من الزاوية وسمعت صوتا رهيبا لهتاف اختلط بصوت آلة موسيقية تعزف أغنية (حكم بريطانية). كان الشارع الناعس في العادة مكتظاً بالناس وأسرع كثير غيرهم من الشوارع الجانبية. من الواضح بأن هناك موكب وعلق حبل من الأعلام الزرقاء عبر الشارع من سقف فندق دوغ اند بتل إلى النادي المحافظ وفي الوسط راية كبيرة طبع عليها (بلفيل - غوردن والإمبراطورية!) بجانبها وبين صفوف الناس تحركت سيارة السيد بيلفيل - غوردن ببطء شديد وهو يوزع ابتساماته السخية على اليمين والشمال. أمام السيارة مشت مفرزة من الجواميس يقودها رجل صغير تبدو عليه الجدية يعزف على آلة موسيقية وتحمل راية أخرى كتب عليها: من سينقذ بريطانيا من الحمر؟ بيلفيل - غوردن. من سيعيد الجعة إلى قدوركم؟ بيلفيل - غوردن دائماً!

ومن نافذة النادي المحافظ رفرف علم ضخم للمملكة ومن فوقه ستة وجوه تبتسم بحماس.

قادت دوروثي دراجتها ببطء في الشارع وهي قلقة جداً من المرور بجانب محل كارجيل (يجب أن تمر من جانبه لتصل إلى محل سولبايب) كي تتمكن من مشاهدة الموكب كله. توقفت سيارة

بيلفيل ـ غوردن لحظة خارج اولد تي شوب. كان فوج القهوة في المقدمة! أكثر من نصف سيدات البلدة أسرعن بالمجيء وهن يحملن سلال التسوق أو كلابهن الصغيرة للتجمع حول السيارة مثل المخمورين حول عربة إله العنب. رغم كل شيء تبقى الانتخابات المرة الوحيدة التي تتوفر فيها فرصة لتبادل الابتسامات مع سكان الإقليم. كانت هناك صيحات أنثوية متلهفة تتمنى الحظ الجيد للسيد بيلفيل ـ غوردن! الذي لم تتوقف ابتساماته السخية لكنها تدرجت بحذر. للعوام وزع ابتسامات شاملة منتشرة لم تستقر على فرد بعينه ولسيدات المقهى وللستة مواطنين ذوي الوجوه القرمزية من النادي المحافظ وزع ابتسامة واحدة لكل واحد منهم ولأفضل الجميع والمحبب الشاب والف فقد لوح بيديه من حين لآخر بإشارات ابتهاج مميزة.

توتر قلب دوروثي عندما رأت السيد كارجيل واقفاً أمام محله كغيره من أصحاب المحلات. كان رجلاً طويلاً ذو مظهر شرير في مئزر أزرق مخطط ووجه ارجواني أعجف مكشوط يشبه إحدى قطع اللحم التي تظل طويلا في واجهة محله. تسمرت عينا دوروثي بمظهر الرجل المشؤوم لذلك لم تنظر إلى الطريق الذي سلكته فاصطدمت برجل ضخم وبدين جداً كان يجتاز الرصيف بالاتجاه المعاكس.

استدار الرجل الضخم وهتف قائلاً:

ـ يا الله إنها دوروثي!

ـ آوه السيد ووربيرتون! يا للروعة!هل تعرف أنني شعرت بأنني سألقاك اليوم.

ـ بوخز إبهامك، على ما أعتقد؟ قال السيد وربيرتون مبتسماً بوجهه الواسع القرنفلي وأضاف:

- وكيف حالك؟ لكن بحق جوف ما هي الحاجة التي تريدينها؟ تبدين فاتنة أكثر من قبل.

ضغط على مرفق دورثي العاري - لقد بدلت ولبست ثوب نسائي قطني بلا أكمام. تراجعت دوروثي للوراء لتكون بمنأى عنه فهي تكره أن يضغط أو يربت احد على مرفقها وقالت بصرامة:

- أرجوك، لا تضغط على مرفقي فأنا لا أحب ذلك.

- عزيزتي دوروثي من يستطيع مقاومة إغراء مرفقك هذا؟ إنه من النوع الذي يضغطه المرء آليا، بفعل انعكاسي، إن فهمتني.

قالت دوروثي بعد أن وضعت الدراجة بينها وبين السيد وربيرتون:

- متى رجعت إلى نايبهل؟ لم أشاهدك منذ أكثر من شهرين.

- وصلت قبل الأمس لكن هذه مجرد زيارة خاطفة. سأغادر مرة أخرى غدا. سوف آخذ الصغار إلى بريتاني - أولاد الزنا

نطق السيد وربيرتون بكلمة أولاد الزنا التي أزعجت دوروثي مع أثر من الاعتداد الساذج بالنفس. هو وأولاد الزنا الثلاثة كانوا الفضيحة الرئيسية في البلدة. إنه رجل ذو دخل مستقل ويدعى بأنه رسام - وينتج نصف دزينة من المناظر الطبيعية متوسطة الجودة كل سنة - لقد جاء إلى البلدة قبل سنتين واشترى إحدى الفيلات الجديدة خلف بيت القس. كان يعيش أو يقيم هناك دورياً ويعاشر امرأة بصورة غير شرعية بصورة علنية مدعياً بأنها مدبرة المنزل. ومنذ أربعة شهور ارتكبت هذه المرأة الأجنبية - اسبانية كما قيل - فضيحة جديدة وسيئة حين هجرته فجأة أما الأولاد الثلاثة فقد تركوا مؤقتاً عند قريب في لندن. مظهره أنيق ومهيب الطلعة رغم صلعه التي كان يخفيه بعناء كبير ويتحرك بشكل رشيق وغير رسمي ليعطي الانطباع بأن

كرشه الكبير ليس سوى امتداد لصدره. كان في الثامنة والأربعين من عمره لكنه لا يعترف إلا بأربع وأربعين منها ووصفه أهل البلدة بالوغد المتمرس كما تخشاه الشابات لكن ليس من غير سبب.

وضع السيد وربيرتون يده الأبوية الزائفة على كتف دوروثي وهو يقودها عبر الحشد وظل يتحدث طول الفترة دون توقف. تابعت سيارة بليفيل - غوردن طريقها بعد أن لفت حول المضخة وبرفقتها جماعة من المغنين متوسطي العمر. تنبه السيد وربيرتون وتوقف يتفحصها وسأل:

- ما معنى هذا التهريج المقزز؟

- آوه إنهم - ماذا يسمونه؟ - يقومون بحملة انتخابية. يحاولون أن يدفعونا كي نصوت لهم، على ما أعتقد.

- يحاولون أن يدفعونا لنصوت لهم! يا الله!

تمتم السيد وربيرتون وهو ينظر إلى الموكب. رفع عصاه ذات الرأس الفضي الكبير التي يحملها دائماً وأشار أولا إلى شخص في الموكب ثم إلى آخر وقال:

- انظري إليه! انظري إلى أولاد الجنيات هؤلاء وذاك الأخرق المعتوه الذي يكشر لنا مثل نسناس يرى كيس جوز. هل حدث وان رأيت أقبح من هذا المنظر؟

- كن حذراً. من المؤكد أن أحد ما يسمعنا ، تمتمت دوروثي.

رد السيد روبيرتون رافعاً صوته أكثر من قبل.

- جيد وإلى وقاحة ذلك الكلب الوضيع الذي يظن أن منظر أسنانه الإصطناعية يسرنا! إن تلك البذلة التي يلبسها إساءة بحد ذاتها. هل هناك مرشح إشتراكي؟ أنا سأصوت له بالتأكيد.

التفت كثير من الناس الذين على الرصيف وحدقوا. رأت دوروثي

السيد تويس الصغير تاجر الحديد العجوز الذابل الذي أصبح بلون الجلد وهو يحدق بهما بحقد مستور قرب السلال الصاخبة التي علقت في مدخل محله والتقط كلمة اشتراكي ودون في عقله بأن السيد وربيرتون اشتراكي ودروثي صديقة الاشتراكيين.

- يجب علي مواصلة طريقي، قالت دوروثي وشعرت بأنه يفضل أن تفر قبل أن يقول السيد بيرتون شيئاً آخر أقل لباقة.

- آوه كلا لا، لن تفعلي! لا يمكن! سوف آتي معك، قال السيد وربيرتون.

ومشى إلى جانبها وهو يقود دراجتها بيده دون أن ينقطع عن الكلام وصدره الواسع بارز للأمام وعصاه مثبتة تحت ذراعه. كان رجلاً يصعب التخلص منه ورغم أن دوروثي تعتبره صديقا فقد تمنت أحيانا بأن لا يختار أكثر الأماكن الأهلة ليتحدث معها لأنه فضيحة البلدة وهي ابنة القس لكنها في هذه اللحظة شكرته على تلك الرفقة التي سهلت عليا اجتياز محل كارجيل. الذي ظل واقفاً على درجة باب محله وهو يرشقها بنظرة جانبية ذات معنى.

- لم يكن لقائي بك هذا الصباح مجرد صدفة جميلة بل في الحقيقة كنت ابحث عنك. هل تعرفين من سأستضيف على عشاء الليلة؟ بيولي - رونالد بيولي.

- رونالد بيولي؟ كلا لا أعتقد هذا. ومن يكون؟

- لماذا، اللعنة! رونالد بيولي الروائي. مؤلف برك السمك والخليلات. من المؤكد أنك قرأتها أليس كذلك؟

- لا، لم اقرأها وفي الحقيقة لم اسمع بها حتى.

- عزيزتي دوروثي أنك تهملين نفسك. يجب أن تقرئي برك السمك

والخليلات. إنها مثيرة. أؤكد لك انها من فن الطبقة العالية الإباحي. إنه الشيء الذي تحتاجينه لتخلصي فمك تماماً من طعم المرشدات.

- أتمنى أن لا تتفوه بمثل هذه الأشياء!

قالت دوروثي وهي تنظر بعيداً بغير ارتياح وبعدها مباشرة نظرت للوراء مرة أخرى لأن عينيها التقت بعيني كارجيل. وأضافت:

- أين يعيش السيد بيولي هذا؟ ليس هنا بالتأكيد أليس كذلك؟

- كلا. إنه قادم من ابسويتش للعشاء وربما يقضي الليلة هنا لهذا كنت أبحث عنك. اعتقدت بأنك تودين مقابلته. ما رأيك أن تأتي للعشاء الليلة؟

- من المستحيل أن آتي إلى العشاء، علي أن أتدبر أمر عشاء والدي وآلاف الأشياء الأخرى ولن اخلص قبل الثامنة أو حتى بعدها.

- حسناً تعالي مباشرة بعد العشاء إذا. أود أن تتعرفي على السيد بيولي. هو رفيق ممتع ومتأقلم جداً مع فضيحة بلومزبيري وكل ذلك. سوف تستمتعين بلقائه الذي سوف يساعدك في الفرار من خن الكنيسة لبضع ساعات.

ترددت دوروثي. لقد أغواها. والحقيقة تقال أنها تستمتع جداً بزياراتها العرضية إلى بيت السيد واربيرتون التي كانت بمعدل مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، ومن الواضح أنها غير كافية للتآلف مع رجل كهذا ولا تذهب إلى بيته إلا بعد تتأكد مسبقا من وجود ضيف آخر على الأقل هناك.

التقت دوروثي بالسيد واربيرتون في حفلة شاي قبل سنتين، حين وصل لأول مرة إلى البلدة وتظاهر بأنه أرمل ولديه ولدان وبعد ذلك بوقت قليل ولدت مديرة المنزل الولد الثالث في منصف الليل، وبعدها

قامت بزيارته. قدم لها السيد وربيرتون شايا وتحدث بشكل مسلي عن الكتب ثم مارس الحب معها بشكل عنيف ووحشي وشائن. لقد كان اغتصاب. ارتعبت دوروثي وخرجت عن طورها لكن رعبها أفقدها القدرة على المقاومة. فرت منه والتجأت إلى الطرف الآخر من الأريكة شاحبة ومرتجفة وتكاد تنفجر بالبكاء. لكن السيد وربيرتون لم يخجل إطلاقا وبدا مسرورا.

- كيف استطعت ان تفعل ذلك؟ كيف؟ تنهدت

- يبدو أنني لم استطع، قال وربيرتون

- اوه لكن كيف أمكنك أن تكون بهيمة بهذا الشكل؟

- أوه ذلك سهل يا طفلتي ستفهمين ذلك عندما تبلغين سني.

بالرغم من هذه البداية السيئة، نشأ بين الطرفين نوع من الصداقة إلى درجة شاع بسببها حديث عن دوروثي. ولا يلزم الكثير لكي يحكي الناس عنك في نايبهل. كانت تراه فقط على فواصل وتأخذ كل الاحتياط اللازمة كي لا تكون بمفردها معه لكن رغم كل ذلك يجد الفرصة لمعاشرتها عرضياً. ولم يتكرر الحادث الكريه السابق وجرت اللقاءات اللاحقة بصورة مهذبة ولطيفة. وبعد أن سامحته اخبرها السيد وربيرتون بأنه يجرب ذلك دائماً مع أي امرأة حسنة الشكل يلتقي بها. وسألت دوروثي دون أن تستطيع منع نفسها عن ذلك.

- ألم تواجه بعض اللوم والتوبيخ؟

- نعم بالتأكيد لكن كما تعرفين حققت بعض النجاحات أيضاً

يتعجب الناس كيف تعاشر فتاة مثل دوروثي ولو عرضياً رجلاً كالسيد وربيرتون، لكن قبضته عليها كانت مثل قبضة الكافر

على التقي. في الحقيقة ليس عليك سوى المراقبة لتتأكد أن الورع والفاسق ينجرفان معاً وأن أفضل مناظر الدعارة في الأدب دون استثناء كتبها المؤمنون الأتقياء أو الكفرة المتازين. نجحت دوروثي التي ولدت في القرن العشرين في الإحتفاظ بهدوئها وهي تستمع إلى كفر السيد وربيرتون إذ من الخطأ الفادح مداهنة الشريرين بتركهم يرون أنك متأثر بهم إضافة أنها مولعة به بحق. لقد ضايقها وأحزنها ومع ذلك حصلت منه دون أن تدري تماماً على أنواع من التعاطف والتفاهم اللذين لم تجدهما في أي مكان آخر. رغم كل عيوبه فإن حديثه محبوبا وبه ذكاء زائف - اوسكار وايلد ممدا سبع مرات – لم تدركه بسبب فقر تجربتها وفتنها وهو يصدمها. ربما أيضاً في هذا الحدث كان لفكرة لقاء السيد بيويلي المشهور تأثير عليها وبالتأكيد هي لم تقرأ كتاب برك السمك والخليلات وإلا لوجب عليها أداء كفارات كثيرة. لاشك بأن المرء لا يعبر شارعا في لندن دون أن يرى خمسين روائيا لكن مثل هذه الأشياء تبدو مختلفة في نايبهل.

- هل أنت متأكد أن السيد بيولي قادم؟ قالت

- متأكد تماماً. وزوجته قادمة أيضاً كما أعتقد، يعني مرافقة كاملة. لن يكون هناك أعمال تاركين ولوكريس هذا المساء.

- حسنا، شكرا جزيلا سوف آتي حوالي الثامنة والنصف، كما أتوقع.

- سيكون الأمر أفضل بكثير لو استطعت المجيء في النهار. تذكري بأن السيدة سيمبريل هي جارتي وبيتها بجانب بيتي وتأكدي بأنها ستكون متيقظة في أي وقت بعد الغروب.

كانت السيدة سيمبريل أبرز مروجة فضائح في البلدة بين مثيلاتها

الكثيرات. بعد حصوله على مرامه ظل السيد وريبرتون يضايق دوروثي باستمرار لتأتي إلى بيته كثيرا. قال لدوروثي إلى اللقاء وتركها تقوم ببقية تسوقها.

في محل سولبايب الشبه مظلم وبينما كانت تبتعد عن طاولة الحساب مع قطعة قماش بطول ياردتين ونصف سمعت صوتاً منخفضاً وحزيناً. كانت السيدة سيمبريل وهي امرأة نحيلة في الأربعين من عمرها، أبدت بوجهها الهزيل الشاحب البارز وشعرها اللامع الأسود وهيئة الكآبة التي عليها شبها مع صورة فان دايك. كانت تراقب حديث السيد وريبرتون ودوروثي وهي متخندقة خلف كوم من القماش القطني السميك قرب النافذة. إن قمت بعمل شيء ولم ترغب بأن تراك السيدة سيمبريل فكن واثقا بأنها ستكون قريبة منك. يبدو أن لديها القوة لتجسد الجنية العربية في أي مكان غير مرغوب فيها. ليس طيشاً لكن مهما تفاديت مراقبتها فستكون قليلة. اعتاد السيد وريبرتون القول أنها مثل وحوش سفر الرؤية الأربعة التي كانت كلها عيوناً ولا ترتاح لا ليلاً ولا نهاراً.

تمتمت السيدة سيمبريل بصوت حزين حنون لشخص يوشك أن ينقل لك أخباراً سيئة ومرعبة فعلاً بألطف وسيلة.

- عزيزتي دوروثي كنت بحاجة إلى التحدث معك. لدي شيء سأخبرك به!

قالت دوروثي وهي تعرف جيدا بما سيأتي - لان السيدة سيمبريل ليس لديها سوى موضوع واحد للحديث:

- ما هو؟

خرجنا من المحل وبدأنا المشي في الشارع، دوروثي تقود دراجتها

والسيدة سيمبريل تتبختر بجانبها بخطوات رقيقة كعروس وكانت تقرب فمها أكثر فأكثر من أذن دوروثي كلما أصبحت كلماتها أكثر تلميحاً وبدأت:

ـ هل حدث وأن لاحظت تلك الفتاة التي تجلس على اقرب مقعد من الأرغن في الكنيسة؟ تلك الفتاة الجميلة ذات الشعر الأحمر. ليس لدي فكرة عن اسمها (وأضافت السيدة سيمبريل التي تعرف كنيتها واسم كل رجل وامرأة وطفل في البلدة) مولي فريمان، ابنة أخ البقال فريمان

ـ آوه، هولي فريمان؟ هل هذا هو اسمها؟ لقد كنت أتساءل دائماً. حسناً...

واقترب الفم الأحمر الرقيق أكثر وانخفض الصوت الحزين إلى همسة صادمة. بدأت السيدة سيمبريل بصب نهر من القدح الصديدي شمل مولي فريمان وستة شبان يعملون في معمل تكرير السكر. بعد بضع لحظات أصبحت الحكاية عنيفة لدرجة أن لون وجه دوروثي تحول إلى قرنفلي غامق وأبعدت أذنها بسرعة عن شفتي السيدة سيمبريل الهامسة ثم أوقفت دراجتها وقالت بحدة:

ـ لن أصغي إلى أشياء كهذه (اعرف أن ذلك غير صحيح بحق مولي فريمان. لا يمكن أن تكون صحيحة. إنها فتاة لبقة جداً وكانت من أفضل الكشافات عندي وساهمت كثيراً في مساعدة الأسواق الخيرية في الكنيسة وكل شيء. أنا متأكدة تماماً بأنها لا تفعل أشياء كهذه التي تقولينها.

ـ لكن يا عزيزتي دوروثي، عندما، كما أخبرتك، رأيتها فعلاً بعيوني. . .

ـ أنا لا اهتم بذلك! ليس من الإنصاف قول أشياء كهذه بحق

الناس وليس من المناسب تكرارها حتى لو كانت صحيحة. يوجد الكثير من الشر في العالم دون التجول للبحث عنه.

- البحث عنه! إيه ! لكن يا عزيزتي دوروثي، وكأنني أردت أو احتجت لذلك !المشكلة أن المرء لا يستطيع تفادي رؤية كل هذا الشر الذي يتواصل في البلدة.

كانت السيدة سيمبريل تندهش بصدق إن اتهمتها بالبحث عن مواضيع الفضائح. وتحتج بأن لاشيء يؤلمها أكثر من مشهد الشر الإنساني لكنه يفرض نفسه على عينيها باستمرار وأن شعورها الشديد بالواجب يجبرها على إفشائه للعموم. كانت ملاحظات دوروثي أقل من أن تسكتها بل جعلتها تتحدث عن الفساد العام في البلدة الذي كانت مولي فريمان مجرد مثال عليه واستمرت بعد الانتقال من سوء سلوك مولي فريمان والشبان الستة إلى الدكتور غيثرون مسؤول البلدة الطبي الذي تورط مع ممرضتين وغلام في كوخ المستشفى وبعد ذلك إلى السيدة كورن زوجة موظف البلدة التي وجدت مستلقية وهي ثملة في أحد الحقول ثم إلى راعي الأبرشية القديس وديكيند في ميلبورو الذي ورط نفسه في فضيحة كبيرة مع غلام يرتل في الجوقة واستمرت هكذا حادثة تقود إلى الأخرى لدرجة صعب فيها أن تجد شخصاً في كل البلدة وريفها المحيط لا تستطيع السيدة سيمبريل بأن تكشف لك عنه سراً متقيحاً إن استمعت إليها مدة كافية.

لم تكن قصصها قذرة وتشهيرية فقط بل فيها مسحة من الشذوذ الجنسي دائماً. كانت مقارنة بمروجي الفضائح في بلدة ريفية مثل فرويد بالنسبة لبوكاشيو. يعطي حديثها انطباعاً بأن الشر المركز

الموجود في نايبهل بسكانها الألف أكثر من شرور سودوم وغوموره وبيونس ايرس مجتمعة. في الحقيقة، عندما تفكر بالحياة التي يعيشها سكان البلدة العصرية البسيطة من مدير المصرف المحلي الذي يسرق نقود زبائنه وينفقها على أولاد زوجته الثانية إلى النادلة في دوغ اند بتل التي تقدم الشراب في غرفة المشرب بحذاء عالي الكعب ومن الآنسة العجوز شانون معلمة الموسيقى مع قنينة شراب الجن السرية ورسائلها التي بلا اسم إلى ماغي وايت ابنة الخباز التي أنجبت ثلاثة أطفال لأخيها . عندما تدرس هؤلاء الناس كلهم الصغير والكبير والغني والفقير منهم ترى أنهم غارقون في رذائل بابلية رهيبة وتتساءل لماذا لا تقترب نار السماء وتلتهم البلدة كلها. لكن لو أصغيت فترة أطول لتحول فهرس الفواحش من شيء بشع جداً في البداية إلى بلادة لا تطاق. إن أسوأ الفضائح تفقد أثرها في مدينة كل من فيها إما متعدد الزوجات أو لوطي أو مدمن مخدرات. في الحقيقة أن السيدة سيمبريل ليست مشهرة سيئة فقط وإنما مصدر للإزعاج.

أما بالنسبة إلى درجة تصديق قصصها فهي متنوعة. أحياناً تتجول الكلمة وكأنها قطة هرمة تتشدق بالسوء وكل ما تقوله عبارة عن حزمة من الأكاذيب وأحياناً أخرى قد تؤثر إحدى تهمها على شخص قليل الحظ ويحتاج الأمر إلى شهور وسنوات حتى ينساه الناس. ونجحت في فسخ ما لا يقل عن نصف دزينة من الخطوبات وإشعال عدد لا يحصى من الخصومات بين الأزواج والزوجات.

ظلت دوروثي كل هذه الفترة تبذل جهوداً مجهضة للتخلص من السيدة سيمبريل. حرفت طريقها بالتدريج عبر الشارع حتى أصبحت تقود دراجتها بمحاذاة الحاجز الحجري اليميني لكن السيدة سيمبريل

تبعتها هامسة دون توقف حتى وصلت إلى نهاية الشارع الرئيسي عندها استجمعت دوروثي حزماً كافياً للتخلص منها. توقفت ووضعت قدمها على دواسة الدراجة.

ـ في الحقيقة لم أعد أتحمل البقاء أطول من ذلك. علي القيام بعمل آلاف الأشياء، كما أنني تأخرت كثيراً أيضاً.

ـ آوه يا عزيزتي دوروثي! لدي شيء آخر يجب أن أقوله لك بوضوح ـ شيء أكثر أهمية من كل ما قلته.

ـ أنا آسفة، إنني في عجالة كبيرة. في وقت آخر من فضلك.

فقالت السيدة سيمبريل بسرعة خشية أن تنجح دوروثي بالفرار منها قبل سماعه:

ـ إنه عن ذلك البغيض السيد (ورييرتون) لقد عاد لتوه من لندن، وكما تعرفين ـ أردت أن أخبرك خصيصاً ـ هل تعرفين أنه فعلاً. . .

هنا رأت دوروثي بأنها يجب أن تفر فوراً مهما كلفها الأمر. يمكنها تصور مناقشة أي موضوع مع السيدة سيمبريل ماعدا ما يتعلق بالسيد ورييرتون. ركبت دراجتها وبدأت تقود مبتعدة بسرعة بعد أن قالت باختصار:

ـ أنا آسفة لا استطيع أن أتوقف فعلاً.

ـ أردت أن أخبرك بأنه قد مال إلى امرأة جديدة ! صاحت السيدة سيمبريل خلفها حتى أنها نسيت أن تهمس لشدة تشوقها في تمرير هذا النبأ القوي.

لكن دوروثي قادت بسرعة وانعطفت عند الزاوية دون التطلع للوراء وتظاهرت بعدم السمع. من غير الحكمة أن تقاطع السيدة سيمبريل إذ لا ينفع ذلك. إن رفض الاستماع إلى فضائحها هو علامة

فساد ويؤدي إلى نشر فضائح جديدة أسوأ عنك في اللحظة التي تتركها فيها.

عندما اتجهت دوروثي نحو البيت كثرت أفكارها القاسية حول السيدة سيمبريل فوخزت نفسها بسبب ذلك. وهناك فكرة مزعجة أخرى أيضاً لم تخطر ببالها حتى هذه اللحظة - وهي أن السيدة سيمبريل قد تعلم شيئاً عن زيارتها لبيت السيد وربيرتون هذا المساء ومن المحتمل أن تبالغ فيها إلى شيء فضائحي في الغد. بعثت الفكرة هاجساً غامضاً من الشر في ذهن دوروثي حين نزلت عن دراجتها أمام بوابة بيت القس حيث كان معتوه البلدة سيلي جاك ذو الوجه المثلثي الأحمر الذي يشبه الفريز يتسكع ويضرب عمود البوابة بسوط بندقي اللون - إن بلاهته من الدرجة الثالثة.

٤

تجاوزت الساعة الحادية عشرة بقليل. بدا النهار كأرملة ناضجة أكثر مما ينبغي لكن مفعمة بالأمل تلعب دور السابعة عشر بهيئة أجواء نيسان غير المألوفة لكنه تذكر فيما بعد انه في شهر آب واستعد ليكون حاراً جداً.

ركبت دوروثي دراجتها وذهبت إلى قرية فينلويك التي تبعد ميل واحد عن نايبي هيل. لقد سلمت لصقات الذرة للسيدة اوين وكانت تقوم بزيارة مفاجئة للسيدة العجوز بيتشر لتعطيها تلك القصاصة من الديلي ميل عن شاي انجليكا للروماتيزم. لذعت الشمس الحارقة في السماء الصافية ظهرها واخترقت ثوبها القطني المخطط وارتعش الطريق الترابي في الحرارة أما المروج المنبسطة الحارة فكانت خضراء جداً لدرجة أن النظر إليها يؤذي العين وفوق تلك المروج أعداد لا تحصى من القبرات التي كانت تغرد بضجر حتى في هذا الوقت من السنة. كان يوما يدعوه الناس الذين لا عمل لهم بالرائع.

أسندت دوروثي دراجتها على بوابة بيت بيتشر الصغير وأخرجت منديلها من حقيبتها وجففت يديها الممسكتين بالمقود من العرق. بدا وجهها في ضوء الشمس القاسية متوترا وبلا لون. بدت بعمرها وأكثر في تلك الساعة من الصباح. كانت تتنابها خلال يومها ـ على العموم كان اليوم سبعة عشر ساعة ـ فترات منتظمة من التعب والنشاط وإن

منتصف الصباح حين كانت تقوم بالنصيب الأول من الزيارات النهارية أحد فترات التعب.

يستهلك (القيام بالزيارات) نصف يوم دوروثي بسبب المسافة التي تقطعها على الدراجة من بيت لآخر. كل يوم في حياتها ماعدا أيام الأحد تقوم بدزينة زيارات أو نصف دزينة إلى أكواخ مصلي الأبرشية. تخترق البيوت الضيقة وتجلس على مقاعد وعرة مغبرة وتثرثر مع الزوجات المجهدات الضخمات وغير المرتبات وتمضي ساعات تساعد في كوي وتصليح الثياب وقراءة فصول من الإنجيل وتعيد ضبط عصبات حول (الأرجل المريضة) وتواسي المعذبات بمرض الصباح وتلعب ركوب الديك ـ الحصان مع الأولاد ذوي الرائحة الكريهة الذين يوسخون ثوبها بأصابعهم اللزجة الصغيرة وتعطي النصائح حول أمراض نبات من فصيلة الزنبقيات وتقترح أسماء للأطفال وتشرب(كؤوس جميلة من الشاي) لا تحصى ـ لأن النساء العاملات يطلبن دائماً منها أن تشرب كأساً جميلاً من الشاي، من الإبريق الذي يطبخ باستمرار.

كان قسم كبير من العمل مثبطاً للهمة. وبدا القليل والقليل جداً من النساء بأن لديهن مجرد مفهوم عن الحياة المسيحية التي حاولت أن تساعدهن للعيش وفقها. كان البعض منهن خجولاً ومرتاباً ويقف موقف دفاعي ويخترع الأعذار حين تحثه على المجيء إلى العشاء الرباني، وتظاهر بعضهن بالورع من أجل المبالغ التي يأخذه من صندوق صدقات الكنيسة، وكان أكثر المرحبات بزياراتها من النوع المثرثر الذي يريد مستمعين للتذمر من (أعمال أزواجهن الغريبة وغير الشريفة) أو من أجل حكايات مستودع الجثث التي لا تنتهي (كان عليهم أن يدخلوا سمكا زجاجيا داخل أوردته،الخ) عن الأمراض المقززة التي

مات أقربائهن بسببها. كانت نصف النساء في قائمة دوروثي اللواتي عرفتهن ملحدات في صميمهن بطريقة غامضة وغير مثبتة بالبراهين. كانت تجادل ضد ذلك الكفر الغامض والأجوف طول اليوم مع ناس أميين لا يجدي معهم نفعا أي نقاش. فعلت ما بوسعها ولم تستطع رفع عدد أعضاء الكنيسة الدائمين إلى أكثر من دزينة أو حوالي ذلك. تتعهد النساء بالتواصل ويلتزمن بالوعد شهر أو اثنين وبعدها يبدأن في الاختفاء أما مع النساء الأصغر سناً خصوصاً فقد كان الأمر ميئوساً منه. حتى أنهن رفضن الإنضمام إلى فروع رابطة الكنيسة المحلية التي تعمل لمصلحتهن - كانت دوروثي السكرتيرة الفخرية للروابط الثلاث بالإضافة إلى كونها قائدة الكشافات. ضعفت عصبة الأمل وبطولة الزواج حتى أصبحتا بلا أعضاء تقريباً بينما استمر اتحاد الأمهات في العمل بسبب الإشاعات والشاي الثقيل غير المحدود اللذان جعلا حفلات الخياطة الأسبوعية مقبولة. نعم لقد كان عملاً مثيراً للإحباط الشديد لذلك بدا لها أنه بلا طائل مرات كثيرة لو لم تعرف أن الشعور باليأس مهما كان نوعه أمكر أسلحة الشيطان.

طرقت دوروثي باب بيتشر السيئ الذي تسربت من تحته رائحة كرنب مسلوق كئيبة وصحن ماء يرشح. عرفت من تجربتها الطويلة طعم الروائح الخاصة لكل كوخ في جولاتها مقدماً. بعض الروائح كانت غريبة جداً. مثلاً، كانت هناك رائحة مالحة أبدية استوطنت كوخ العجوز السيد تومز بائع الكتب المتقاعد الذي يظل مستلقيا في السرير كل اليوم في غرفة مظلمة بأنفه الطويل المغبر ونظارته الزجاجية البارزة من تحت ما افترض بأن يكون دثار واسع ومكلف من الفرو لكن إن وضعت يدك عليه يتفسخ وينفجر ويتطاير في كل

الاتجاهات. لقد كان مكونا من جلد القطط (السنور) ووجد السيد توم بأنه يدفئه كما كان بيرر. في كل الأكواخ تقريبا هناك رائحة أساسية للمعاطف القديمة وصحن الماء التي تمتزج بروائح خاصة أخرى كرائحة البلاليع والكرنب والأولاد ولحم الخنزير الذي يشبه بنطلون من القماش القوي النتن وتعرق عقد من السنين.

فتحت السيدة بيثر الباب الذي يعلق دائماً بالإطار وعندما تفتحه بقوة يهز الكوخ كله. كانت امرأة ضخمة محدودبة بشعر رمادي قاسي ومئزر متدل وتجر بقدميها خف سجاد.

(لماذا ، إن لم تكن الآنسة دوروثي!) هتفت في صوت موحش ميت لكنه لا يخلو من الود. أخذت دوروثي بين ذراعيها الكبيرتين كثيرتي العقد التي بدت مفاصلهما لامعة مثل البصل المقشر بسبب السن والجلي الذي لا يتوقف وأعطتها قبلة رطبة. بعدها شدتها إلى داخل الكوخ غير المرتب.

(بيثر في العمل يا آنسة) أعلنت وهما تدلفان للداخل (يحفر حديقة أزهار الدكتور غيثورن)

كان السيد بيثر يعمل بستانياً وتجاوز عمره وعمر زوجته السبعين وكانا من اتقى الأزواج وسط متعبدي الكنيسة. أمضت السيدة بيثر حياة كئيبة وهي تتنقل متثاقلة ذهاباً وإياباً بين البئر ومغطس الحمام والموقد وحديقة المطبخ الصغيرة مع تشنج دائم في رقبتها لأن عتبة الباب كانت منخفضة بالنسبة لها. كان المطبخ مرتب بأناقة لكن تفوح منه رائحة حارة ضاغطة سيئة مشبعة بالغبار. في نهاية الطرف الآخر من الموقد صنعت السيدة بيثر كرسيا بدون مساند من ممسحة أقدام متسخة وضعت على أرغن قديم وفوقه لوحة زيتية مزخرفة من الخرز

مزيفة تصور صلب المسيح، (اسهر وصلي) وصورة للسيد والسيدة بيثر في يوم زفافهما عام ١٨٨٢.

(المسكين بيثر!) استمرت السيدة بيثر بصوتها الكئيب (يحفر في هذه السن رغم إصابته بالروماتيزم الذي استفحل! أليس ذلك ظلم قاسي؟ كما أنه يعاني من إلم بين ساقيه يا آنسة، لأنه لا يستطيع أن يظهر السوء الفظيع الذي ألم به، في إحدى صباحات الأيام الأخيرة. أليست الحياة التي نعيشها نحن الناس العمال صعبة جداً؟)

(يا للعار)، قالت دوروثي (لكن أتمنى أن تكوني قد اعتنيت بنفسك بشكل أفضل يا سيدة بيثر؟)

(آه، يا آنسة لا يوجد شيء يجعلني أفضل. أنا لست حالة تشفى، ليس في هذا العالم، لن أتحسن أبداً، ليس هنا في هذا العالم الشرير)

(أوه يجب ألا تقولي ذلك سيدة بيثر! أتمنى أن تظلي معنا وقتا طويلاً)

آه يا آنسة لا تعرفين كم كنت متوعكة الأسبوع الماضي. لقد ظل الروماتيزم يأتي ويروح بكل أسفل ساقي المسكينتين وعندما يأتي الصباح لا أستطيع المشي لأقطف باقة بصل من الحديقة. آه يا آنسة إنه عالم مرهق هذا الذي نعيش فيه أليس كذلك؟ عالم آثم مرهق.)

(لكن يجب أن لا ننسى يا سيدة بيثر وجود عالم قادم أفضل. الحياة مجرد زمن امتحان . لتقوينا وتعلمنا الصبر لكي نستعد للفردوس حين يحين أوانه.)

عند ذلك طرأ تغيير مفاجئ وملحوظ على السيدة بيثر أحدثته كلمة (الفردوس). عند السيدة بيثر موضوعين للنقاش كان أحدهما

مباهج الفردوس والآخر بؤس وضعها الحالي. بدا أن ملاحظة دوروثي فعلت فعلها كالسحر عليها. عينها الرمادية البليدة لم تعد قادرة على السطوع لكن صوتها أسرع بحماس فرح.

(آه يا آنسة، ها آنت قلتيها! تلك كلمة حق يا آنسة! هذا ما نكرر قوله أنا والسيد بيثر وهو الشيء الوحيد الذي يجعلنا نستمر فقط، فكرة الفردوس والراحة الطويلة جداً التي سنجدها هناك. مهما عانينا سنجد العوض في الفردوس أليس كذلك يا آنسة؟ كل جزء صغير من الألم سنعوض عنه مئات وآلاف الأضعاف. ذلك صحيح أليس كذلك يا آنسة؟ راحتنا كلنا في الفردوس - الراحة والطمأنينة ولا مزيد من الروماتيزم أو الحفر أو الطبخ أو غسل الثياب أو اللاشيء. أتؤمني بذلك يا آنسة دوروثي؟)

(بالطبع) قالت دوروثي.

(آه يا آنسة لو تدرين كم تريحنا أفكار الفردوس! بيثر يقول لي عندما يعود إلى البيت من الليل وألم الروماتيزم(لا تهتمي يا عزيزتي نحن لسنا بعيدين عن الفردوس) ويقول (إن الفردوس وجد لأمثالنا، للشغيلة مثلنا الذين ظلوا رزينين وورعين وحافظوا على العشاء الرباني بانتظام) ذلك هو أفضل طريق أليس كذلك يا آنسة دوروثي - فقراء في هذه الحياة وأغنياء في الأخرى؟ لسنا مثل القوم الأغنياء الذين لن تنقذهم كل سياراتهم وبيوتهم الجميلة من الدودة التي لا تموت والنار التي لا تنطفئ. هذا الكتاب المقدس الجميل. هل تعتقدين أنك تستطيع أداء بعض الصلوات معي يا آنسة دوروثي؟ إني أتشوق منذ الصباح إلى قليل من الصلاة.)

كانت السيدة بيثر دائماً مستعدة لقليل من الصلاة في أي ساعة

من الليل أو النهار وبديلها عن كأس لذيذ من الشاي. ركعتا على خرقة حصير وأدتا صلاة الرب وصلاة الأسبوع القصيرة وبعدها قرأت دوروثي حكاية دايفس ولازاروس بناء على رجاء السيدة بيثر التي كانت تقاطعها بين الحين والآخر بكلمة آمين، تلك كلمة صحيحة أليس كذلك يا آنسة دوروثي؟ وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم، جميل، أنا اعتبر كل ذلك جميل، آمين، يا آنسة دوروثي، آمين!

أعطت دوروثي السيدة بيثر قصاصة الديلي ميل عن شاي انجليكا لعلاج الروماتيزم وسحبت ثلاثة دلاء من ماء البئر عندما وجدت أن السيدة بيثر غير قادرة على سحب مؤونتها اليومية من الماء. كان بئر عميق وله حاجز منخفض جداً وليس له رافعة لذلك سيكون قدر السيدة بيثر النهائي السقوط فيه والغرق - عليك أن تجذب الدلو باليد. بعد ذلك جلستا بضع دقائق تحدثت السيدة بيثر فيها عن الفردوس أيضاً. غريبة سيطرة الفردوس على أفكارها باستمرار والأغرب كانت حقيقتها والحيوية التي تراه فيها. كانت الشوارع المذهبة وبوابات اللؤلؤ الشرقي حقيقة أيضاً كأفكارها كما لو أنها أمام عينيها. وامتدت رؤيتها لتتجسد بأقوى شكل وتشمل أدق التفاصيل. طراوة الأسرة هناك! ولذة الأطعمة! والثياب الحريرية الجميلة التي تلبسها نظيفة كل صباح! والإنقطاع الأبدي عن كل أنواع العمل! رؤية الفردوس تدعم كل لحظة من حياتها تقريباً وتقويها وتلطف شكاويها اليائسة وغريب أيضاً القناعة بفكرة أن قوم الشغيلة الفقراء سيكونون هم سكان الفردوس الأساسيين. إنه نوع من صفقة أجرتها، مبادلة حياة العمل الكئيبة بالنعمة الأبدية. كان إيمانها كبير جداً إن كان ذلك ممكناً لأنها كانت حقيقة غريبة

لكن اليقين الذي ترقبت به السيدة بيثر الفردوس كمأوى مبجل للمصابين بمرض عضال سبب قلقاً غريباً لدوروثي.

استعدت دوروثي للمغادرة بينما كانت السيدة بيثر تشكرها بقوة على زيارتها واختتمته بشكاوي جديدة من الروماتيزم.

(أؤكد لك بأنني سأتناول شاي انجليكا) أنهت (وشكرا للطفك في إخباري عنه يا آنسة. علما أنني لا أتوقع منه أن يفيد حالتي كثيراً. آه يا آنسة، لو تعرفين كم كانت صعبة حالة الروماتيزم التي عانيتها الأسبوع الماضي! كل أسفل ساقاي مثل إطلاق مذكي النار المحمر من شدة الحرارة ولم أقدر أن أصلها لأدلكها بشكل مناسب. هل أطمع في طلب الكثير منك وتدلكينها لي قبل أن تذهبي؟ لدي قارورة من ايلمان تحت حوض الغسيل.)

(دون أن تشاهد السيدة بيثر قرصت دورثي نفسها مرة أخرى. كانت تتوقع هذا - وقد فعلت ذلك كثيراً من قبل - هي حقيقة لا تحب أن تدهن أسفل السيدة بيثر. حضت نفسها غاضبة. هيا يا دوروثي لا تتكبري أرجوك جون الثالث عشر، ١٤. (طبعاً سأفعل ذلك يا سيدة بيثر!) قالت فوراً. صعدتا إلى بيت الدرج الضيق المخلوع الذي يجب أن تنحني فيه ضعف ما تشغله من فراغ كي تتفادى السقف المتدلي. كانت غرفة النوم مضاءة بنافذة مربعة صغيرة مزدحمة بالنبات المعترش في الخارج ولم تفتح منذ عشرين سنة. وكان هناك سرير مزدوج ضخم ملأ الغرفة مع أغطيته الدائمة الرطوبة وكتلة فراش محشو بالقطن ومملوء بالتلال والأودية مثل حدود خارطة سويسرا. زحفت العجوز إلى السرير وهي تتأوه كثيراً ووضعت ووجهها نحو الأسفل. تعج الغرفة برائحة البول وعقار المسكن. أخذت دوروثي

قارورة ايلمان ودهنت سيقان السيدة بيثر المترهلة الكبيرة ذات الأوردة الرمادية.

تحت وهج حرارة الجو الخارجي التي تصيب بالدوار ركبت دراجتها وانطلقت مسرعة باتجاه البيت. لفحت الشمس وجهها لكن الهواء بدا حلواً وجديداً. كانت سعيدة! كانت دائماً سعيدة عندما تنتهي زياراتها الصباحية والغريب أنها لم تدرك السبب. كانت الأبقار الحمراء ترعى في مرج مزرعة بورليس للألبان وتغوص لركبها ببحر من العشب الساطع. تسللت رائحة الأبقار التي تشبه تقطير نبات الفانيلا والتبن الجديد إلى منخري دوروثي. لم تستطع مقاومة إغراء التوقف والتسكع للحظة رغم الأعمال الصباحية التي كانت أمامها. ثبتت دراجتها ببوابة بورليس بيد واحدة بينما كانت بقرة بأنف قرنفلي ندي تحك ذقنها على عمود البوابة وتنظر إليها بشكل حالم. لمحت دوروثي وردة برية بلا زهر طبعاً مزروعة خلف السياج وتسلقت البوابة لتكتشف أنها لم تكن زهرة نسرين الكلاب. قرفصت بين الأعشاب الطويلة تحت السياج. كان الجو شديد الحرارة هناك قريباً من الأرض. طن في أذنيها أصوت حشرات كثيرة غير مرئية وفاض دخان صيفي من لفات النباتات المتشابكة وطوقها. كانت تنمو مع أوراق سرخس منتشرة مثل ذيل حصان البحر الأخضر قريباً منها سيقان طويلة من نبات الشمرة. جرت دوروثي ورقة من نبات الشمرة إلى وجهها وشمت الرائحة الحلوة القوية. غمرها غناها ودوخها تقريبا للحظة. شربتها وملأت رئتيها بها. رائحة جميلة جداً - رائحة الأيام الصيفية، رائحة فرح الطفولة رائحة الجزر المشبعة بالتوابل في زبد بحار الشرق الدافئة!

امتلأ قلبها بفرح مفاجئ. كان الفرح الباطني في جمال الأرض وطبيعة الأشياء ذاتها التي عرفتها على نحو مغلوط ربما على أنها حب الرب. بينما كانت مقرفصة هناك في الجو الحار والرائحة الحلوة وطنين الحشرات المسبب للنعاس بدا لها كأنها تسمع نشيد تسبيح قوي للأرض وكل الأشياء المخلوقة ترسله لخالقها بشكل أبدي. كانت الحياة النباتية كلها والأوراق والزهور والعشب تلمع وتهتز وتصيح من الفرح وكانت القبرات أيضاً تغني في جوقات غير مرئية تقطر منها الموسيقى من السماء. اختلط كل غنى الصيف ودفء الأرض وأغنية الطيور ورائحة الأبقار ودندنة النحل التي لا تحصى أعداده وصعدت مثل دخان مذابح الكنائس المشتعلة للأبد لذلك بدأت تصلي مع الملائكة وملوكها. صلت لحظة بحماسة وسعادة ناسية نفسها في فرح عبادتها لكن بعد أقل من دقيقة اكتشفت أنها تقبل ورقة نبات الشمرة الذي كان لا يزال على وجهها فوبخت نفسها فوراً وتراجعت للخلف. ماذا كانت تفعل؟ هل كان ما تعبده هو الرب أم كانت الأرض؟ انحسر الفرح من قلبها تلاه شعور بارد غير مريح بأنها خدعت بنشوة شبه وثنية. لامت نفسها. لا شيء من ذلك يا دورثي، ليس عبادة الطبيعة أرجوك! حذرها أبوها من عبادة الطبيعة وسمعته يعظ في أكثر من خطبة ضدها وقال إنها مجرد وحدة الوجود وما ضايقه أكثر البدعة الحديثة المقرفة. آخذت دوروثي شوكة من الزهرة البرية ووخزت ذراعها ثلاث مرات لتتذكر نفسها بالأشخاص الثلاثة للثالوث المقدس قبل أن تتسلق البوابة وتركب دراجتها ثانية. اقتربت من زاوية السياج قبعة مغبرة محفورة. كان الأب مغواير، الكاهن الكاثوليكي يقوم بجولته على الدراجة أيضاً. رجل ضخم جداً

وممتلئ لدرجة بدت فيها الدراجة قزمة مقارنةً به وبدا أنه متوازن عليها مثل كرة الغولف على ركام الرمل الذي يوضع تحتها. كان وجهه وردياً هزلياً وماكراً قليلاً.

بدت دوروثي بدت سعيدة فجأة. تحول لونها إلى القرنقلي واقتربت يدها غريزياً من الصليب الذهبي الذي تحت ثوبها. كان الأب ماغواير يقود دراجته نحوها بهيئة هادئة ومضحكة. بذلت محاولة للابتسام وتمتمت بحزن (صباح الخير) لكنه تابع قيادته دون إيماءة حتى وارتدت عينيه بسهولة عن وجهها إلى الخلاء بتظاهر ممتاز بعدم ملاحظة وجودها. لقد كان البتر المباشر. دوروثي بطبيعتها ويا للأسف غير كفء لتوجيه البتر المباشر - صعدت على دراجتها وانطلقت تصارع الأفكار القاسية التي لم تفشل أبداً مقابلة الأب ماغواير في إثارتها داخلها.

حدث نزاع مع القس حول سلب الأب ماغواير لقبر فتح بشكل شائن في الكنيسة منذ خمس أو ست سنوات حين كان الأب ماغواير يحمل جنازة من ساحة كنيسة اثليستان (لم تكن هناك مقبرة للروم الكاثوليك في نايبي هيل) ولم يكن بينهم أي كلام منذ ذلك الحين وكان هذا أفضل كما قال القس مرة ولم يكن رأيه بقساوسة الدين الآخرين في نايبي هيل مختلفاً - السيد وارد قس تجمع المتعبدين، السيد فولي قس ويزيلي وهو رجل كبير السن وأصلع الرأس ينظم الطقوس المعريدة بصوته الناهق في كنيسة ابنيزير - ونعتهم بزمرة من المنشقين الرعاع ومنع دوروثي من أن تكون على علاقة بأي منهم وإلا فستتحمل استيائه.

٥

كانت الساعة الثانية عشر تماماً وفي قاعة الموسيقى الواسعة بألواح سقفها الخضراء القاتمة المظلمة التي تلمع مثل زجاج رومي قديم بفعل الزمن والوسخ كانوا يقومون بتدريب سريع وصاخب على تشارلز الأول.

دوروثي لم تكن تشارك فعلياً في البروفة لكنها كانت مشغولة بصناعة الأزياء. قامت بصنع أزياء كل المسرحيات التي مثلها طلاب المدرسة أو معظمهم. كانت إدارة الخشبة والإنتاج من اختصاص فيكتور ستون - فيكتور كما تناديه دوروثي - هو ناظر الكنيسة، سريع الهياج شاب ذو شعر أسود في السابعة والعشرين من عمره يرتدي ثياباً سوداء كهنوتية وفي هذه اللحظة يومئ بعنف بمخطوطات ملفوفة نحو ستة أولاد محتشدين كانوا يتدربون بصدم عصي حديدية مشتعلة بعضها ببعض على منصة طويلة ويتشاجرون من أجل كيس صغير وسخ من النعناع الزائف. كانت الحرارة لا تطاق في القاعة بالإضافة إلى رائحة صمغ قوية وعرق الأولاد الحامض. كانت دوروثي مقرفصة على الأرض وفمها مملوء بالدبابيس وبيدها مقص تقص به شرائح طويلة وضيقة من صفحات ورق بني بسرعة وكانت هناك علبة صمغ تفور على موقد زيتي بجانبها وخلفها وعلى طاولة العمل المتسخة بالحبر والمتداعية عقدة من الأزياء شبه الجاهزة وصفحات كثيرة من الورق

البني وماكينة الخياطة خاصتها وكوم من الخيوط وقطع من الصمغ الجاف وسيوف خشبية وعلب مفتوحة من الدهان. كان نصف بال دوروثي منشغلا في تأمل جزمتين وسترتين من القرن السابع عشر صنعتا لتشارلز الأول وكرومويل أما النصف الأخر فكانت تستمع به إلى صيحات فيكتور الغاضبة الذي كان يؤدي دور الغاضب كما يفعل في التمرينات دون تغيير. كان ممثلاً بالفطرة بالإضافة إلى أنه مل من تدريب أولاد بلهاء يمشى ذهاباً وإياباً يخطب بالأولاد بطريقة متحمسة عامية وبين الحين والآخر ينقطع عن الكلام ليندفع نحو أحد الأولاد بسيف خشبي يحمله من الطاولة.

(ضع فيها قليل من الحياة ألا تستطيع؟) يصيح ناخسا أحد الأولاد الذي له وجه يشبه وجه ثور في بطنه. (لا تمتم! قلها كما لو أن لها معنى! انك تبدو كجثة دفنت وأخرجت ثانية. ما الفائدة من قرقرتها داخلك بتلك الطريقة؟ قف وصح به. انزع تعبير القاتل الثاني!)

(تعال إلى هنا يابيرسي!) صرخت دوروثي من خلال دبابيسها. (أسرع!)

كانت تصنع الدرع - أسوأ من كل الأشياء الأخرى، ماعدا تلك الجزمتين العسكريتين البائستين من الورق والصمغ. تستطيع دوروثي بفضل التدريب الطويل أن تصنع أي شيء من الورق والصمغ ويمكنها صنع شعر مستعار من ورق بني لفروة الرأس وخيط مصبوغ بالأسود للشعر. على مدار السنة الوقت الذي أمضته في التعامل مع الصمغ والورق البني وقماش الموصلين وكل الدورات الشخصية الأخرى لهواة المسرح كان هائلا. كانت الكنيسة بأمس الحاجة للمال وقلما يمر شهر دون أن يكون فيه مسرحية مدرسية أو مهرجان أو معرض طعام

بالإضافة الى الأسواق الخيرية والمبيعات الخيرية.

عندما نزل بيرسي جويت، ابن الحداد وهو ولد صغير مجعد الرأس - من المنصة ووقف يتمعج بشكل حزين أمامها، أمسكت دوروثي صفحة ورق بنية وقاستها عليه وقصت فتحة العنق والذراعين وثنتها حول وسطه وثبتتها بالدبابيس على شكل صدرية خشنة كانت هناك جلبة من الأصوات.

(فيكتور: تعال الآن! ادخل يا كرومويل - أهذا أنت! لا، لا، ليس بتلك الطريقة! هل تظن أن اوليفر كروميل سيدخل خلسة مثل كلب جلد بسوط؟ قف. أبرز صدرك للأمام واعبس. هذا أفضل. الآن استمر، كروميل: (توقف أنا احمل مسدسا بيدي!) استمر.

فتاة: من فضلك يا آنسة، قالت أمي كما قلت لك، يا آنسة—

دوروثي: اثبت يا بيرسي بالله عليك ابق ثابتا!

كروميل: و - قف - أنا - احمل - مسدساً - في - يدي!

فتاة صغيرة على المنصة: أيها السيد! لقد أوقعت حلوياتي!

(باكية) لقد أوقعت حـ............لوياتي!

فيكتور: كلا كلا ياتومي! لا، لا!

الفتاة: أرجوك يا آنسة، قالت أمي كما قلت لك بما أنها لم تستطع أن سروالي كما وعدت، يا آنسة لا.............

دوروثي: سوف تجعليني ابلع دبوسا إن فعلت ذلك ثانية

كروميل: توقف! أنا احمل مسدساً —

الفتاة الصغيرة: (باكية) حلوياتـ.............ي!

أمسكت دوروثي بفرشاة الصمغ وبسرعة محمومة دهنت شرائط الورق البنية على كل صدر بيرسي للأعلى والسافل ومن الأمام إلى

الخلف الواحدة فوق الأخرى وتتوقف فقط عندما تلصق الورقة بأصابعها. في خمسة دقائق صنعت درعاً كبيرا من الصمغ والورق وعندما ينشف يتحدى شفرة سيف حقيقي. نظر بيرسي وهو محبوس في الحديد وحافة الورق تحز ذقنه إلى نفسه بتعبير مستسلم بائس ككلب يتم غسله. أخذت دوروثي المقص وشقت الصدر من احد أطرافه ووضعته لينشف وبدأت فورا بولد آخر. دوت قعقعة مخيفة عندما بدأ فريق الضجيج التمرن على صوت طلقات المسدس وعدو الخيول. تزايد الدبق على أصابع دوروثي أكثر فأكثر لكنها بين الفينة والأخرى كانت تغسلها من الصمغ في دلو من الماء كان معداً لذلك مسبقاً. في عشرين دقيقة أكملت جزئياً ثلاثة دروع وبعد أن يتم إكمالها تطلى بدهان الألمنيوم وتزين الجوانب، ثم يأتي دور صناعة قطع السيقان والأسوأ صناعة الخوذ التي تناسبها. فيكتور يومئ بسيفه ويصيح كي يتغلب على ضجيج عدو الخيول. لقد كان يمثل شخصية اوليفر كرومويل وتشارلز الأول والفرسان والقرويين وسيدات البلاط. لقد ازداد ملل الأولاد وبدؤوا يتثاءبون ويئنون ويتبادلون الركلات والقرصات سراً. بعد أن انتهت من الدروع كنست دوروثي قسما من الزبالة عن الطاولة وجرت ماكينة خياطتها إلى مكانها وبدأت في صنع سترات الفرسان الخضراء - كانت من قماش أخضر لامع لكنه يبدو مناسباً من بعيد. ظل هناك عشرة دقائق من العمل المحموم. انقطع خيط دوروثي ولم تقل سوى (اللعنة!) وبخت نفسها وأعادت وضع الخيط في الإبرة. كانت تعمل في سباق مع الزمن. المسرحية ستعرض بعد نصف شهر وهناك الكثير جداً من الأشياء التي ينبغي صنعها - الخوذ والستر والسيوف والأحذية العسكرية (تلك الأحذية اللعينة تلازمها كالكابوس منذ أيام) وأغماد

الخناجر والكشكش والأشعر المستعارة والأعمدة والمناظر - لدرجة أن قواها كانت تخور عند التفكير فيها. لم يساهم أهالي الأولاد في أزياء المسرحيات المدرسية أبداً وبدقة أكبر هم دائماً يوعدون بالمساعدة ثم ينسحبون. كان رأس دوروثي يؤلمها بشكل شيطاني بسبب حرارة القاعة جزئيًا وبسبب جهد الخياطة المتواقتة مع محاولة تصور نماذج الأحذية العسكرية من الورق البني. في هذه اللحظة نسيت حتى فاتورة كارجيل الواحد وعشرين جنيها وسبع وتسع بنسات. لم تستطع التفكير إلا بهذا الجبل المخيف من الثياب غير المصنوعة المرمية أمامها. ظل الوضع هكذا طول اليوم. شيء يلوح بعد الآخر - الملابس التاريخية من أجل المسرحية المدرسية او انهيار ارض برج الأجراس أو ديون المحلات او اللبلاب المتعرش على البازلاء. كان كل واحد منها ملحا بدوره ومزعجا دون أن يمحي كل الأشياء الأخرى من الوجود. رمى فيكتور سيفه الخشبي واخرج ساعته ونظر إليها.

(ذلك يكفي!) قال بنبرة متقطعة قاسية لم تفارقه منذ أن تعامل مع الأولاد.

(سنواصل يوم الجمعة، كلكم. سئمت من منظركم)

راقب الأولاد وهم يخرجون ثم نسى وجودهم حالما أصبحوا خارج نظره، اخرج صفحة من الموسيقى من جيبه وبدأ يعبث بها ورفع عينيه إلى نبتتين مهجورتين في الزاوية مدتا فروعهما من فوق حواف أنيتيهما. كانت دوروثي لا تزال منحنية على ماكينة الخياطة تخيط عرى الصدرية المخملية.

كان فيكتر مخلوقا صغيرا وذكيا لا يهدأ ولا يكون سعيدا إلا عندما يختلف مع احد أو شيء. وجهه الشاحب ذو الملامح الدقيقة

يحمل تعبيرا بدا كأنه استياء لكنه حماس صبياني. قال الناس الذي يلتقون به لأول مرة انه يضيع موهبته كمعلم مدرسة لكن الحقيقة أن فيكتور ليس لديه أي مواهب قابلة للتسويق باستثناء موهبة قليلة بالموسيقى وموهبة أوضح في التعامل مع الأولاد. غير فعال بالمجالات الأخرى لكنه كان ممتازا مع الأولاد وعنده موقف مناسب وقاسي نحوهم. لكنه طبعاً مثل أي شخص آخر يحتقر موهبته الخاصة به. كانت اهتماماته كنسية صرفة في اغلبها ونعته الناس بالشاب الكنسي. لأن طموحه كان دائماً الدخول إلى الكنيسة وكان سيفعل ذلك عمليا لو كان له لديه الذهن القادر على تعلم اليونانية والعبرية. بعد أن سدت أمامه سبل الكهنوت انتقل إلى موقعه الطبيعي كمعلم أولاد في الكنيسة وعازف أرغن ويمكن القول أن ذلك أبقاه في فناء الكنيسة ولا حاجة للذكر بأنه كان انغلو كاثوليكي من نسل اشد عصور الكنيسة ميلا للقتال. كاهنا أكثر من الكهنة وحسن الاطلاع على تاريخ الكنيسة وخبير في الثياب الكهنوتية وجاهز في أي وقت لخطبة قوية ضد الحداثيين والبروتستانت والعلماء والبلاشفة والملحدين.

(فكرت) قالت دوروثي عندما أوقفت ماكينتها وقصت الخيط (انه يمكن أن نصنع تلك الخوذ من القبعات القديمة لو استطعنا الحصول على بعضها. نقص الحواف ونضع عليها حواف ورقية مناسبة ونفضضها من الخارج.)

(يا الهي لماذا تزعجين راسك بمثل هذه الأشياء؟) قال فيكتور الذي فقد اهتمامه بالمسرحية لحظة انتهاء التمرينات.

(إن ما يقلقني أكثر هو تلك الأحذية العسكرية البائسة) قالت

دوروثي وهي تأخذ الصدرية إلى ركبتها وتنظر إليها.

(آوه فلتنزعج الأحذية! دعينا نتوقف عن التفكير بالمسرحية للحظة. انتبهي، قال فيكتور ناشرا صفحة الموسيقى، (أريدك أن تكلمي والدك من اجلي، أود إن كان بإمكاننا عمل موكب الشهر القادم)

(موكب آخر؟لماذا؟)

(لا اعرف. أنت دائماً تجدين أعذارا للمواكب. هناك عيد المباركة مريم العذراء الذي يصادف في الثامن - ذلك موعد مناسب للموكب. سننفذه بفخامة. لقد استوليت على نشيد ممتاز ومثير يستطيع الجميع غناءه بصوت عال وقد نستطيع استعارة الراية الزرقاء التي عليها السيدة العذراء من كنيسة القديس ويدكند في ميلبورو. أن قال نعم سوف أبدأ بتدريب الجوقة فورا.)

(أنت تعرف بأنه سيقول لا) قالت دوروثي وهي تدخل الخيط في الإبرة لتخيط أزرار الصدرية. (هو لا يوافق على المواكب. من الأفضل أن لا نطلب منه ذلك ونغضبه.)

(آوه تبا للأمر كله) احتج فيكتور. (مرت شهور ولم نقم بموكب. لم أر أبداً مثل هذه الخدمات الحية الميتة هنا. مما يجعلك تظنين أننا في كنيسة المعمدان أو شيء من هذا القبيل من الطريقة التي نعمل ونسير بها.)

اغتاظ فيكتور من التوافق البليد لخدمات القس مع الأعراف. كان مثله الأعلى ما اسماه (العبادة الكاثوليكية الحقيقة - يعني بخور غير محدود وصور مطلية بماء الذهب وأثواب رومانية كثيرة). بقدرته كعازف أرغن كان يلح دائماً بطلب المزيد من المواكب ومزيد

من النشيد المسهب في القربان المقدس لذلك كان جذبا شيطانيا مستمرا بينه وبين القس. وقفت دوروثي في هذه النقطة إلى جانب والدها. بسبب تربيتها بالطريقة الانجليكانية الغريبة والقاسية كانت بطبيعتها كارهة وشبه خائفة من أي شيء طقوسي.

(تباً لكل شيء) استمر فيكتور(الموكب متعة كبيرة! تحت الجناح، في الخارج من الباب الغربي إلى الباب الجنوبي والجوقة تحمل الشموع من الخلف وفرقة الكشافة في الأمام مع الراية. سيبدو ذلك رائعا) غنى بعصا(ستيف) بلحن ضعيف لكن رخيم:

(مرحب بك، يا يوم المهرجان، مبارك اليوم الذي كرست فيه للأبد!)

(لو كانت الأمور بيدي) أضاف (سأجعل ولدين فرحين يلوحان بمبخرتين من البخور الجيد في نفس الوقت.)

(نعم لكن أنت تعرف كم يكره أبي هذه الأشياء خصوصاً عندما يكون للشيء علاقة بمريم العذراء ويقول إن الأمر كله هياج رومي ويدفع الناس إلى رسم علامة الصليب على أنفسهم وحني ركبهم تعبدا في الأوقات غير الصحيحة ويعرف الله ما هي. انك تتذكر ماذا حدث في مجيء المسيح إلى الدنيا.)

السنة الماضية وعلى مسؤوليته الشخصية اختار نشيدا لعيد مجيء المسيح إلى الدنيا رقم ٦٤٢ مع لازمة (مرحبا بك يا مريم، أهلا بمريم، أهلا بمريم المفعمة بالرحمة!) أزعجت هذه المقطوعة الكاثوليكية القس كثيرا ووضع كتاب نشيده بقوة في خاتمة البيت الأول والتفت في كشكه ووقف مراقبا حشد المصلين بهيئة متحجرة لدرجة أن بعض أولاد الجوقة تلعثموا وتوقفوا. بعد ذلك قال إن سماع صياح الريفي

(مرحبا يا مريم! مرحبا يا مريم) جعله يظن انه في بار بتل اند دوغ.

(لكن اللعنة!) قال فيكتور بطريقته الحزينة (والدك دائماً يضع قدمه أمامي عندما أحاول أن ادخل شيئاً من الحياة في القداس، فهو لا يمسح لنا بالبخور أو الموسيقى المحتشمة أو الثياب المناسبة أو أي شيء وما هي النتيجة؟ لا نستطيع جذب عدد من الناس ليشغلوا ربع الكنيسة أو حتى في عيد الفصح. تطلعي في الكنيسة صباح يوم الأحد، لا يوجد شيء سوى أولاد الكشافة والفتيات المرشدات وقلة من العجائز.)

(اعرف أن هذا مرعب) اعترفت دوروثي وهي تخيط الزر. (لا يبدو أن ما سنفعله قد يشكل أي فرق - لا يمكننا إحضار الناس إلى الكنيسة). وأضافت (يأتون إلينا عندما يريدون الزواج أو الدفن. ولا اعتقد أن جماعة المصلين ستقل هذه السنة فعليا. كان هناك حوالي مائتي شخص في عشاء عيد الفصح.)

مائتان! يجب أن يكونوا ألفان. وهو عدد سكان المدينة. الحقيقة أن ثلاث أرباع الناس في هذا المكان لم يقتربوا من أي كنيسة في حياتهم. من المؤكد أن الكنيسة فقدت سيطرتها عليهم. هم لا يعرفون أنها موجودة. لكن لماذا؟هذا ما أحاول الوصول إليه.

(اعتقد انه كل هذا العلم والفكر الحر وكل ذلك،) قالت دوروثي باختصار مقتبسة من والدها.

هذه الملاحظة حرفت فيكتور مما أوشك أن يقوله بأن مصلي كنيسة القديس اثليستان قد تضاءلوا بسبب بلادة الصلوات، لكن كلمات العلوم والفكر الحر المكروهة أطلقته في قناة أخرى مألوفة أكثر.

(طبعا انه ما سمي بالفكر الحر) هتف، مباشرة بادئا بالتململ ثانية. (انه هؤلاء الخنازير الملحدين مثل بيرنارد روسل وجوليان هكسلي وكل ذلك الحشد. وما دمر الكنيسة هو ذلك بدلا من نبع فرح يجاوبهم ويفضحهم للأغبياء والكذابين، نحن فقط نجلس مقيدين وندعهم ينشرون دعايتهم الإلحادية البهيمية أينما يختارون. انه خطأ المطارنة طبعاً. مثل كل انغلو كاثوليكي، يكن فيكتور احتقارا لا قرار له. (كلهم حداثيين وانتهازيين. بحق جوبيتر، أضاف بابتهاج اكبر مترددا ، هل رأيت رسالتي في أخبار الكنيسة الأسبوع الماضي؟)

(لا ، لم أرها) قالت دوروثي ممسكة زرا آخر في مكانه الصحيح بإبهامها. (حول ماذا كانت؟)

(أوه، مطارنة الحداثة. وجهت ضربة قوية للعجوز بارنيز.)

من النادران يمر أسبوع دون أن يكتب فيكتور رسالة إلى أخبار الكنيسة. كان في قلب كل جدال وفي مقدمة أي هجوم على الحداثيين والإلحاديين. اشتبك مرتين مع الدكتور ميجور وكتب رسائل من الهجاء المدمر عن العميد (الكاهن الكبير) انجي ومطران بيرمنغهام ولم يتردد في مهاجمة الشيطاني روسل نفسه - لكن روسل بالطبع لم يجرؤ على الرد. وللحقيقة فإن دوروثي قلما تقرأ أخبار الكنيسة والقس يزداد غضبه كثيرا إن رأى نسخة منها في البيت والجريدة الأسبوعية التي يأخذونها في بيت القس هاي تشيرتشمان غازيت - بقايا من المحافظين القدماء مع مجلة مختارة.

(ذلك الخنزير روسل) قال فيكتور متذكرا وهو يدس يديه عميقا في جيبه (كم تسبب بغليان دمي!)

(أليس ذلك الرجل هو عالم الرياضيات الذكي او شيء من ذلك؟) قالت دوروثي وهي تقطع الخيط بأسنانها.

(أوه، أظن انه ذكي جداً في مجاله بالطبع) اعترف فيكتور حاقداً. (لكن ما فائدة ذلك؟ لمجرد انه رجل ذكي في الأرقام هذا لا يعني انه - حسنا! دعينا نعود إلى ما كنت أقوله. لماذا لا نستطيع جذب الناس للمجيء إلى الكنيسة؟ السبب هو صلواتنا كئيبة جداً وملحدة، هذا هو السبب. يريد الناس العبادة الكاثوليكية الحقيقية لكنيستنا الكاثوليكية الصحيحة التي ننتمي إليها وهم لا يجدونها عندنا. كل ما يحصلون عليه هو الهراء البروتستانتي القديم والبروتستانتية ميتة كالمسمار والكل يعرفها.)

(ذلك غير صحيح) قالت دوروثي بحدة نوعاً ما وهي تضغط الزر الثالث في موقعه الصحيح. (أنت تعرف أننا لسنا بروتستانت. أبي دائماً يقول أن كنيسة انكلترا هي الكنيسة الكاثوليكية - لقد وعظ ولا اعرف عدد الخطب عن الخلافة البابوية. لهذا السبب لورد بكثورن والآخرين لا يأتون إلى هذه الكنيسة. لم ينظم إلى الحركة الانغلوكاثوليكية لأنه يعتقد أنهم مغرمين بالطقوس بحد ذاتها وأنا أيضاً هكذا.)

(أوه أنا لا أقول بأن والدك ليس له عقيدة إطلاقا لكن إن كان يظن بأننا كنيسة كاثوليكية لماذا لا يقيم الصلوات بطريقة كاثوليكية مناسبة؟ من المعيب أن لا نستطيع امتلاك البخور أحيانا وأفكاره بخصوص الثياب الكهنوتية - إن لم تعارضي قولي - هي بغيضة بشكل واضح. في احد الفصح كان يرتدي رداءاً قوطياً مع زركشة ايطالية حديثة. اللعنة مثل لبس قبعة عالية مع جزمة بنية.)

(حسناً، لا اعتقد أن الثياب الكهنوتية بهذه الأهمية التي تراها أنت) قالت دوروثي. (اعتقد أن روح القس هي ما يهم وليس ما يلبس.)

(هذا ما يقوله المنهجي الساذج!) هتف فيكتور مشمئزاً. (طبعاً الثياب مهمة! أين معنى العبادة إن كنا لا نستطيع الإستفادة منها؟ إن أردت أن تري الآن كيف يمكن أن يكون الكاثوليكي الحقيقي انظري إلى كنيسة القديس ويدكايند في ميلبورو! بحق جوف، هم يقومون بالأشياء بفخامة هناك! صور للعذراء، حجز للقربان المقدس - كل شيء. لقد لبسوا كينستايتيس ثلاث مرات وتحدوا القس علانية.)

(آخ، أنا أكره الطريقة التي يتبعونها في كنيسة ويدكايند) قالت دوروثي. (إنهم بالتأكيد شائكين. إنك لا ترى ما يحدث عند المذبح إلا بصعوبة بسبب غيوم البخور. أعتقد أن أناس كهؤلاء يجب أن يتحولوا إلى روم كاثوليك وينتهوا منها)

(عزيزتي دوروثي يجب أن تكوني مستقلة. فعلاً يجب ذلك. بلايموث برذر أو بلايموث سيستر أو أياً كان الإسم. أعتقد أن نشيدك المفضل يجب أن يكون رقم ٥٦٧ (آه يا الهي أنا أخشاك، أنت العالي جداً!)

(ونشيدك أنت رقم ٢٣١ (أنا أنصب خيمتي المتقلة ليلاً على مسيرة يوم من روما!) ردت سريعاً دوروثي وهي تلف الخيط حول الزر الأخير.

استمر النقاش عدة دقائق بينما دوروثي كانت تزين قبعة فارس بريشة ورباط زينة - كانت قبعة سوداء قديمة لبادية لها. لم تكن مع فيكتور لوحدهما دون التورط في نقاش حول قضية الطقوس. برأي دوروثي كان فيكتور من النوع الذي سينتهي به المطاف في روما لو لم يمنع، وكانت على الأرجح محقة لكن فيكتور لم يدرك قدره

المحتمل بعد. وقد امتلأ أفقه العقلي الوقت الحاضر بانفعالات حركة الانغلوكاثوليك وحروبها المثيرة الدائمة على ثلاث جبهات بنفس الوقت، البروتيستانت على اليمي والحداثيين على اليسار ولسوء الحظ الروم الكاثوليك من الخلف. كان تقريع الدكتور ميجور في أخبار الكنيسة يعني له كثر من أي عمل آخر في الحياة. لكن رغم كل ديانته فليس لديه ذرة من الورع الحقيقي في عرفه. كانت ضرورية مثل لعبة بأن الجدال الديني تجذبه - أمتع لعبة اخترعت لأنها تستمر إلى الأبد ويسمح فيها بقليل من الغش.

(الحمد لله على الانتهاء من هذه!) قالت دوروثي وهي تدور قبعة الفارس بيدها ثم وضعتها. (آوه يا عزيزي، أكوام كبيرة لا تزال بحاجة للعمل لكن أتمنى أن استطيع خلع هذه الأحذية العسكرية من عقلي. كم الوقت يا فيكتور؟)

(إنها الواحدة إلا خمس دقائق.)

(آوه يا الهي الكريم! يجب أن أسرع. علي صنع ثلاثة أقراص من عجة البيض. لا يمكنني الوثوق بايلين. آوه فيكتور هل لديك شيئاً تعطيه لنا من اجل السوق الخيري؟ إن كان لديك سروال قديم سيكون أفضل من أي شيء آخر لأننا نستطيع دائماً بيع السراويل.)

(سروال؟ لا. لكن أخبرك بما لدي، لكن. لدي نسخة من رحلة الحاج ونسخة من كتاب الشهداء لفوكس الذي كنت أود التخلص منهما منذ سنوات. هراء بروتستانتي قذر! خالة عجوز منشقة من خالاتي أعطتهما لي - ألا يثير اشمئزازك كل هذا التسول من أجل بنسات؟ الآن، لو أقمنا صلواتنا بطريقة كاثوليكية مناسبة، ألا ترين فإننا لن نحتاج . . .)

(ذلك ممتاز،) قالت دوروثي. (نحن دائماً لدينا كشك من الكتب ونطلب بنس من أجل كل كتاب وتباع كلها تقريباً. يجب أن ننجح هذا السوق الخيري يا فيكتور! أنا اعول على الآنسة ميفيل بأن تعطينا شيئاً جميلاً فعلاً وأتمنى بالخصوص أن تعطينا طقما قديما من الشاي يمكننا بيعه بخمس جنيهات على الأقل. لقد أمضيت كل فترة الصباح وأنا أصلي وأدعو بأن تعطيه لنا.)

(أوه؟) قال فيكتور بحماسة أقل مما اعتاد وارتبك مثل بروجيت في الصباح الباكر، من كلمة صلاة. كان مستعداً أن يتحدث طول اليوم حول نقطة الطقوس لكن وقع ذكر العبادة الخاصة بنفسه غير لائق وباستخفاف. (لا تنسي أن تسألي والدك عن الموكب) قال، عائداً إلى موضوع أكثر ملائمة للحاجة.

(حسناً ، سوف اسأله. لكن أنت تعرف كيف ستكون. سينزعج فقط ويقول أنه حمى رومية.)

(أوه، اللعنة الأبدية على الروم) قال فيكتور، الذي لا يلزم نفسه بكفارات بسبب قذفه مثلما تفعل دوروثي.

أسرعت دوروثي إلى المطبخ واكتشفت أنه ليس هناك سوى خمس بيضات لصنع عجة لثلاثة أشخاص وقررت أن تصنع قرصاً كبيراً واحداً وتنفخه قليلاً بواسطة حبات البطاطس المسلوقة الباردة المتبقية من الأمس. بصلاة قصيرة من أجل نجاح العجة(لأن الأقراص قابلة جداً للكسر حين تخرجها من المقلاة) خفقت البيض، بينما أسرع فيكتور في نزهته نصف حزين ونصف عابس ويدندن (أهلا بك، يا يوم العيد) ومر بطريقة خادم مقرف المنظر يحمل قدرين فخارين للبول بلا يدين كانا يوضعان في غرف النوم سابقاً وهما مساهمة الآنسة ميفيل في المزاد الخيري.

٦

تجاوزت الساعة العاشرة بقليل. لقد حدثت أشياء عديدة ـ لكن ليس هناك شيء ذو أهمية خاصة بل مجرد دورة أعمال الأبرشية المعتادة التي ملأت بعد ظهر ومساء دوروثي. وكما رتبت مسبقا في النهار كانت في بيت وربيرتون تحاول أن تمسك نفسها من الوقوع بشرك أحد تلك النقاشات التي يبتهج في إرباكها فيها.

كان هناك حديث ـ لكن في الحقيقة، السيد وربيرتون لم يفشل أبداً من توجيه الحديث إلى هذا الموضوع ـ مسألة الاعتقاد الديني.

(عزيزتي دوروثي) كان يقول مجادلاً وهو يتمشى ذهاباً وإياباً ويدس إحدى يديه في جيبه وبالأخرى يتلاعب بسيجار برازيلي. (عزيزتي دوروثي، أنت لا تقصدين جدياص بأن تخبريني أنه بعمرك البالغ السابعة والعشرين كما أعتقد ـ وبذكائك ستحتفظين بكل عقائدك الدينية تقريباً؟

(طبعاً، سأفعل وأنت تعرف ذلك.)

(أوه والآن تأتي كل حقيبة الخدع؟ كل الهراء الذي تعلمتيه وأنت على ركبتي أمك ـ لن تتظاهري أمامي بأنك لا تزالين تؤمنين بها؟ لكن بالطبع لا! لا تستطيعين! أنت خائفة من الاعتراف. زوجة الكاهن الريفي الكبير لا تسمع وأنا لن أفشي البوح)

(لا أعرف ما تقصده بقولك كل ذاك الهراء) بدأت دوروثي

وانتصبت بجلستها على المقعد مستاءة قليلاً.

(حسناً دعينا نأخذ مثالاً. شيء يصعب قبوله ـ الجحيم مثلاً. هل تؤمنين بجهنم؟ عندما أقول جهنم انتبهي فأنا لا أسألك إن كنت تؤمنين بها بطريقة مجازية كالإيمان بالحليب والماء كما يفعل المطارنة العصريين مثل الشاب فيكتور ستون. أقصد هل تؤمنين بها فعلياً؟ كما تؤمنين باستراليا؟

(نعم طبعاً أؤمن) قالت دوروثي، وحاولت أن تشرح له أن وجود جهنم أكثر حقيقية واستمراراً من وجود استراليا.

(همهم) قال السيد ورببرتون دون أن يتأثر. (تلك نقطة سليمة طبعاً. لكن ما يجعلني مرتابا جداً من ناسك المتدينين هو أنك قاسية إلى حد بعيد جداً بما يخص معتقداتك. مما يظهر تصوراً ضعيفاً لقول أقله. ها أنا غير مؤمن وكافر وغارق في ست من الخطايا المهلكة السبعة على الأقل ومن الواضح أنه محكوم علي بالعذاب الأبدي. لا أحد يعرف بأنني في غضون ساعة يمكن أن أشوى في أبأس مكان في جهنم ومع ذلك لا تزالين تجلسين معي بهدوء وكأن الموضوع لا علاقة له بي. الآن، لو أصبت بالسرطان أو الجذام أو علة جسدية أخرى سوف يحزنك ذلك على الأقل، سوف أداهن نفسي وأقول أنك ستفعلين ذلك. بينما تبدين غير مبالية فعلاً حين أسلق على شواية في كل مكان ما في العالم الأخر)

(أنا لم أقل أبداً انك ستذهب إلى جهنم) قالت دوروثي منزعجة متمنية أن تأخذ المناقشة وجهة أخرى. وللحقيقة رغم أنها كانت لن تقول له ذلك، فإن النقطة التي أثارها السيد ورببرتون كانت واحدة هي نفسها تجد صعوبات فيها. هي فعلا تؤمن بجهنم لكن لم تقدر أبداً أن تقنع

نفسها بأن أحداً قد يذهب إليها. اعتقدت أن جهنم موجودة لكنها فارغة ولكونها كانت غير متأكدة من إستقامة إيمانها فضلت إبقاء الأمر سراً في نفسها. (ليس مؤكداً أن ذهاب أي أحد إلى جهنم) قالت بقوة أكبر وشعرت أنها كانت على أساس أكيد.

(ماذا) قال السيد وربيرتون متوقفاً باندهاش ساخر. (من المؤكد أنك لا تقصدين القول بأنه لا يزال لي أمل بعد؟)

(طبعاً يوجد. فقط هؤلاء الذين يؤمنون بالقضاء والقدر من يدعون بأنك سوف تذهب إلى جهنم إن تبت أو لم تتب. أنك لا تعتقد بأن كنيسة انجلترا كالفينية (متشددة جداً ـ المترجم) أليس كذلك؟

(افترض بوجود فرصة دائماً للحصول على كفارة عن الجهل الذي لا يهزم،) قال وربيرتون متأملاً وبعدها بثقة أكبر (هل تعرفين يا دوروثي لدي شعور إنه حتى الآن وبعد معرفتك بي منذ سنتين لا تزال لديك شبه فكرة بأنك تستطيعين تحويلي إلى دين جديد. نعجة ضالة ـ جمرة اختيرت للحرق هذا كل ذلك. أعتقد بأنك لا تزالين تأملين بعكس ما هو متوقع بأنك ستفتحين عينك في أحد هذه الأيام وتقابليني في العشاء الرباني المقدس في الساعة السابعة في شتاء بارد لعين. أليس كذلك؟)

(حسناً ـ) قالت دوروثي أيضاً دون ارتياح. هي في الواقع عللت نفسها ببعض الأمل بأن السيد وربيرتون رغم أنه لم يكن حالة واعدة تماماً للنقاش. لم تكن طبيعتها عندما ترى رفيقاً في حالة عدم إيمان أن لا تقوم بمحاولة لا صلاحه. أمضت ساعات طويلة في أوقات مختلفة في نقاش جدي مع الملحدين القرويين المبهمين الذين لا يقدرون أن يقدموا أي سبب واحد مفهوم لعدم إيمانهم!) (نعم) اعترفت أخيرا ليس

لمجرد الاعتراف لكنها لن ترغب بأن تكون مراوغة.

ضحك السيد وربيرتون بابتهاج وقال:

(لديك طبيعة مفعمة بالأمل لكن ألا تخشين بأي ظرف من أن أحولك عن معتقدك؟ (قد تتذكرين الكلب الذي كان ميتاً.)

في هذه اللحظة ابتسمت دوروثي فقط. (لا تجعليه يرى أنك خائفة منه - كانت تلك دائماً حكمتها عندما تتحدث مع السيد وربيرتون. يستمران بهذه الطريقة دون الوصول إلى أي نتيجة لا في الساعات الأربعة الماضية ولا في كل ما تبقى من الليل لو أرادت دوروثي البقاء لأن السيد وربيرتون يتلذذ في مضايقتها بخصوص معتقداتها الدينية. لديه ذكاء لا يقاوم، يتماشى مع عدم إيمانه ولم تنتصر دورثي في أي نقاش معه رغم انها كانت دائماً على حق. كانا جالسين أو بالأحرى دوروثي هي الجالسة والسيد وربيرتون واقفا في غرفة واسعة متناغمة تشرف على مرج مضاء بلون القمر يسميها السيد بيرتون مرسمه - لا توجد أي علامة لأي عمل فيها. لخيبة أمل دوروثي الكبيرة، لم يظهر السيد بيولي الشهير. وبالحقيقة لم يكن هناك وجود فعلي للسيد بيولي ولا زوجته أو روايته برك السمك والخليلات. لقد اخترع السيد وربيرتون هذه الأشياء الثلاثة في لحظتها كذريعة لدعوة دوروثي إلى بيته، لأنه يعرف أنها لن تأتي دون مرافقة امرأة متزوجة أبداً. ازداد قلق دوروثي من وجود السيد وربيرتون لوحده. لقد خطر ببالها لكنها الآن تأكدت تماماً أنه من الأفضل لها أن تذهب إلى البيت فوراً لكنها بقيت بشكل أساسي لأنها مرهقة جداً ومن الصعب عليها ترك الكرسي الجلدي المريح الذي أجلسها عليه السيد وربيرتون فور دخولها. لكن الآن بدأ ضميرها بوخزها. لا يفيد البقاء إلى وقت متأخر

في بيته ـ سيتحدث الناس لو سمعوا بذلك. بالإضافة لديها العديد من الأعمال التي ينبغي عليها فعلها وأهملتها كي تأتي. لم تكن معتادة على الكسل حتى أن ساعة حديث بدت لها خطيئة غامضة.

قامت بمحاولة، ومطت نفسها في كرسيها المريح جداً. (أعتقد ـ إن لم تمانع ـ قد حان وقت ذهابي إلى البيت،) قالت.

(الحديث عن الجهل الذي لا يقهر) استمر السيد وربيرتون، دون أن يهتم بملاحظة دوروثي. (نسيت إن كنت قد أخبرتك أنني بينما كنت اقف خارج حانة (ورلد اند) في تشيلسي مرة في انتظار سيارة أجرة أتت إلي فتاة صغيرة قبيحة كريهة من جيش الإنقاذ وقالت ـ دون أي مقدمة أنت تعرفين ـ ماذا ستقول وأنت على كرسي يوم الحساب؟ قلت (إنني مدخر دفاعي). (بارع نوعاً ما، كما أعتقد، الست كذلك؟)

لم تجب دوروثي. لقد أحست بطعنة أخرى أقسى من ضميرها عندما تذكرت تلك الأحذية البائسة غير الجاهزة وضرورة أن يصنع واحداً منها اليوم. كانت متعبة بشكل لا يحتمل فقد كانت فترة ما بعد الظهر مرهقة افتتحتها بقطع عشرة أميال على الدراجة تحت الشمس ذهاباً وإياباً سلمت فيها مجلة الأبرشية ثم استمرت في حفلة شاي اتحاد الأمهات في الغرفة الخشبية الحارة الصغيرة خلف صالة الأبرشية إذ تجتمع الأمهات كل يوم أربعاء ليشربن الشاي ويقمن بأعمال خياطة خيرية بينما تقرأ دوروثي لهن بصوت عال (الين هي التي تقرأ لهن وهي فتاة من ليمبرلوست للكاتبة جين ستراتون بورتر. كانت تلك الأعمال تقع على عاتق دوروثي دائماً تقريبا لأن جماعة النساء المخلصات (دجاجات الكنيسة كما يسموهن) اللواتي يقمن بكل الأعمال القذرة في أكثر الكنائس قد تضاءل في نايبي هيل إلى أربع

أو خمس على الأكثر. المعاونة الوحيدة التي يمكن أن تعتمد عليها
وروثي بشكل دائم هي الآنسة فوتي وهي عذراء مترددة في الخامسة
والثلاثين من العمر ضخمة وجهها يشبه وجه الأرنب، كانت تنوي
العمل بشكل جيد لكنها تفسد كل شيء وتكون في حالة دائمة من
الاضطراب وظل السيد بيرتون يقول بأنها تذكره بمذنب . مخلوق
مضحك بأنف مثلوم يندفع مسرعاً في مدار شاذ ومتأخر دائماً.
يمكنك أن تثق بالآنسة فوتي بزخرفة الكنيسة وليس مع الأمهات أو
مدرسة الأحد لأن إيمانها مشكوك فيه رغم ترددها المنتظم إلى
الكنيسة وكشفت لدوروثي بأنها تستطيع عبادة الرب تحت قبة
السماء الزرقاء بشكل أفضل. بعد الشاي أسرعت دوروثي إلى
الكنيسة لتضع زهورا جديدة في المذبح وبعدها طبعت خطبة والدها .
طابعتها كانت ضعيفة ومحجوبة من قبل حرب البوير ولا يمكنها أن
تطبع أكثر من ثمان مئة كلمة في الساعة . وبعد العشاء عزقت
الأعشاب عن البازلاء حتى خفت الضوء وكاد ظهرها ان ينكسر.
كانت متعبة أكثر من المعتاد من شيء أو من آخر.

(فعلاً علي الذهاب إلى البيت) كررت بقوة أكبر(أنا متأكدة من
أنني تأخرت بشكل رهيب.)

(البيت؟) قالت السيد ورببيرتون. (هراء! لقد بدأ المساء قبل قليل).

كان يتمشى ذهابا وإيابا في الغرفة مرة ثانية ويديه في جيوبه
ورمى سيجاره. لقد عاد شبح الأحذية العسكرية التي تحتاج إلى صنع
ليسيطر على تفكير دوروثي. سوف، قررت فجأة، تقوم بصنع زوجين
بدلً من واحد ككفارة عن الساعة التي أضاعتها وبدأت تضع
مخططاً ذهنياً للطريقة التي ستفصل منها القطع الورق البنية من أجل

مشط القدم عندما لاحظت أن السيد ورببيرتون توقف خلف مقعدها.

(كم الساعة الآن؟ هل تعرفين؟) قال.

(أخمن بأنها العاشرة والنصف. لكن الذين مثلي ومثلك لا يتكلمون بمواضيع مبتذلة كالوقت.)

(إنها العاشرة والنصف. وعلي أن أذهب فعلاً) قالت دورثي (علي كثير من الأعمال التي يجب أن أنجزها قبل النوم.)

(عمل! في هذه الساعة من الليل؟ مستحيل!)

(نعم، لدي. يجب أن أصنع زوجي أحذية.)

(يجب عليك أن تصنعي زوجين من ماذا!؟) قال السيد بيرتون

(من الأحذية العسكرية. للمسرحية التي يمثلها طلبة المدرسة. نصنعها من الصمغ والورق البني.)

(الصمغ والورق البني! يا الله!) دمدم السيد بيرتون. استمر، بشكل أساسي ليغطي واقع اقترابه المتزايد من كرسي دوروثي. (ما هذه الحياة التي تعيشينها! تعبثين بالصمغ والورق البني في منتصف الليل! يجب أن أقول انني شعرت بالسرور مرات عديدة لأنني لست ابنة رجل دين.)

(اعتقد. . .) بدأت دوروثي.

لكن بنفس اللحظة انزل السيد بيرتون المختفي خلف دوروثي يديه وأمسك بكتفيها بلطف. تلوت فوراً دوروثي في محاولة لتتحرر منه لكن السيد ورببيرتون ضغط ظهرها إلى الأسفل ليثبتها في مكانها.

(ابقي هادئة،) قال مسالماً.

(دعني اذهب!) صاحت دوروثي.

(مرر السيد ورببيرتون يده اليمنى مداعباً زندها. كان هناك شيء

فاضح جداً ومميز في طريقة فعله ذلك، كانت لمسة رجل بطيئة ومخمنة لجسد امرأة ثمين جداً بالنسبة له، كما لو أنها شيء يؤكل.

(ذراعاك جميلتان حقاً) قال (كيف نجحت في أن تظلي دون زواج كل هذه السنين؟)

(دعني اذهب فوراً) كررت دوروثي، وبدأت تصارع ثانية.

(لكني لا أريد أن ادعك تذهبين،) عارض السيد وربيرتون.

(أرجوك لا تلامس ذراعي بتلك الطريقة. أنا لا أحب ذلك!)

(يا لك من طفلة غريبة! لماذا لا تحبين ذلك؟)

(قلت لك لا أحب ذلك.)

(الآن لا تذهبي ولا تلتفتي) قال السيد وربيرتون ملاطفاً. (إنك لا تريدين أن تدركي مدى حساسية اقترابي منك من الخلف. إن التفت فستري أني كبير لدرجة أبدو فيها والدك وأصلع بشكل شنيع لكن لو بقيتي ثابتة ولم تنظري إلي فيمكن أن تتخيلي بأني ايفور نوفيلو.

لمحت دوروثي اليد التي كانت تداعبها - يد ذكرية قرنفلية كبيرة بأصابع غليظة تكسو ظهرها جزة ذهبية من الشعر. أصبح لونها باهتاً وتبدل تعبير وجهها من مجرد انزعاج إلى بغض وفزع ثم قامت بمحاولة عنيفة لتحرير نفسها ووقفت بمواجهته.

(أرغب جدياً بأن لا تفعل ذلك!) قالت بشيء من الغضب والحزن.

(ما مشكلتك؟) قال السيد وربيرتون.

انتصب واقفاً بهيئته العادية غير مهتم تماماً ونظر إليها بنوع من الاستغراب. لم يصبح وجهها شاحباً فقط بل فيه انكماش ونظرة خوف في عينيها - وفي هذه اللحظة كانت تنظر إليه كما لو أنه غريب. أدرك بأنه جرحها بطريقة لم يفهمها وربما أرادت هي منه أن لا يفهمها.

(ما هي مشكلتك؟) كرر القول ثانية

(لماذا تفعل ذلك كلما تلتقي بي؟)

(كل مرة التقي بك هذه مبالغة،) قال السيد وربيرتون(في الحقيقة نادرة الفرصة التي بحوزتي. لكن إن كنت لا تحبينها حقيقة. . .)

(طبعاً أنا لا أحبها! وتعرف أنني لا أحبها!)

(حسناً حسناً. دعينا نتوقف عن الكلام عنها) قال السيد وربيرتون بنبل. (اجلسي سوف نبدل الموضوع.)

كان يخلو من الخجل تماماً وربما كان ذلك أبرز صفاته الظاهرة. بعد أن فشل في إغوائها كان راض تماماً في الاستمرار بالحديث وكأن شيئاً لم يحدث.

(أنا ذاهبة إلى البيت حالاً) قالت دوروثي (لا استطيع البقاء أكثر من ذلك.)

(آوه هراء! اجلسي وانسي ذلك. سوف نتحدث عن اللاهوت الأخلاقي أو هندسة الكنائس المعمارية أو المرشدات أو دروس الطبخ أو أي شيء تختارينه. فكري كيف ستكون العزلة التي سأشعر بها بعد أن تذهبي إلى البيت في هذه الساعة.)

لكن دوروثي أصرت وشب هناك جدل. حتى لو لم يكن قصده أن يطارحها الغرام - فإنه مهما وعد فسوف يبدأ ثانية بعد بضع دقائق إن لم تذهب - السيد وربيرتون ضغط عليها لتبقى، لأنه مثل كل الناس الكسالى يرتعب من الذهاب للنوم وليس لديه إدراك لقيمة الوقت. إن تركته سيستمر في الكلام إلى الثالثة أو الرابعة صباحا. حتى عندما تتجح دوروثي في الفرار أخيراً فإنه يتمشى بجانبها في الممشى المقمر ويظل يتحدث بغزارة وبمزاج فكاهي جيد لدرجة أنها تجد من

المستحيل أن تغضب منه.

(أولاً أنا راحل غداً) اخبرها عندما وصلا البوابة. سوف استقل سيارة إلى المدينة ومعي الأولاد ـ أولاد الزنا ـ كما تعرفين، وسنرحل إلى فرنسا في اليوم التالي. لست متأكداً إلى أين سنذهب بعد ذلك، إلى أوروبا الشرقية ربما براغ أو فيينا أو بوخارست

(يا للروعة) قالت دوروثي.

ناور السيد وربيرتون، بدهاء مذهل لرجل ضخم وعريض ووقف بين دوروثي والبوابة.

(سأغيب ستة شهور أو أكثر) قال(وطبعاً لست مضطراً أن أسألك قبل هذا الفراق الطويل إن كنت تريدين أن تقبليني قبلة الوداع؟)

قبل أن تعرف ماذا ستفعل وضع ذراعه حولها وجذبها نحوه. تراجعت لكن متأخرة فقبلها على الخد كما كان سيقبل فمها لو لم تدر رأسها في الوقت المناسب. صارعت بين ذراعيه بعنف للحظة وهي عاجزة.

(أوه دعني اذهب!) صاحت (دعني ارحل!)

(اعتقد أنني أشرت من قبل) قال السيد بيرتون وهو يحضنها بسهولة (بأنني لا أريد أن ادعك تذهبين.)

(لكننا نقف أمام نافذة السيدة سيمبريل مباشرة! سوف ترانا بالتأكيد!)

(أوه يا الهي، سوف تفعل) قال السيد بيرتون(لقد نسيت).

متأثر بهذا الجدل ولعدم توفر أي وسيلة أخرى لديه ترك دوروثي تذهب فوضعت البوابة بينها وبينه مباشرة. تفحص نافذة السيدة سيمبريل.

(لا أرى أي ضوء في أي مكان) قال أخيرًا. (بقليل من الحظ لم ترنا العجوز البغيضة، اليس كذلك؟)

(وداعاً) قالت دوروثي باختصار. (هذه المرة يجب أن أذهب فعلا. اذكرني للأولاد.)

بهذا غادرت بأسرع ما استطاعت دون أن تركض لتبعد عن متناول يده قبل أن يحاول تقبيلها ثانية.

رغم هذا سمعت صوت إغلاق نافذة في مكان ما في بيت السيدة سيمبريل. هل كانت السيدة سيمبريل تراقبها؟لكن (فكرت دوروثي) طبعاً كانت تراقبهم! ماذا تتوقع غير ذلك؟ لا يمكن تخيل تضييع السيدة سيمبريل لمشهد كهذا. وإن كانت تراقبهم فمن المؤكد أن القصة ستنتشر في كل البلدة صباح الغد ولن تغفل عن ذكر أي شيء. لكن هذه الفكرة، تلاشت وطارت من بالها لحظة أن أسرعت في طريقها إلى البيت.

عندما أصبحت بمنأى عن منظر منزل السيد ورببرتون توقفت وأخرجت منديلها ونظفت المكان الذي قبلها فيه على خدها وفركته بقوة حتى احمر ولم تنظف اللطخة الخيالية التي تركتها شفته هناك إلا بعد أن استأنفت السير مرة أخرى.

أقلقها ما حدث لها وظل قلبها يدق ويرجف بقوة للآن. لا أستطيع تحمل هذا الشيء! كررت لنفسها قول ذلك مرات كثيرة. لسوء الحظ لم يكن ذلك أكثر من الحقيقة الحرفية فهي في الواقع لا تستطيع تحمل أن يقبلها أو يلاطفها رجل. حتى التذكر أو الخيال يجعلها تجفل من أن تحس بذراعي ذكر ثقيلة حولها وشفتيه السميكتين يبتلعان شفتيها - كان شيئاً مرعباً ومثيراً للنفور. لقد كان سرها الخاص،

عجزها العضال الذي حملته في حياتها.

لو أنهم تركوك وحيدة! فكرت وهي تندفع مسرعة أكثر إلى الإمام. هكذا كانت تطرحها لنفسها عادة (لو أنهم فقط يتركونك بحالك) لولا ذلك لما كرهت الرجال بل على العكس لقد أحبتهم أكثر من النساء. بعود قسم من سيطرة السيد وربيرتون عليها في الواقع لكونه رجلا ولمزاجه الجيد غير المبالي والسعة العقلية الكبيرة التي قلما تجده عند النساء. لكن لماذا لا يستطيعون تركها بحالها؟ لماذا عليهم أن يقبلوها دائماً ويهاجموها؟ كانوا مروعين حين يقبلونها - مروعين ومقرفين نوعاً ما مثل وحوش كبيرة مكسوة بالفرو تحك نفسها بك بود مفرط قابل للتحول إلى خطر في أي لحظة. ويكمن دائماً وراء تقبيلهم وهجومهم إيحاءات الأشياء غير السوية (هذا ما أطلقته على تسميتها) التي لا تحتمل مجرد التفكير بها.

لقد نالت طبعاً حصتها بل وأكثر من حصتها من اهتمام الرجال العرضي لكونها الفتاة التي يضايقها الرجال دائماً. إذ عندما يريد رجل ما قليل من اللهو العرضي فهو يلتقط الفتاة غير الجميلة جداً عادة ويعتقد بأن الفتيات الجميلات ملوثات وصاحبات نزوات لكن الفتيات العاديات لعبة سهلة ولن تنجو من المطاردة تماماً حتى لو كانت ابنة قس وعاشت في بلدة مثل نايبي هيل وأمضت كل حياتها في أعمال الأبرشية. دوروثي كانت معتادة على كل هذا - معتادة على الرجال البدناء متوسطي العمر، بعيونهم الخالية من البريق والمفعمة بالأمل الذين يبطئون سياراتهم عندما تتجاوزهم في الطريق ومنهم من يناور بمقدمة وبعدها بعشرة دقائق يقرص كوعها. رجال من كل الأصناف. حتى رجال الدين في مناسبة واحدة - كان قس المطران..... لكن

المشكلة لم تكن أفضل بل أسوأ عندما يكون النوع الصحيح من الرجال والتقدم الذي يقوم به يشرفك. ورجع فكرها إلى خمس سنوات ماضية، إلى فرانسيس مون، مساعد الخوري في كنيسة ويدكايند في ملبورو. عزيزي فرانسيس!كم كان زواجها منه مبهجاً لو لم يكن ذلك السبب فقط. سألها المرة تلو الأخرى لكي تتزوجه وبالطبع كان عليها أن تقول لا ولم يعرف السبب أبداً كان من المستحيل أن تخبره عن السبب. ثم رحل وبعد سنة واحدة مات ليس جراء ذلك بل بسبب ذات الرئة. همست بالصلاة على روحه متناسية للحظة أن والدها لا يحب الصلاة على الموتى وبعد ذلك أبعدت بجهد الذكرى عن تفكيرها. آه من الأفضل عدم التفكير في ذلك مرة أخرى! تصيبها تلك الذكرى في الصميم. لا تستطيع أن تتزوج أبداً لقد أخذت ذلك القرار منذ زمن بعيد. أدركت ذلك حتى حينما كانت طفلة ولم يقهر أي شيء رعبها من كل ذلك - مجرد التفكير فيه يجعلها تنكمش وتتجمد. طبعاً هي لا تريد أن تهزمه لأنها ككثير من الناس غير مدركة تماماً بأنها كانت شاذة.

ومع هذا - رغم أن برودتها الجنسية بدت لها شيء طبيعي وحتمي - عرفت جيداً كيف بدأت. فهي تتذكر بوضوح كأنه الأمس مناظراً مرعبة بين أبيها وأمها - مشاهد شاهدتها بأم عينها عندما كان عمرها لا يزيد عن التسع سنوات. لقد تركت جرحاً عميقاً وخفياً في ذهنها. وبعدها أصبحت ترتعب من النقوش المعدنية القديمة للحوريات التي تطاردهن السناطير. كان هناك شيء شرير تعسر على عقلها الطفولي فهمه يتعلق بتلك المخلوقات نصف البشرية ذات القرون التي تترصد في الأدغال وخلف الأشجار الكبيرة وتستعد للكر قافزة للأمام في مطاردة

مفاجئة سريعة. ظلت سنة كاملة في طفولتها تخاف فعلاً من المشي عبر الأشجار لوحدها خوفا من السناطير. لقد كبرت على الخوف طبعاً لكن ظل الشعور المرافق له، ظل السنطور يمثل لها رمزاً. ربما لم تكبر قصية عن ذلك الشعور

الخاص بالفزع من الفرار اليائس من شيء مرعب عقليا - خبطة الحوافر في الغابة الموحشة وأفخاذ السنطور الهزيلة المكسوة بالفرو. كان شيئاً لا يمكن تبديله ولا يمكن التخلص منه بالمحاكمة المنطقية فضلاً عن أنه شائع هذه الأيام وسط النساء المتعلمات وهذا ما يثير الدهشة.

اختفى جل قلق دوروثي عندما وصلت إلى بيت القس. خبت أفكارها عن السناطير والسيد ورببيرتون وفرانسيس مون وعقمها القدري الذي كان يطوف في عقلها ذهاباً وإياباً وحل محلها صور الأحذية التي كانت توجه الاتهام. تذكرت أن لديها ساعتان من العمل يجب أن تنجزهما قبل النوم هذه الليلة. كان البيت في ظلام دامس. استدارت إلى الخلف وتسللت على أطراف أصابعها من باب حجرة الغسيل خشية أن توقظ والدها الذي ربما نام لتوه. عندما تحسست طريقها عبر الممر المظلم إلى قاعة الموسيقى قررت فجأة أنها ارتكبت خطأ بذهابها إلى منزل السيد ورببيرتون هذه الليلة. بعد أن أشعلت المصباح وقبل أن تفعل أي شيء وجدت قائمة ملاحظاتها، التي كتبتها للغد، وخطت بالقلم ك مقابل الفطور وتعني كاف كفارة - لا يوجد لحم خنزير للفطور غدا. بعدها أشعلت مدفأة الزيت تحت إناء الصمغ.

سقط ضوء المصباح الأصفر على ماكينة الخياطة وكوم الثياب نصف الجاهزة على الطاولة الذي ذكرها بالكوم الأكبر من الثياب

التي لم تبدأ بها بعد، وذكرها أيضاً بتعبها الشديد. لقد نسيت تعبها في اللحظة التي وضع السيد ورييرتون يده على كتفها لكنه عاد الآن بقوة مضاعفة. كان هناك شيء استثنائي بخصوص تعبها الليلة. شعرت بأنها أنهكت بالمعنى الحرفي للكلمة. بينما كانت واقفة جانب الطاولة أحست بشعور مفاجئ وغريب جداً كما لو أن كل ذهنها كان فارغا تماماً ونست هذه اللحظة فعلا ما هو العمل الذي كانت ستنجزه بعد دخولها إلى صالة الموسيقا.

بعدها تذكرت ـ الأحذية العسكرية، طبعا! عفريت كريه همس في أذنها، (لماذا لا تذهبين مباشرة إلى السرير وتدعين الأحذية إلى الغد؟ نطقت الصلاة وقرصت نفسها لتستمد القوة. هيا يا دوروثي! لا تهملي أرجوك! لوك تسعة، ٦٢. بعد تنظيف بعض القمامة عن الطاولة أخرجت مقصها وقلم رصاص وأربع صفحات من الورق البني وبدأت بتقطيع النعال المزعجة للأحذية بينما كان الصمغ يغلي.

عندما دقت ساعة جدها في مكتب والدها معلنة انتصاف الليل كانت دوروثي لا تزال تعمل. لقد صنعت حذاءين في هذا الوقت وكانت تدعمهما بشرائط ضيقة من الورق من الخارج، انه عمل مريك. كل عظم في جسدها كان يئن من الألم وأصبحت عيناها لزجتين من النعاس. في الحقيقة لقد تذكرت بصعوبة وبشكل غامض ما كانت تفعل لكنها واصلت العمل بشكل آلي، تلصق شريطا تلو الأخر من الورق في أمكنتها وتقرص نفسها كل دقيقتين لتبطل صوت غناء الموقد الزيتي المنعس تحت إناء الصمغ.

الفصل الثاني



١

استيقظت دوروثي من نوم قاتم خال من الأحلام وشعرت بأنها تنتشل من هاوية سحيقة تدريجيا لكن ظلت عيناها مغلقتان. ورفرف جفناها اللذان أصبحا اقل صدا للضوء ثم انفتحتا. كانت تنظر إلى شارع قذر وصاخب من الدكاكين الصغيرة والبيوت ذات الواجهات الضيقة مع سيول من البشر والترامات والسيارات المارة في كلا الاتجاهين. لكن لا يمكن القول بعد بأنها ترى لأن الأشياء التي شاهدتها. لم تكن مفهومة على أنها بشر وترامات وسيارات أو أي شيء على وجه الخصوص، لدرجة أنها لم تفهم بأن هذه الأشياء تتحرك ولا حتى إنها أشياء. إنها رأت كما يرى الحيوان دون تأمل وبلا وعي. تدفقت أصوات الشارع من جلبة الضجيج المشوش وأصوات الزمامير وصراخ عربات الترام وهي تطحن سكتها الخشنة داخل رأسها مثيرة كردود فعل بدنية صرفة. لم يكن لديها كلمات ولا أي تصور عن الغرض من هذه الأشياء ككلمات وكانت في غياب تام للشعور بالزمان أو المكان أو بجسدها أو حتى بوجودها.

ازدادت حدة إدراكها الحسي بالتدريج. بدأت أشياء متحركة كثيرة تخترق عينيها وتصنف نفسها في صور منفصلة في ذهنها. بدأت بملاحظة شكل الأشياء لكن دون كلمات. مر بها شيء ذو شكل طولاني ينزلق ويستند إلى أربع أشكال طويلة ضيقة ويجر وراءه شيئاً

مربعا متوازنا على دائرتين. شاهدته دوروثي يمر وفجأة لمعت كلمة (حصان) في عقلها بشكل عفوي وخبت، لكنها عادت فورا بشكل أكثر تعقيدا: ذاك حصان. تلتها كلمات أخرى بيت وترام وعربة ودراجة – وبعد لحظات قليلة وجدت اسما لكل شيء كانت تراه تقريبا. اكتشفت كلمات رجل وامرأة وبتأمل هذه الكلمات اكتشفت بأنها تعرف الفرق بين الأشياء الحية وغير الحية وبين الرجال والنساء.

ولم تعي ذاتها إلا بعد أن أدركت أكثر الأشياء التي تحيط بها. لا تزال مثل زوج من العيون لعقل مستقبل لا شخصية له. لكن الآن وبصدمة خفيفة غريبة اكتشفت وجودها المنفصل والفريد، استطاعت أن تشعر بوجودها، كما لو أن شيئاً في داخلها كان يهتف بقوة (أنا أكون أنا!) وعرفت أيضاً بطريقة ما أنها كانت موجودة منذ فترات بعيدة في الماضي لكنه ماض يخلو من الذكريات الحية. ولم يشغلها هذا الاكتشاف سوى لحظة لأنه منذ البداية كان فيه إحساس بالنقص وبشيء غير مرض وغامض وهو التالي: إن عبارة (أنا أكون أنا) التي بدت كإجابة أصبحت بحد ذاتها سؤالاً ولم تعد (أنا أكون أنا) بل (من أكون أنا؟)

من كانت هي؟ قلبت السؤال في ذهنها ووجدت بأنه ليس لديها أي فكرة عن نفسها سوى إدراكها بأنها كائناً بشرياً من خلال مراقبة الناس والخيول المارة. وبدل السؤال نفسه واخذ هذا الشكل: (هل أنا رجل آم امرأة؟) ولم يسعفها الشعور أو الذاكرة بأي إشارة أو دليل للإجابة. لكن في تلك اللحظة وبالصدفة ربما، تلمست بأطراف أصابعها جسدها وأدركت بوضوح أكبر من ذي قبل بأن جسدها

موجود وأنه لها كما أنه نفسه في الواقع. بدأت تستكشف بيديها اللتان اصطدمتا بثدييها وأدركت |أنها امرأة لأن النساء فقط لهن أثداء وعرفت بطريقة ما ودون أن تدري كيف عرفت أن كل النساء العابرات التي تراهن لهن أثداء تحت ثيابهن رغم أنها لا تراها. أدركت الآن بأنها لكي تتعرف على نفسها يجب أن تتفحص جسدها بادئة بوجهها وظلت لحظات تحاول فعلا النظر إلى وجهها قبل أن تدرك بأن ذلك مستحيل. نظرت للأسفل ورأت ثوبا طويلا أسود

رث من قماش الساتان وزوج متسخ ومجعد وبال من الجوارب الحريرية الإصطناعية اللحمية وزوج أحذية أسود بال بكعب عالي. لم يكن أي منها مألوفاً لها. تفحصت يديها وكانتا غريبتين وغير غريبتين. يدان صغيرتان براحتين قاسيتين متسختين جداً وبعد لحظة أدركت أنها لم تعرفهما بسبب اتساخهما لكن لم تتعرف عليهما رغم أنهما بدتا لائقتين وطبيعيتين.

بعد تردد دام بضع دقائق التفتت إلى يسارها وبدأت تمشي ببطء بمحاذاة الرصيف. رجعت إليها بشكل غامض شظايا معرفة من الماضي الخالي: وجود المرايا والهدف منها ووجود مرايا في واجهات المحلات. بعد لحظة وصلت إلى محل مجوهرات فيه مرآة ضيقة وضعت بزاوية وتعكس وجوه المارة. التقطت دوروثي صورة وجهها من بين عشرات الوجوه الأخرى وتأكدت مباشرة بأنه لها. لكن لا يمكن القول أنها تعرفت عليه ولا تتذكر رؤيته قبل هذه اللحظة. أظهرت المرآة لها وجهاً نحيفاً وأشقرا لإمرأة صغيرة وعليه لطخ من الوسخ وتجاعيد حول العينين والتصقت برأسها قبعة نسائية سوقية سوداء بلا مبالاة تخفي أكثر شعرها. كان الوجه غير مألوف أبداً لها ومع ذلك

فهو ليس غريباً. لم تعرف حتى هذه اللحظة أي وجه تتوقع أن يكون لها لكن الآن وبعد أن رأته فقد كان هو الوجه الذي توقعته وكان مناسباً ويتوافق مع شيء في داخلها.

عندما ابتعدت عن مرآة الجواهرجي لمحت كلمات(شوكولاتة فراي) في واجهة المحل المقابل واكتشفت الغرض من الكتابة وبعد جهد سريع اكتشفت بأنها تستطيع القراءة أيضاً. تتقلت عيونها في الشارع لتفهم وتقرأ الكتابة القديمة لأسماء المحلات والإعلانات وملصقات الجرائد وهجت حروف ملصق أحمر وأخر أبيض خارج محل لبيع التبغ وقرأت على أحدها (إشاعات جديدة حول ابنة القس) وعلى الأخر(ابنة القس في باريس الآن). بعدها نظرت للأعلى ورأت بحروف بيضاء على زاوية بيت: (طريق نيوكنت). أوقفتها الكلمات وأدركت بأنها كانت تقف في طريق نيوكنت، و- وجزء آخر من معرفتها الغريبة - طريق نيوكنت مكان ما في لندن لذا فهي في لندن.

انتابتها رعشة واضحة عندما توصلت لهذا الاكتشاف. لقد استيقظ الآن ذهنها كله وأدركت ما لم تدركه من قبل - غرابة وضعها الذي أربكها وأرعبها. ماذا يعني كل ذلك؟ ماذا تفعل هنا؟ كيف وصلت إلى هذا المكان؟ ماذا حدث لها؟

لم يتأخر الجواب طويلا. فكرت –ويبدو أنها فهمت تماماً معنى الكلمات: (لقد فقدت ذاكرتي! طبعا!) في هذه اللحظة مر بها شابان وفتاة يمشون مجهدين، توقف الشابان اللذان يحملان صرراً ثقيلة على ظهريهما ونظرا باستغراب إلى دوروثي وترددا لحظة لكن واصلا سيرهما ثم توقفا بجانب عمود نور على بعد خمس ياردات منها. رأت دوروثي بأنهما ينظران إليها ويتحدثان مع بعضهما.

كان أحد الشابين في العشرين من عمره، ضيق الصدر وبشعر أسود وخدود حمراء وسيم بطريقة فضولية وشعبية وتكسوه بزة زرقاء تالفة خليعة وقبعة مربعة. أما الأخر فهو في السادسة والعشرين تقريباً، قوي ورشيق ومتحفز بأنف ساخر وبشرة صافية وردية وشفاه ضخمة خشنة كالنقانق تكشفان عن أسنان قوية صفراء. كان مهلهلا بشكل واضح وله جديلة برتقالية اللون مقصوصة قصيرة تستحوذ على رأسه مما أعطاه شبهاً بإنسان الغاب (قرد اورانج اوتان). كان منظر الفتاة مخلوقا بدينا ذو منظر مضحك، تكسوها ثياب تشبه كثيراً ما تلبسه دوروثي. استطاعت دوروثي أن تسمع شيئاً مما قالوه:

ـ تلك البغي تبدو مريضة، قالت الفتاة.

صاحب الرأس البرتقالي الذي كان يغني(أيها الولد الصغير) بصوت رجالي جميل توقف عن الغناء ليجيب. (إنها ليست مريضة بل هي متشردة جميلة لكنها الآن هي مثلنا تماما)

ـ ستكون مناسبة لنوبي، أليس كذلك؟ قال ذو الشعر الأسود.

ـ أوه، أنت، صاحت الفتاة بنغمة ودية مصدومة، متظاهرة بتقبيل رأس الشاب الأسمر.

انزل الشابان أحمالهما وأسندوها على عمود النور وتقدم ثلاثتهم نحو دوروثي مترددين بقيادة ذو الرأس البرتقالي الذي يبدو أن اسمه كان نوبي وكأنه سفيرهم. تحرك واثباً كالقرد وكانت تكشيرته صريحة وعريضة لدرجة يستحيل أن لا ترد عليه بابتسامة. خاطب دوروثي بطريقة ودية.

ـ مرحبا يا صغيرة!

ـ مرحبا

- هل أنت متشردة يا صغيرة؟
- على الشاطئ؟
- حسناً، متسولة
- على العجيزة؟
- يا الهي إنها معتوهة، تمتمت الفتاة وهي تشد بقوة ذراع الشاب الأسمر لتبعده.
- حسناً، أقصد هل لديك أي نقود أيتها الصغيرة؟
- لا أعرف

عند هذا نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض في ذهول آخر وظنوا للحظة بأن دوروثي قد تكون بلهاء فعلا. لكن بنفس الوقت اكتشفت دوروثي جيبا صغيرا بطرف ثوبها فوضعت يدها فيه وتحسست قطعة معدنية كبيرة من العملة.

- اعتقد أن لدي بنساً، قالت
- بنسا! سيفيدنا ذلك كثيرا!، قال الشاب الأسمر بقرف

أخرجته دوروثي. كان نصف كراون. وكسا الوجوه الثلاثة تبدلا مذهلا. انفرج فم نوبي كثيراً من البهجة ووثب بضع خطوات ذهاباً وإياباً مثل قرد كبير شديد الابتهاج ثم توقف ليأخذ بذراع دوروثي بشكل واثق وقال:

- هذا مرقة التوابل، إنها ضربة حظ لنا ولك أيتها الصغيرة. صدقيني. سوف تباركين اليوم الذي قابلتينا فيه كثيرا. نحن سنصنع لك حظك. الآن انظري يا صغيرة أنت ستدخلين في اتفاق معنا الثلاثة؟
- ماذا؟ قالت دروثي.
- أقصد أن أقول - ما رأيك أن تقيمي في غرفة واحدة معنا أنا وفلو

وتشارلي محظوظون وأنت كذلك، شركاء؟ هل فهمت؟ رفاق كلنا، كتف إلى كتف. نصمد إن اتحدنا ونسقط إن تفرقنا. نحن نقدم العقل وأنت تقدمين النقود. ما رأيك يا صغيرة؟ هل توافقين آم لا؟

- اخرس يا نوبي! هي لم تفهم أي كلمة مما قلت. تكلم معها بشكل مناسب، ألا يمكنك ذلك؟ قاطعته الفتاة.

- ذلك يكفي يا فلو. اسكتي واتركي الكلام لي. لدي طريقة للمومسات. والآن أنت، أتسمعينني ؟ ماذا يمكن أن يكون اسمك يا صغيرتي؟ قال نوبي.

دوروثي كانت على قيد شعرة من قول (لا أعرف) لكنها انتبهت وأوقفت نفسها في الوقت المناسب وقفز إلى ذهنها فوراً نصف دزينة من الأسماء التي اختارت منها واحداً وقالت (ايلين)

- ايلين. هذه هي مرقة التوابل. ليس هناك كنية عندما تعيش على التسول. حسناً الآن يا عزيزتي ايلين، استمعي إلي سنذهب نحن الثلاثة لنقطف حشيشة الدينار، أفهمت.. ؟

- نقفز؟

- نقطف! قالها الشاب الأسمر وقد نفذ صبره واشمئز من جهل دوروثي. كان صوته وسلوكه حزيناً وغاضباً ولهجته أكثر سوقية من نوبي وقال:

- القطاف اللعين في كنت ألا تستطيعين فهم ذلك؟

- آوه قفزات من أجل الجعة؟

- تلك المرقة المتبلة! ستكون رائعة. حسناً يا صغيرة كنت أقول، نحن الثلاثة سوف نذهب لنقطف حشيشة الدينار ونحصل على عمل وعدنا به في مزرعة بليسنغتون في لور ويلسويرث. فقط نحن جزء بسيط

من المرقة المتبلة أتفهمين؟ لأنه ليس بيننا أسود وسوف نقوم بها بأنفسنا فهي تبعد خمس وثلاثين ميلا ويجب أن نتدبر أمر طعامنا ومنامتنا ليلا أيضاً. وهذا جزء من المرقة المتبلة، مع السيدات في الحفلة. لكن الآن لنفترض بأنك ستأتين معنا؟ هل فهمت؟ يمكننا أن نستقل الترام ببنسين إلى بروملي التي تبعد خمسة عشر ميلاً ولن نضل بحاجة إلى التنقل وفي آخر ليلة على الطريق يمكنك أن تقيمي في صندوقنا. أربعة في صندوق أفضل خيار وإذا بليسنغتون تدفع بنسين للبوشل سوف تستعيدين عشر شلنات في الأسبوع بسهولة. ما هو رأيك بذلك يا صغيرة؟ نقودك لا تفعل شيئاً في سموك. لكنها تدخلك في شراكة معنا وسوف تحصلين على حصتك لشهر وأكثر—وسوف نحصل على توصيلة إلى بروملي وقليل من فضلات الطعام أيضاً. ربع كلامه تقريبا كان مفهوما لدوروثي. وسألت عشوائيا: (ما هي الفضلات؟)

ـ الفضلات؟ فضلات الطعام. أرى بأنك لست قديمة في مهنة التسول يا صغيرة؟

ـ (أوه. . . حسنا، أتريدني أن آتي معكم للعمل في قطف حشيشة الدينار؟

ـ نعم هو كذلك، ياعزيزتي ايلين. هل أنت موافقة أم لا؟

ـ (حسنا. سوف آتي، قالت دوروثي فوراً

أخذت هذا القرار بدون تردد ولو كان لديها الوقت لتفكر بوضعها لتصرفت بشكل مختلف وكانت على الأرجح ستذهب إلى مركز للشرطة طلباً للمساعدة. وهو الطريق الصحيح الذي كان عليها أن تنهجه. لكن ظهور نوبي والآخرين في الوقت الحرج وحالة العجز التي هي فيها جعلها تلقي بقدرها مع أول كائن بشري قدم

نفسه لها. بالإضافة لسبب لم تفهمه طمأنها سماع أنهم سيذهبون إلى كنت. لقد كانت كنت المكان الذي تود الذهاب إليه كما بدا لها. لم يبد الآخرون أي استغراب ولم يسألوا أي أسئلة مربكة. قال نوبي ببساطة (حسناً. تلك هي المرقة المتبلة!) بعدها أخذ من يد دوروثي نصف الكروان ودسه في جيبه ـ كيلا تضيعه كما شرح. كان على ما يبدو أن اسم الشاب الأسمر شارلي وقال بطريقته الواثقة السيئة:

ـ تعالي أو انصرفي! إنها حافلتنا الثانية ولا نريد أن نفوتها. من أين تنطلق يا نوبي؟

ـ ايليفانت، ويجب أن نصل قبل الساعة الرابعة لنلحق بها لأنهم لا يقدمون توصيلات مجانية بعد الرابعة. قال نوبي

ـ عجلوا إذا دعنا لا نضيع المزيد من الوقت. عمل جيد لو سرنا مشيا إلى بروملي وبحثنا عن مكان نأوي إليه في الليل. عجلي يا فلو.

ـ أسرعي بالسير، قال نوبي هازا صرته على كتفه.

انطلقوا دون قول المزيد من الكلمات، لازالت دورثي محتارة لكنها شعرت بحال أفضل مما كانت عليه قبل نصف ساعة ومشت بجانب فلو وشارلي اللذان ظلا يتحدثان مع بعضهما دون أن يلتفتا إليها. بدا منذ البداية بأنهما يعزلان نفسيهما عن دوروثي ـ وراغبان في تقاسم نقودها لكنهما لا يكنا لها أي مشاعر ودية. مشى نوبي في المقدمة وهو يخطو برشاقة رغم حمله ويغني بنشاط أغنية عسكرية مشهورة التي تبدو كلماتها المسجلة على الشكل التالي:

(ـ.... !) كان كل ما تستطيع الفرقة عزفه،

(ـ... !.... !) والشيء نفسه لك!

٢

كان هذا في التاسع والعشرين من آب، في الليلة الواحدة والعشرين منه خرت دوروثي نائمة في قاعة الموسيقا لذلك هناك انقطاع في حياتها مدته ثمانية أيام. ما حدث لها كان عادياً - كل أسبوع تقريباً يقرأ المرء في الصحف عن حالات مشابهة. رجل يختفي من البيت ويغيب عن الأبصار أياماً أو أسابيع وبعدها يحضر إلى مركز للشرطة أو مستشفى دون أي فكرة عن نفسه أو من أين جاء. كقاعدة من المستحيل أن يقول كيف أمضى ذلك الوقت لكن يفترض أنه كان يتجول في حالة من التنويم المغناطيسي وحالة السير أثناء النوم التي كان يمر بها بشكل عادي. في حالة دوروثي هناك شيء واحد أكيد هو أنها تعرضت للسطو أثناء تنقلها وأن الثياب التي كانت ترتديها ليست لها وفقدت أيضاً صليبها الذهبي. في اللحظة التي بادرها نوبي في الكلام كانت في طريقها إلى الشفاء ولو نالت العناية المناسبة لعادت إليها ذاكرتها بعد أيام قليلة أو حتى ساعات. شيء صغير جداً كان كافيا لانجاز ذلك وهو اللقاء مصادفة بصديق أو صورة لبيتها أو قليل من الأسئلة التي تطرح عليها بمهارة لكن سارت الأمور على نحو مخالف ولم تعط الحافز العقلي الذي تحتاجه أبداً وتركت في الحالة الغريبة التي وجدت نفسها عليها أول مرة - حالة كان فيها عقلها عادي بشكل كامن لكن تنقصه شدة الحساسية الكافية للقيام بمحاولة

اكتشاف لغزهويتها الذاتية.

فمنذ أن ألقت بقدرها مع نوبي والآخرين تلاشت كل فرص التفكير. لم يتوفر لها الوقت للجلوس والتأمل بالمسألة—لا وقت لتمسك ببلائها وتستنبط طريقها نحو الحل. إن توفير خمس دقائق فقط من الأفكار المتتالية مستحيل في العالم السفلي القذر الذي غاصت به فورا. لقد مرت الأيام في نشاط مرعب مستمر، كابوس ليس بسبب أعمال مرعبة وإنما نتيجة الجوع والفساد والإعياء وتناوب الحرارة والبرودة. وعندما تأملت تلك الفترة التي اختلط فيها نهارها بليلها معا لدرجة لم تتذكر بشكل مؤكد كم كان عدد أيامها. كل ما عرفته أن قدميها ظلتا متقرحتين دائماً وظلت جائعة بشكل دائم فترة غير محددة. كان الجوع والتقرح أوضح ذكرياتها عن تلك الفترة بالإضافة إلى البرد الليلي والشعور الغريب البليد الذي يسببه عدم النوم والتعرض المستمر للهواء.

بعد وصولهم إلى بروملي حصلوا على مكب نفايات ورقية يعج ببقايا المسالخ وبعد ذلك امضوا ليلة افترشوا فيها العشب وتغطوا بأكياس على حافة أرض ملعب رياضي وفي الصباح انطلقوا مشيا إلى حقول الحشيشة. اكتشفت دوروثي في وقت مبكر أن حكاية نوبي ووعده بالحصول على عمل غير صحيحة أبدا. لقد لفقها—اعترف بهذا عن طيب خاطر - كي يستميلها وتأتي معهم. فرصتهم الوحيدة في الحصول على عمل هي أن يستمروا في السير في الريف الذي تزرع فيه حشيشة الدينار وأن يتقدموا بطلب إلى كل مزرعة حتى يجدوا واحدة بحاجة إلى قاطفين.

كان عليهم قطع خمسة وثلاثون ميلا ومنذ صياح الديك وبنهاية

اليوم الثالث حتى وصلوا إلى أطراف حقول الحشيشة. لقد أخرتهم حاجة الحصول على الطعام طبعاً. كان بإمكانهم قطع المسافة في يومين أو ربما بيوم واحد لو لم يكن عليهم إشباع أنفسهم. لم يكن لديهم الوقت ليفكروا إن كانوا يسيرون في الاتجاه الصحيح أم لا، لقد كان الطعام يملي عليهم كل تحركاتهم. لقد تلاشت نقود دوروثي خلال ساعات وبعدها لم يبق شيء لها سوى التسول. ظهرت الصعوبة هنا. يمكن لشخص واحد أن يتسول طعامه على الطريق وحتى اثنان يمكنهما تدبر ذلك لكن الأمر يختلف عندما يكونون أربعة أشخاص معا. في هذه الظروف يستطيع المرء الحفاظ على حياته إن فتش عن الطعام بمثابرة وبعقلية فردية مثل وحش بري. كان الطعام شاغلهم الوحيد خلال تلك الأيام الثلاثة ـ الطعام فقط وصعوبة تأمينه اللامتناهية.

كانوا يتسولون من الصباح الباكر حتى الليل. تجولوا مسافات هائلة بشكل متعرج عبر البلاد؛ متقاطرين من قرية إلى أخرى ومن بيت لأخر؛ طارقين باب كل جزار وخباز وكل كوخ؛ ويتسكعون حول كل جماعات المتنزهين – دائماً عبثا ـ ويلوحون للسيارات المارة ومبادرين بالتكلم مع كل رجل مسن مناسب بقصص عن العسر المالي. كانوا يخرجون عن طريقهم مسافة خمسة أميال لمجرد الحصول على كسرة خبز أو حفنة من نفايات لحم الخنزير. تسولوا كلهم حتى دوروثي التي لم يكن لديها ماضي تتذكره ولا مقاييس للمقارنة تخجل منها ومع كل جهودهم ظلت بطونهم شبه فارغة معظم الأوقات لو أنهم لم يسرقوا أكثر مما تسولوه.

عند الغروب وفي الصباح الباكر، كانوا ينهبون البساتين

والحقول ويسرقون التفاح والخوخ والأجاص والبندق والتوت الخريفي وقبل كل شيء البطاطا. كان نوبي يعتبر المرور بحقل بطاطا دون الحصول على ملء الجيب منه على الأقل إثماً وهو الذي يقوم بجل السرقات ويتبجح بأنه يستطيع سرقة أي شيء غير مربوط وأوشك أن يودي بهم إلى السجن لو لم يكبحوه مرات كثيرة. مرة وضع يده على إوزة لكن الإوزة أطلقت جلبة مخيفة فشدته دوروثي وتشارلي قبل أن يخرج المالك من الباب.

لقد مشوا في الأيام الأولى من عشرين إلى خمسة وعشرين ميلاً يومياً. وتقاطروا عبر الأراضي المشاع وعبر القرى المطمورة بأسماء لا تصدق وتاهوا في ممرات لا تؤدي إلى أي مكان وانبطحوا مجهدين في أقنية جافة يشمون نبات الشمرة وحشيشة الشفاء وتسللوا إلى الغابات الخاصة ونزلوا في الأيكات حيث توفر الحطب والماء وطبخوا وجبات غريبة حقيرة في علبتين من علب السعوط لأنها كانت أواني الطبخ الوحيدة المتوفرة لديهم. أحياناً وعندما يكون الحظ إلى جانبهم كانوا يتناولون يخنة رائعة من لحم الخنزير الذي يتسولونه والقرنبيط الذي يسرقونه وأحياناً كتل كبيرة من البطاطا الخالية من الطعم التي يشوونه في بقايا النار وأحيانا مربى مصنوع من التوت الحريف المسروق الذي يسلقونه في إحدى علب السعوط ويلتهمونه وهو يغلي من الحرارة. كان الشاي هو الشيء الوحيد الذي لم ينفذ منهم حتى عندما لا يكون هناك أي طعام ظل الشاي متوفراً دائماً مغلياً وبلون بني غامق ومنعش. فهو شيء يمكن تسوله بسهولة تفوق كل الأشياء الأخرى. (أرجوك يا سيدتي هل تعطيني قليل من الشاي؟ حجة نادراً ما تفشل حتى مع ربات البيوت الصعبات في كنت.

كانت حرارة النهار حارقة وبياض الطرقات يبهر الأبصار وأثارت السيارات العابرة الغبار اللاسع في وجوههم. مرت بهم عائلات من قاطفي الحشيشة عدة مرات وهي تهتف في شاحنات ممتلئة بالأثاث الذي يعانق ارتفاعه السماء ومعه الأطفال والكلاب وأقفاص الطيور. أما الليالي فكانت باردة دائماً وقلما توجد ليلة دافئة بعد منتصف الليل في بريطانية. كانت كل لوازم النوم لهم الأربعة كيسان كبيران. فلو وتشارلي لهما كيس ودوروثي لها الأخر أما نوب يفينام على الأرض الجرداء. كانت المشقة بسوء البرد وأكثر فإن تمددت على ظهرك يتدلى رأسك الذي بلا وسادة للأسفل فتشعر بأن رقبتك ستتكسر وان اضطجعت على جانبك يسبب لك ضغط عظم وركك على الأرض آلاما مبرحة. حتى في الساعات القليلة التي تنجح فيها بالنوم على شكل نوبات وجفلات فإن البرد يتغلغل فيها إلى أعمق أحلامك. نوبي هو الوحيد الذي استطاع التحمل فعليا. إذ يمكنه النوم بهدوء في عش من العشب المشبع بالماء وكأنه في فراش وثير، بوجهه الجلف الذي يشبه وجه قرد مع شعيرات شقر تتوهج على ذقنه مثل قصاصات سلك نحاسي أحمر لا تفقد دفئها أبداً. كان واحد من ذوي الشعر الأحمر الذين يتوهجون بإشعاع داخلي لا يدفئهم فقط بل حتى الهواء المحيط بهم أيضاً.

كل هذه الحياة الغريبة الصعبة التي سلمت بها دوروثي لم تشعرها أو ربما أشعرتها بشكل غامض باختلاف الحياة الأخرى المنسية التي تركتها خلفها. وبعد يومين توقفت عن التفكير بمأزقها الغريب. قبلت بكل شيء - قبلت بالجوع والقذارة والتعب الشديد والجرجرة اللامتناهية ذهاباً وإياباً والنهارات الحارة وليالي الأرق

الراعشة. على أي حال كانت لا تستطيع التفكير من شدة الإعياء. وعند ظهر اليوم الثاني غمرهم التعب القاتل باستثناء نوبي الذي لا يتعبه شيء. ولم يزعجه المسمار الذي شق طريقه عبر نعل حذائه بعد أن انطلقوا في رحلتهم بقليل. ومرت فترات مدة الواحدة منها ساعة بدت فيها دوروثي نائمة وهي تمشي. وأصبحت تحمل حملا الآن لأن كل من الرجلين كان محملا مسبقا أما فلو فكانت ترفض باستمرار حمل أي شيء لذا تطوعت دوروثي بحمل الكيس الذي بداخله البطاطا المسروقة. كانوا يحتفظون بعشرة أرطال من البطاطا من قبيل الاحتياط عادة. علقت دوروثي الكيس على كتفها وحمل تشارلي ونوبي صرتيهما. جرح الخيط الذي يشبه المنشار كتفها وكان الكيس يصطدم بوركها فقرحه وبدأ ينزف وتشقق حذائها البائس المهلهل منذ البداية الأولى وفي اليوم الثاني انخلع عقب الفردة اليمنى فبدأت تعرج لكن نوبي الخبير في مثل هذه القضايا نصحها بنزع عقب الفردة الأخرى لتمشي بقدمين مسطحتين فكانت النتيجة الم ناري في مقدمة ساقيها وهي تتسلق التل وشعرت بأن أخمص قدمها قد طرق بقضيب حديدي.

لكن تشارلي وفلو كانا في حال أسوأ منها. لم يكونا منهكين بقدر دهشتهما وصدمتهما من المسافات التي عليهما أن يمشياها. إن قطع عشرين ميلا في اليوم شيء لم يسمعا به من قبل. لقد ولدا وتربيا في أحياء لندن الفقيرة ورغم أنهما مرا بشهور من الإملاق والعوز في لندن إلا أنهما لم يكونا على الطريق سابقا. ظل تشارلي حتى وقت قريب في وظيفة جيدة وفلو أيضاً في بيت جيد حتى انحرفت وطردت منه لتعيش في الشوارع. اتفقا مع نوبي في ساحة ترافيلغار كي يذهبا

معه لقطف الحشيشة متخيلين أنها مسألة لهو لكنهما نظرا باحتقار له ولدوروثي لأنهما لم يمتهنا التسول الإ من مدة قصيرة نسبياً. لقد قدرا معرفة نوبي بالطرق وجرأته في السرقة لكنه ظل بمرتبة اجتماعية دنيا بالنسبة لهم ـ كان هذا موقفهما. أما بالنسبة لدوروثي فقلما تنازلا حتى بمجرد النظر إليها بعد انتهى نصف الكراون الذي كان عندها.

من اليوم الثاني خفتت شجاعتيهما. تخلفا وتذمرا باستمرار وطالبا بأكثر من حصتيهما من الطعام. تاقا للعودة إلى لندن ولم يعد يهمهما إن كانا سيصلان إلى حقول الحشيشة أم لا وأضحى همهما أن ينبطحا في أي مكان مريح يجدانه وعندما يزيد الطعام عن الحاجة يلتهمان وجبات خفيفة لا تحصى وبعد كل توقف يثور جدال ممل قبل أن يقفا على رجليهما ثانية.

ـ عجّلا، يا فتيان، احزم صرتك يا تشارلي فالوقت ينفذ، ! قال نوبي

ـ أوه.... ينفذ! أجاب تشارلي بكآبة.

ـ حسنا، لا نستطيع القطف هنا. هل نستطيع؟ قلنا سنمشي حتى سفن اوكس الليلة، أليس كذلك؟

ـ أوه.. سفن اوكس! سفن اوكس اوي مكان لعين ولا يشكل فرق لعين لي.

ـ لكن... !نريد أن نحصل على عمل غدا أليس كذلك؟يجب أن ننزل في وسط المزارع كي نستطيع البحث عن واحدا.

ـ (أوه، .... المزارع! أتمنى لو لم اسمع بالحشيشة أبدا! ما تعودت على هذا... السير الطويل على الأقدام والقطاف مثلك. لقد ضجرت مما أنا فيه أنا ضجرت.

ـ إذا هذا القطاف اللعين. لقد امتلأت بطني منه مسبقا، أردفت فلو قائلة.

أفصح نوبي عن رأيه الخاص لدوروثي بأن تشارلي وفلو سيتوقفان ويعودان إلى لندن إن توفرت لهم الفرصة لذلك. لكن بالنسبة لنوبي لن يثبط همته أي شيء أو يكدر مزاجه الجيد ولا حتى عندما كان مسمار حذائه في أسوأ حال وبقايا جواربه القذرة كانت سوداء من الدم. في اليوم الثالث حفر المسمار ثقبا دائماً في قدمه وكان نوبي يتوقف مرة كل ميل ليطرقة ويقول:

ـ اعذريني يا صغيرة يجب علي الاعتناء بحافري اللعين ثانية. هذا المسمار اللعين.

ويبحث عن حجر مدور ويقرفص في القناة ويطرق المسمار بحذر ويقول بتفاؤل متحسسا المكان بإبهامه:

ـ ها هو! ذلك ال— في قبره!

لذلك من المفترض أن يبعث النقش الذي على القبر ثانية ويكون المسمار قد شق طريقه في الحذاء بعد ربع ساعة.

حاول نوبي أن يطارح دوروثي الغرام طبعاً لكنها صدته ولم يحقد عليها. طبعه لبق وقادر على التعامل مع هزائمه بشكل جدي. كان مبتهجا دائماً ويغني دائماً بصوت رجولي قوي ـ أغنياته المفضلة الثلاث هي (أيها الولد الصغير) و(كان عيد الميلاد في إصلاحية الأحداث) بلحن الكنيسة الموحدة و(كل ما تستطيع الفرقة عزفه) ويؤديها بطريقة موسيقية عسكرية. كان أرملا في السادسة والعشرين وبائع جرائد ناجح ولص متسلل صغير وصبي إصلاحية وجندي ولص سطو ومتشرد ولا يمكنك فهمه إلا إذا جمعت هذه الحقائق معا فهو يعجز

عن تقديم رواية متسلسلة ومترابطة لحياته. إن حديثه مزود بذكريات تصويرية عرضية - الستة شهور التي خدمها في فوج على خط الجبهة قبل أن يصبح غير صالح للخدمة بسبب إصابة في عينه، الحساء المقرف في هولوي، طفولته في بواليع ديبتفورد، موت زوجته، عصا الإصلاحية اللينة، الطنين البليد للنتروغليسرين ومداهمة باب الخزنة في معمل وودورد للأحذية حيث سرق مئة وخمسة وعشرين جنيها وأنفقها في ثلاثة أسابيع.

في ظهر اليوم الثالث وصلوا إلى حدود الريف الذي تزرع فيه الحشيشة وبدؤوا يلتقون بناس يثبطون همتهم واغلبهم من المسافرين العائدين مشيا إلى لندن مع الأخبار بأن القطاف سيء والأجور منخفضة جداً وان الأعمال تلقفها الغجر والقاطفون المحليون. عند هذا فقد تشارلي وفلو الأمل تماما، لكن بمزيج بارع من الإجبار والإقناع نجح نوبي بأن يدفعهم إلى قطع أميال أخرى. في قرية صغيرة تسمى ويل التقوا بامرأة إيرلندية - السيدة مي ايليغا التي حصلت لتوها على عمل في حقل مجاور وبادلوها بعض التفاح المسروق بقطعة من اللحم تسولتها في وقت مبكر من اليوم. أعطتهم بعض التلميحات المفيدة حول قطف الحشيشة وعن المزارع التي عليهم أن يحاولوا فيها. كانوا مستلقين على العشب مرهقين مقابل محل عام في القرية رميت ملصقات جرائد خارجه نصحتهم السيدة مك ايليغوت بلهجة دوبلن الوضيعة قائلة:

- من الأفضل لكم أن تذهبوا وتحاولوا في تشالمرز. إنها تبعد أكثر من خمسة أميال من هنا. سمعت أنهم لازالوا بحاجة إلى دزينة من القاطفين. أعتقد أنهم سيوفرون لكم عملاً إن وصلتم في وقت مبكر.

ـ خمسة أميال يا للهول! ألا توجد واحدة أقرب منها؟ تذمر تشارلي قائلاً.

ـ حسناً، هناك آل نورمان الذين حصلت على عمل عندهم وسأبدأ صباح الغد لكن لن تفيدكم المحاولة عندهم. فهم لا يتحدثوا إلا مع القاطفين المحليين وأعتقد أنهم سيتركون نصف محصولهم للإزهار.

ـ من هم القاطفون المحليون، قال نوبدي

ـ لماذا، هم من يملكون بيوتاً خاصة بهم وإلا ستضطر إلى السكن في الجوار أو سيضطر المزارع أن يعطيك كوخاً تنام فيه. هذا هو القانون هذه الأيام. في الأيام السابقة عندما تأتي لقطف الحشيشة تنزل في اصطبل وينتهي الأمر. لكن بعد أن صارت تدخلات حكومة العمال قانوناً يقول لا يجوز أخذ قطاف دون تأمين الإقامة المناسبة لهم. لهذا لا يأخذ ال نورمان إلا العمال الذين لديهم بيوت.

ـ حسناً، أنت هل لديك بيتك الخاص بك؟

ـ تباً للخوف! لكن نورمان يظن أنني أملك بيتاً. خدعتهم وادعيت بأنني أقيم في كوخ قريب. لكن بيني وبينك. إنني أقيم في زريبة بقر، هي ليست سيئة جداً باستثناء رائحة الروث الكريهة، لكن عليك أن تكون في الخارج من الخامسة صباحاً وإلا أمسك بك الرعاة.

ـ نحن لا نملك خبرة القطاف ولا اعرف الحشيشة إن رأيتها. أليس من الأفضل أن تدعي بأن خبرتك في القطاف طويلة؟ قال نوبي.

ـ تباً! قطف الحشيشة لا يحتاج إلى خبرة. اقطعها وضعها في الصندوق. هذا كل ما يحتاجه الأمر.

كانت دروثي شبه نائمة. سمعت الآخرين يتكلمون بشكل متقطع أولا عن قطاف الحشيش وبعده عن قصة نشرتها إحدى

الجرائد حول فتاة اختفت من بيتها. كان تشارلي وفلو يقرأن الملصقات على واجهة المحل المقابل وأنعشهما ذلك إلى حد ما لان الملصقات ذكرتهم بلندن ومتعها. ذكر بأن الفتاة الضائعة التي لم يهتما بمصيرها كانت (ابنة قس).

قال تشارلي وهو يقرأ الملصق بصوت عالي وباستمتاع مكثف:

- هل ترين تلك يا فلو؟ الحياة السرية لابنة القس. اكتشافات مذهلة. ليتني أملك بنسا كي استطيع قراءة ذلك.

- (عن ماذا تحكي إذا؟)

- ماذا، ألم تقرئي عنها؟ لقد امتلأت الصحف بها. ابنة القس هذه وابنة القس تلك - لم تكن ملوثة، بعض من القذارة، أيضا

وقال نوبي متأملا وهو مضجع على ظهره:

- إن ابنة القس المتدينة من مادة سريعة الهياج، أتمنى لو كانت هنا الآن! لعرفت ما سأفعله بها.

- صغيرة هربت من البيت مع رجل يكبرها بعشرين عاماً واختفت وهم يبحثون عنها في كل مكان الآن. أضافت السيدة مس ايليفا

- هربت بمنتصف الليل في سيارة وليس عليها سوى ثوب منامتها وتألمت كل القرية على ذهابها، قال شارلي بإعجاب.

- هناك من يقول بأنه أخذها إلى خارج البلاد وباعها لأحد بيوت الدعارة في باريس، أضافت السيدة مس ايليفا.

- دون ثياب ماعدا ثوب نوم؟ يا لها من بغي قذرة!

كان يمكن للحديث أن يدخل في تفاصيل أكثر لو لم تقطعه دوروثي. لقد أثار حديثهم فضول ضعيف في نفسها. أدركت أنها لا تعرف معنى كلمة قس. اعتدلت في جلستها وسألت نوبي:

ـ ما هو القس؟

ـ القس؟ أف إنه ربان جوي ـ رجل كاهن. رجل يلقى الوعظ وينشد التراث في الكنيسة. لقد مررنا بأحدهم الأمس ـ يركب دراجة خضراء وياقته مقلوبة للوراء إنه خوري أي رجل دين. هل عرفت.

ـ أوه. . . . . . . نعم، اعتقد ذلك

ـ الكهنة! كم هم ملاعين، بعضهم، قالت السيدة مس ايليفا متذكرة.

لم تفهم دوروثي شيئاً من الشرح لكن ما قاله نوبي نورها قليلا. كانت كل سلسلة أفكارها المتعلقة بالكنيسة ورجال الدين مبهمة بشكل غريب وبدت ضبابية في ذهنها. كانت إحدى فجوات المعرفة الغريبة العديدة التي استعادتها من الماضي.

كانت ليلتهم الثالثة على الطريق. عندما حل الظلام نزلوا إلى أيكة للإقامة وبعد منتصف الليل بقليل انهمرت عليهم زخات المطر. امضوا ساعة بائسة في التعثر ذهابا وإيابا في الظلام وهم يحاولون إيجاد ملجئ وعثروا أخيراً على كوم قش فاحتشدوا فيه على جوانبهم حتى بان الضوء النهار. ظلت فلو تنتحب طوال الليل بطريقة سيئة لا تحتمل وعند الصباح كانت في حالة شبه انهيار وبدا وجهها السمين الساذج الذي غسله المطر والدموع مثل مثانة الخنزير ـ إن استطاع المرء تخيل مثانة خنزير ملتوية. زحف نوبي تحت السياج وجمع قبضة من العصي الجافة ونجح في إشعال نار لغلي بعض الشاي كالعادة. لا يوجد طقس مهما كان سيئا يمنع نوبي من إنتاج كأس من الشاي. وحمل قطعا من إطار سيارة من بين أشياء أخرى ليصنع منها وهجا عندما يكون الحطب رطبا وامتلك أيضاً مهارة غلي الماء على نار شمعة التي

لا يعرفها سوى قلة من الخبراء الذين يسافرون مشياً.

تجمدت أطراف الجميع بعد تلك الليلة المرعبة وصرحت فلو بأنها غير قادرة على مشي خطوة واحدة اخرى وساندها تشارلي. واصلت دوروثي ونوبي السير إلى مزرعة تشاملرز عندما رفض الاثنان الآخران التحرك ورتبا مواعيد للقاء بعد أن يجربا حظيهما. وصلا إلى مزرعة تشالمرز التي تبعد خمسة أميال ووجدا طريقهما عبر البساتين الفسيحة إلى حقول الحشيشة وقيل لهم بأن المراقب لن يحضر قبل وقت طويل لذلك انتظرا أربع ساعات في طرف المزرعة. جففت الشمس الثياب التي يلبسونها وكانا يراقبان القاطفين وهم يعملون. كان مشهدا مغريا وهادئا. سوق النبات والنباتات المتسلقة العالية كحبوب البازلاء الضخمة الخضراء التي نبتت في الممرات المورقة وتتدلى الحشيشة منها بشكل عناقيد خضراء باهتة كعنب عملاق. عندما حركتها الريح اهتزت وفاحت رائحة قارصة جديدة من الكبريت والجعة الباردة. في كل ممر من اللبلاب هناك عائلة لفحتها الشمس تقطع الحشيشة وتضعها في أكياس الخيش. كانوا يغنون جميعا وهم يعملون وفجأة انطلق صوت فتوقفوا ليغلوا كؤوس الشاي على النار المطقطقة المكونة من سوق الحشيشة. حسدتهم دوروثي كثيرا لقد بدت سعادتهم كبيرة جداً في تحلقهم حول النار وكؤوس الشاي وقطع الخبز ولحم الخنزير تغمرهم رائحة الحشيشة ودخان الحطب! تاقت لهذا العمل - لكن في الوقت الحاضر ليس في وسعها فعل أي شيء. وصل المراقب حوالي الساعة الواحدة واخبرهم بعدم وجود أعمال لهما لهذا عادا إلى الطريق وانتقما من مزرعة تشالمرز بسرقة عدد كبير من حبات من التفاح.

عندما وصلا مكان اللقاء وجدا بأن فلو وتشارلي قد اختفيا.
طبعاً بحثا عنهما لكنهما عرفا ما حدث وفي الحقيقة كان الأمر واضح تماما. وضعت فلو عينها على سائق شاحنة عابرة سيقلهما مجانا إلى لندن مقابل فرصة عناق جيد على الطريق. لكنهما سرقا الصرتين ولم يبق لدوروثي ونوبي أي طعام ولا حتى كسرة خبز أو حبة بطاطا أو شاي ولا معدات نوم ولا حتى علبة سعوط يطبخوا فيها ما يتم تسوله أو سرقته—لا شيء في الواقع سوى الثياب التي يقفون فيها.

كانت الساعات الستة والثلاثين القادمة أسوأ وقت ـ وقت عصيب جدا. تاقا إلى العمل كثيرا بسبب الجوع والإرهاق! لكن كانت فرص الحصول عليه تقل أكثر كلما توغلا أعمق في الريف الذي تزرع فيه الحشيشة. قاما بمشاوير لا تعد إلى المزارع لكنهما كانا يواجهان نفس الإجابة ـ لسنا بحاجة قاطفين ـ وانشغلا بالذهاب هنا وهناك لدرجة منعتهم من التسول فلم يكن لديهما ما يأكلانه سوى التفاح والخوخ المسروق الذي سبب لهما عصيره الحامض وجع في المعدة وجوعا ضاريا. لم تمطر تلك الليلة لكنها كانت أكثر بردا من سابقاتها. لم تحاول دوروثي النوم وأمضت الليل مقرفصة فوق النار التي أبقتها مشتعلة. كانا يختبئان في أيكة زان تحت شجرة معمرة جاثمة صدت الريح عنهما لكنها كانت تمطرهما أيضاً برشات دورية من الندى. استلقى نوبي على ظهره فاتحا فمه وأضاءت أشعة النار الضعيفة خده ثم نام بهدوء كالطفل. طول الليل وعقل دوروثي مشغول بتساؤل غامض مؤرق وشك مؤلم لا يطاق. هل هذه هي الحياة التي تربت من اجلها ـ حياة التجول كل النهار ببطن فارغ والارتعاد من البرد ليلا تحت أشجار تمطرك بنداها؟ هل كانت حياتها هكذا في الماضي؟من أين

جاءت ؟ من تكون؟ لم تجد جوابا ، وكانا في طريقهما إلى الفجر. عند المساء حاولا في إحدى عشرة مزرعة. خارت قدما دوروثي وأصابها دوار بسبب الإعياء لدرجة وجدت صعوبة في السير بشكل مستقيم.

لكن في وقت متأخر في المساء انقلب حظاهما بشكل غير متوقع أبدا. حاولا في مزرعة تدعى كيرنز وتم قبولهما كعمال فورا دون أن يوجه لهما أي سؤال. تفحصهما المراقب من الأعلى للأسفل وقال باختصار(حسنا سوف تعملان. ستبدأن في الصباح، رقم الصندوق ٧ المجموعة ١٩ ولا تكلفا نفسيكما مشقة السؤال عن أسمائهم فقطف الحشيشة لا يحتاج إلى شخصية ولا إلى خبرة.

شقا طريقهما إلى المرج حيث نصب مخيم القاطفين وفي حالة تشبه الحلم وجدت دوروثي نفسها تمشي عبر متاهة من الأكواخ المسقوفة بالصحيف، قوافل الغجر وغسيل ملون يتدلى من النوافذ ، حشود من الأطفال تحلقوا في الدروب الضيقة التي بين الأكواخ وأناس بثياب مهلهلة بمنظر مرحب كانوا يطبخون الوجبات فوق نيران العصي التي لا تحصى وفي أخر الحقل هناك بعض الأكواخ المدورة القصديرية اقل من الأولى وضعت بمعزل عن المتزوجين. دل رجل عجوز كان يحمص جبنا على النار دوروثي إلى كوخ النساء.

فتحت دوروثي باب الكوخ الذي كان بعرض اثنا عشر قدم وله نوافذ غير زجاجية غطيت بألواح خشبية وليس فيه أي أثاث. لا يبدو أي شيء فيه سوى كومة كبيرة من القش تصل إلى السقف—في الواقع لقد كان الكوخ مليئاً بالقش تقريباً. بعيون دوروثي الدبقة من النعاس بدا لها القش فردوسا مريحاً فبدأت تشق طريقها فيه لكنها تراجعت بسبب سماع عواء حاد من تحتها.

ـ ماذا تفعلين؟ انزلي! من طلب منك ان تتمشي فوق بطني ياغبية!

على ما يبدو كانت هناك نساء وسط القش. حفرت دوروثي جحرا أمامها باحتراس، تعثرت فوق شيء وغاصت داخل القش. غطت في نوم عميق لكن بنفس اللحظة اندفعت امرأة ذات هيئة قاسية شبه عارية من بحر القش مثل حورية مائية وقالت:

ـ مرحبا يا رفيقة! الست رفيقة؟

ـ نعم، أنا متعبة ـ متعبة جدا.

ـ حسنا، سوف تتجمدين في هذا القش اللعين دون ملاءات. أليس لديك بطانية؟

ـ لا

ـ لدي كيس هنا

غاصت في القش ثم بزغت ثانية ومعها كيس حشيشة طوله سبعة أقدام. نامت دوروثي قبل ذلك لكنها استقضت وأدخلت نفسها ورأسها داخل الكيس الطويل ثم تمعجت وغاصت عميقا في عش قش دافئ وجاف أكثر مما تخيلته. دغدغ القش منخريها ودخل في شعرها ووخزها من فوق الكيس لكنها في تلك اللحظة لم تتخيل مكان نوم ألطف وأشهى منه ولا حتى أريكة كليوباترة المصنوعة من ريش الإوز ولا سرير هارون الرشيد العائم.

٣

من الملاحظ السهولة التي تستقر فيها على رتابة قطف الحشيشة ما إن تحصل على عمل وبعد أسبوع فقط تصنف خبيرا في القطف وتشعر وكأنك أمضيت حياتك كلها في ذلك العمل.

كان عملا بمنتهى السهولة. بدنيا كان مرهقا دون شك - إذ تظل واقفا على قدميك عشر أو اثنتا عشر ساعة يوميا وتسقط نائما منذ الساعة السادسة مساءاً - لكن في الحقيقة ليس فيه أي مهارة كما أن ثلث القاطفين في المخيم كانوا جددا في العمل مثل دوروثي، بعضهم أتى من لندن دون ادني فكرة عما تكون عليه الحشيشة آو كيف تقطف آو لماذا وقيل بأن احدهم سأل في صباحه الأول في الحقل (أين الرفوش؟) لقد تخيل أن الحشيشة تحفر من الأرض.

كل يوم في المخيم نسخة عن سابقه ماعدا أيام الآحاد. عند الساعة الخامسة والنصف وبضربة على جدار كوخك تزحف خارجاً من عش نومك وتبدأ البحث عن حذائك وسط شتائم النساء الناعسات (هناك ستة أو سبعة منهن أو حتى ثمانية) في كوم القش الكبير ومن غير الحكمة نزع الثياب لأنها تضيع مباشرة. تلتقط حزمة من القش وأخرى من سوق الحشيشة الجافة وعصا من الكومة التي في الخارج وتشعل النار لصنع شاي الإفطار. كانت دوروثي تعد فطور نوبي باستمرار مثلما تعد لنفسها وتدق على جدار كوخه عندما يكون

جاهزا فهي تستيقظ بسهولة اكبر منه في الصباح. كان الجو باردا جداً في صباحات تلك الأيام من شهر أيلول؛ لقد كان لون السماء الشرقية يخبو وتحول من الأسود إلى الكوبالتي ببطيء والعشب يبدو بلون فضي من الندى. كان الإفطار نفسه دائماً ـ لحم خنزير وشاي وخبز مقلي بدهن الخنزير ـ وتعد وجبة مماثلة أخرى للغداء وأنت تتناوله ثم تحمل زوادة الغداء وتنطلق إلى الحقول التي تبعد مسيرة ميل ونصف في فجر عاصف ازرق بأنف يسيل من البرد لدرجة يجبرك فيها أحيانا على التوقف لمسحه بمئزر الخيش الذي تلبسه.

حقول الحشيشة مقسمة إلى مزارع مساحة الواحدة حوالي فدان وكل مجموعة تقطف سوية في مزرعة واحدة. تتألف المجموعة من حوالي أربعين قاطفا بإمرة رئيس عمال الذي غالبا ما يكون من الغجر. يصل ارتفاع سوق الحشيشة إلى أكثر من اثنا عشر قدم وتمتد حبالها فوق أسلاك أفقية في صفوف تبعد عن بعضها ياردة أو اثنتين وفي كل صف هناك كيس من الخيش مثل أرجوحة عميقة معلقة بإطار خشبي ثقيل. حالما تصل الصف تعلق علبتك في مكانها وتشق حبال ساقي النبتتين التاليتين وتمزقهما فتسقط عليك جدائل ضخمة من أوراق النبات مثل طيات شعر رابونزل من الأعلى وتغمرك بالندى ثم تجرها لتضعها في مكانها في العلبة وبعد ذلك تبدأ بنزع باقات الحشيشة الكبيرة من الطرف الغليظ من الساق. في تلك الساعة المبكرة من الصباح يجري القطف بشكل بطيء ومريك لان الأيادي تكون متخشبة ومخدرة من الندى البارد والحشيشة مبللة وزلقة أيضاً. كانت الصعوبة أن تقطف الحشيشة دون قطف الأوراق والسوق لأن الكيال يرفض حشيشك إن كانت فيه أوراق كثيرة.

بعد يومين أو ثلاثة تمزق الأشواك الصغيرة التي تغطي سوق النباتات يديك. كان بدء العمل في الصباح عذابا حين يصعب عليك ثني أصابعك التي تنزف في عشرات الأمكنة لكن الألم يزول عندما تتفتح الجروح ثانية ويتدفق منها الدم بحرية. ان كانت الحشيشة جيدة وقطافك جيد يمكنك تقشير ملء علبة في عشر دقائق وأفضل نبات يغل نصف بوشل من الحشيشة لكن الحشيشة تتنوع من مزرعة إلى أخرى ففي بعضها تكون ضخمة كشجر الجوز ومعلقة بباقات كبيرة بلا أوراق بحيث يمكنك شقها بفتلة واحدة وفي أخرى تكون بائسة ولا تزيد عن حجم نبتة البازلاء ورفيعة جداً لذا عليك اقتلاعها كلها دفعة واحدة. بعض الحشيشة سيء جداً ولا يمكنك قطف بوشل واحد في الساعة.

كان العمل بطيئاً في الصباح قبل أن تجف الحشيشة ويصبح من الممكن الإمساك بها لكن في الحال تشرق الشمس وتفوح النكهة المرة الجميلة من الحشيشة المدفأة ويتبدد اكفهرار الناس الصباحي ويسير العمل بشكل جيد ويستمر القطف من الثامنة حتى الظهر بحب للعمل - تشوق عاطفي يزداد قوة بتقدم الصباح لتملأ علبتك وتتقدم قليلاً في صفك. في بداية كل مزرعة تبدأ العلب كلها جنباً إلى جنب لكنها تتدرج فيما بعد حسب المسافات التي يقطعها القاطفون الأفضل، بعضهم يكمل صفه من الحشيشة بينما يظل بعضهم الأخر في منتصف الطريق وهكذا. إن تخلفت جداً لهم الخيار في العودة إليك وإتمام صفك ويسمى ذلك (سرقة حشيشتك). دوروثي ونوبي كانا الأخيرين دائماً لأنهما وحدهما - كان هناك أربعة قاطفين في أكثر الصناديق وكان نوبي قاطفا اخرقا بيديه الخشنتين الكبيرتين

وعموما النساء تقطف بشكل أفضل من الرجال.

يستعر سباق محموم دائماً بين الصندوقين اللذين على جانبي دوروثي ونوبي، الصندوقان رقم ٦ ورقم ٨. كان الصندوق ٦ عائلة من الغجر – الأب رجل مجعد الشعر ويضع حلق بأذنيه والأم امرأة كبيرة السن بلون الجلد الجاف وولدين ضخمي البنية . أما رقم ٨ فكانت امرأة عجوز ساحلية من ايست ايند تلبس قبعة واسعة ومعطف فضفاض اسود وتأخذ سعوطا من علبة كرتونية مرسوم على غطاءها باخرة ويساعدها دائماً سلسة متناوبة من البنات والحفيدات اللواتي يقدمن من لندن في الوقت المناسب. كانت هناك فرقة كبيرة من الأولاد تعمل في المجموعة، يتبعون الصناديق بالسلال ويجمعون الحشيشة التي يسقطها الكبار اثناء قطفهم وكانت روز الشاحبة الصغيرة جداً حفيدة المرأة الساحلية العجوز وفتاة الغجر الصغيرة السمراء التي تشبه الهنديات تتسلان دائماً لسرقة التوت الخريفي وتصنعان المراجيح من سوق الحشيشة وتغنيان باستمرار حول الصناديق لكن صرخات المرأة الساحلية تفاطعهما (تابعي يا روز أيتها القطة الكسولة! التقطيها) يا إله الحصاد! سوف ألهب... لك!) الخ، الخ.

نصف قاطفوا المجموعة كانوا من الغجر. ويوجد منهم لا يقل عن مائتين في المخيم. سماهم القاطفون الآخرون ديدكيين. لم يكونوا من النوع السيئ فهم ودودن كفاية ويتملقونك كثيرا عندما يريدون الحصول على شيء منك لكنهم ماكرون، بعضهم همجيون غير مفهومين وترى في وجوههم الخرقاء الشرقية نظرة حيوان بري كسول . نظرة غباء كثيف يتواجد جنبا إلى جنب مع مكر غير قابل للترويض. نصف حديثهم يتألف من عشرات الملاحظات التي يكررونها المرة تلو

الأخرى دون ملل. الغجريان الصغيران في الصندوق رقم ٦ سألا دوروثي ونوبي عشرات المرات باليوم نفس الاحجية:

ـ ما الذي لا يستطيع فعله أذكى رجل في انكلترا؟

ـ لا نعرف. ما هو؟

ـ دغدغة بعوضة بعمود التلغراف

عندها تبدأ هبات الضحك المتواصل. كلهم كانوا جهلة بشكل مطبق ويتباهون بأن ليس بينهم من يستطيع قراءة كلمة واحدة وتخيل الأب ذو الشعر المجعد بشكل غامض بأن دوروثي كانت (عالمة) وسألها مرة بجد إن كان بإمكانه الذهاب ببيته المتنقل إلى نيويورك.

في الثانية عشر يشير صوت بوق في المزرعة للقاطفين بترك العمل لمدة ساعة واحدة وعادة يسبقها مجيء الكيال ليجمع الحشيشة وبصيحة محذرة من رئيس العمال (هل الحصاد جاهز يا رقم تسعة عشر!) يعجل القاطفون في التقاط الحشيشة الساقطة على الأرض وإنهاء تنظيف الفروع غير المقطوفة هنا وهناك وينظفوا الصناديق من الأوراق. كان هناك فن في ذلك. إن مردود القطاف النظيف قليل لأن الأوراق والحشيشة تزيد الحساب في السجل. فقط الخبراء كالفجر، كانوا مهرة في معرفة حد الوسخ المقبول والمأمون في قطفهم.

يأتي الكيال يحمل سلة مجدولة تحتوي على بوشل ويصطحب معه (الوكيل) الذي يدخل الحصة المقطوفة في كل صندوق في سجل الحسابات. (كان الوكلاء شبان من كتاب المحلات والمتاجر ومحاسبين مجازين وأمثالهم الذين اعتبروا هذا العمل إجازة مدفوعة. يغرف الكيال الحشيشة من الصندوق بالبوشل دفعة واحدة وهو يدندن (واحد! اثنان! ثلاثة!اربعة!) ويدخل القاطفون الرقم في دفاترهم.

كل بوشل يقطفونه يكسبهم بنسين. من الطبيعي ان تثور عراكات لا تحصى واتهامات عن الظلم في الكيل. الحشيشة اسفنجية القوام - يمكنك عصر بوشل منها في إناء سعته ربع غالون إن رغبت، لهذا بعد كل غرفة ينحني احد القاطفين داخل الصندوق ويحرك الحشيشة لكي تصبح رخوة أكثر لكن الكيال يرفع طرف الصندوق ويخض الحشيشة ثانية. في صباح بعض الأيام يتلقى الأوامر بأخذها ثقيلة فيجرفها ليحصل على بوشلين في كل جرفة لذلك تعلو صيحات غضب (انظر ال - - - يكبسها للأسفل! لماذا لا تدوسها بقوة؟ الخ، ويقول الخبراء سرا بأن الكيالين يختبئون في برك البقر ليتفادوا القاطفين في اليوم الأخير من القطاف. توضع حشيشة الصناديق في أكياس كبيرة يزن واحدها مئة باوند نظريا لكن رفع وأحد من تلك الأكياس المملوءة يحتاج إلى رجلين عندما يأخذها الكيالون (ثقيلة). لديك ساعة للغداء، تشعل النار من سوق الحشيشة - كان هذا ممنوعاً، لكن الجميع يقوم بذلك. فتسخن الشاي وتأكل شطائر لحم الخنزير. بعد الغداء يستأنف القطف مرة أخرى حتى الساعة الخامسة أو السادسة مساءا حين يعود الكيالون ثانية ليأخذوا الحشيشة وبعدها تصبح حرا في العودة إلى خيمتك.

باسترجاعها لفصل القطف فيما بعد، كانت ما تتذكره دوروثي دائماً هو فترة بعد الظهر. تلك الساعات الطويلة المجهدة تحت أشعة الشمس القوية ووسط أصوات غناء أربعين شخص في رائحة الحشيشة ودخان الحطب صفة غريبة لا تنسى وبمرور هذه الفترة يزداد تعبك بحيث يصعب عليك الوقوف ويدخل قمل الحشيشة الصغير الأخضر في شعرك وأذنيك ويزعجك وتصبح يديك من العصير الكبريتي سوداء

كيدي زنجي - إلا إذا كانتا تتزفان ومع كل ذلك تشعر بسعادة غير منطقية. يسيطر العمل عليك وأنت منهمك فيه. كان عملا ميكانيكيا مملا ومرهقا ويؤلم اليدين أكثر كل يوم جديد ومع ذلك لا تتزعج منه. حين يكون الطقس جميلا والحشيشة جيدة ينتابك شعور بإمكانية مواصلة القطف إلى الأبد ويعطيك بهجة بدنية وشعورا داخليا دافئا بالرضى لتقف هناك ساعة بعد أخرى تنزع العناقيد الكبيرة وتراقب الكوم الأخضر الباهت وهو يكبر أكثر فأكثر في صندوقك، إن كل بوشل يعني بنسين آخرين في جيبك. الشمس الحارقة فوقك تشويك حتى يتحول لونك بنيا وتنهمر الرائحة المرة التي لا تضعف أبداً في منخريك وتنعشك مثل ريح قادمة من محيطات من الجعة الباردة. عندما تكون الشمس مشرقة كان الكل يغني وهو يعمل، كل المزرعة تضج بالغناء لكن لسبب ما كانت كل الأغاني حزينة في ذلك الخريف - أغاني عن الحب المنبوذ والإخلاص الذي لم يقابل بالمثل، مثل نسخ سيئة من كارمن ومانون لسكوت. كان هناك:

إلى هناك هم يذهبون في فرحهم
فتاة سعيدة وولد محظوظ
لكن أنا هنا
مفطور الفؤاد!

وكانت واحدة أخرى:

لكن أنا ارقص والدمع في عيوني
لأن الفتاة التي بين ذراعي ليست أنت!

و:

الأجراس تدق لسالي

وليس لي ولسالي!

كانت الفتاة الغجرية تغنيها مرة تلو الأخرى:

نحن بؤساء جداً

ومسحوقون في مزرعة ميزابل!

رغم أن الجميع اخبرها أن اسم المزرعة ميزري أصرت على تسميتها ميزابل. وغنت المرأة العجوز من ايست ايند وابنتها روز أغنية قطاف تقول:

حشائشنا المقملة!

حشائشنا المقملة!

عندما يأتي الكيال

التقطيها التقطيها من الأرض!

عندما يأتي ليكيل

هو لا يعرف أبداً أين سيتوقف.

نعم، نعم، ادخل في الصندوق

وخذ الحصة القذرة

أما الأغاني المفضلة لديهم فكانت (يدخل الفرح قلوبهم هناك) و(الأجراس تدق من اجل سالي). لا يمل القاطفين من غناءها، يجب أن يغنونها مئات المرات قبل أن يشرف الموسم على نهايته. يعود تناغم تلك الأغاني التي تنشد في الممرات النباتية المورقة إلى حد كبير إلى جو الحقول والرائحة المرة وضوء الشمس القوية.

عندما تعود إلى المخيم في الساعة السادسة والنصف تقريبا

تقرفص بجانب الجدول الذي يمر بطرف الأكواخ وتغسل وجهك لأول مرة في اليوم. يستغرق ذلك حوالي عشرين دقيقة لتتظف يديك من القذارة السوداء التي لا تزال بالماء والصابون وإنما بشيئين أحدهما الوحل والغريب أن الأخر هو عصير الحشيشة نفسها. بعد ذلك يطبخ العشاء المكون عادة من الشاي والخبز ولحم الخنزير أيضاً - إلا إذا ذهب نوبي إلى القرية وأحضر بعض قطع اللحم بقيمة بنسين. كان نوبي يقوم بالتسوق دائماً ويعرف كيف يحصل ببنسين على لحم من اللحام قيمته تساوي أربع بنسات بالإضافة انه خبير في الاقتصاد القليل جدا. فمثلا كان يفضل دائماً شراء رغيف كوخ على أي شكل أخر من الخبز لأنه اعتاد أن يثبت بأن رغيف الكوخ يعادل رغيفين عندما تقسمه إلى نصفين.

يغلبك النوم قبل أن تتناول عشاءك لكن النيران الضخمة التي يشعلها الناس بين الأكواخ كانت ممتعة وليس من السهل تركها. سمحت المزرعة بحزمتي عصي في اليوم لكل كوخ لكن القاطفون كانوا يسلبون العدد الذي يريدونه مع كتل كبيرة من خشب الدرادر التي تظل تحترق دون لهب حتى الصباح. في بعض الليالي كانت النيران ضخمة جداً لدرجة تكفي لجلوس عشرين شخصاً حولها براحة وكان هناك غناء في الليل أيضاً وسرد الحكايات وشوي التفاح المسروق وتسلل الفتيان والفتيات إلى الممرات المظلمة معاً وتنطلق قلة من ذوي الروح الجريئة من أمثال نوبي بأكياس لسرقة البساتين المجاورة. أما الأطفال فيلعبون لعبة الغميضة بالعتمة ويغيرون على السبد الذي يرتاد المخيم ولجهلهم السوقي تخيلوا أنها طيور الدراج. في ليالي السبت اعتاد خمسون أو ستون من القاطفين على الشرب في الحانة وبعدها يسيرون

في شوارع القرية يجأرون بأغاني بذيئة لإذلال السكان المحليين الذين ينظرون لموسم القطاف مثلما ينظر الريفيون المحترمون في غالية الرومية للغزو السنوي لقبائل القوطيين.

عندما تنجح دروثي أخيراً في جرجرة نفسها إلى عش القش غير الدافئ وغير المريح بعد تلك الليلة السعيدة تكتشف أن القش قاس ولا يمكن النوم فيه ليس لأنه شائك فقط بل بعكس التبن يسمح بدخول تيار الهواء من جميع الاتجاهات. لكن تتوفر الفرصة لسرقة عدد غير محدود من أكياس الحشيشة من الحقول لتصنع لنفسها غطاء من أربعة أكياس واحداً فوق الأخر وتنجح في تدفئة نفسها لتنام بمعدل خمس ساعات في الليلة الواحدة.

٤

إن ما يكسبه المرء من قطف الحشيشة لا يكفي إلا لسد الرمق فقط.

كان متوسط الأجرة في مزرعة كينز بنسين للبوشل الواحد ويمكن للقاطف المتمرس أن يكسب ثلاث بنسات في الساعة إن كانت الحشيشة جيدة. لذلك نظرياً، يمكن كسب ثلاثين شلناً في أسبوع عمل مؤلف من ست وأربعين ساعة أما فعلياً فلم يقترب أحد من ذلك الرقم. يكسب أفضل القاطفين ثلاثة عشر أو أربعة عشر شلن في الأسبوع أما أسوأهم فيكسب ست شلنات. نوبي ودوروثي تشاركا في القطف واقتسما الدخل وكسب كل منهما أربعة شلنات في الأسبوع.

أسباب ذلك كانت كثيرة. هناك حقول حشيشتها سيئة وهناك التأخير اليومي الذي تضيع فيه ساعة أو اثنتين يومياً أيضاً. حين تنتهي من مزرعة عليك أن تحمل صندوقك إلى المزرعة التالية التي قد تبعد ميلاً وغالباً ما تخطئ في العثور عليها وتضيع المجموعة وهي تأن وتكافح تحت صناديقها التي تزن مئة باوند نصف ساعة أخرى عند الانتقال إلى مكان آخر. لكن المطر كان أسوأ الأمور؛ لقد كان شهر أيلول سيئاً تلك السنة وكان المطر يهطل يوماً من كل ثلاثة أخرى ويستمر أحياناً كل فترة الصباح أو بعد الظهر فيرتجف القاطف

بشكل يثير الشفقة في الملجأ المكون من النباتات التي لم يتم انتزاع أوراقها وتقطر الأكياس التي يضعها حول كتفيه بالماء بإنتظار أن يتوقف المطر. يستحيل القطف أثناء المطر فالنباتات تفلت من القبضة بسهولة وإن قطفتها فهي غير مفيدة لأنها عندما تبتل بالماء تنكمش حتى تتلاشى في الصندوق لهذا تمضي كل يومك في الحقل أحياناً دون أن تحصل على أكثر من شلن.

لم يؤثر كل هذا على غالبية القاطفين لأن نصفهم كانوا من الغجر الذين اعتادوا على أجور الكفاف والنصف الآخر من ايست ايند المحترمين، بائعي خضار متجولين وحانوتيين صغار وأمثالهم جاؤوا لقطف الحشيشة في الإجازة وكانوا راضين حتى لو كسبوا أجرة طريقهم ذهاباً وإياباً وقليل من المتعة في ليالي الأحد. عرف المزارعون هذا وتقايضوا على أساسه وفي الواقع لو لم يعتبر قطف الحشيشة إجازة لانهارت صناعتها على الفور لأن سعر الحشيشة الآن متدني جداً ولا يقدر المزارعون دفع أجور ملائمة للقاطفين.

يمكن أن تسحب نصف مجموع كسبك مرتين في الأسبوع. إن تركت العمل قبل انتهاء القطاف، وهو شيء غير لائق بالنسبة للمزارعين، لهم الحق في محاسبتك بسعر بنس واحد للبوشل بدلاً من اثنين مما يعني حسم نصف المبلغ الذي تدينهم به. كان من المعروف للعموم أنه بنهاية الموسم عندما يتوفر مبلغ مناسب عند كل القاطفين ولا يريدون التضحية بفقدان أعمالهم يقلل المزارعون معدل الدفع من بنسين للبوشل إلى بنس ونصف. كانت الإضرابات مستحيلة عملياً وليس هناك نقابة للقاطفين وسيتوقف أجر رؤساء المجموعات إن حدث إضراب، فقد كانوا يتقاضون أجراً أسبوعياً بدلاً من أن يدفع لهم

بنسين للبوشل، لهذا يرفعون الأرض ويقعدونها لمنع أي إضراب لكن ليس اللوم على المزارعين وأصل البلاء هو سعر الحشيشة المتدني. ولاحظت دوروثي فيما بعد بأن القاطفين، ماعدا قلة منهم ليس لديهم سوى فكرة غامضة عن مقدار ما يكسبونه. لقد أخفى نظام العمل بالقطعة الأجور المتدنية.

أوشك نوبي ودوروثي أن يموتا من الجوع في الأيام الأولى القليلة وقبل أن يستطيعا سحب جزء من أجرهما ولو لم يطعمهما القاطفون الآخرون لماتا فعلاً. كان الجميع لطفاء بشكل استثنائي وهناك جماعة من الناس تشترك في واحد من الأكواخ الكبيرة الذي يبعد قليلاً عن الصف، بائع زهور يدعى جيم بوروز ورجل يدعى جيم تيرل الذي عمل كرجل آفات في أحد مطاعم لندن الكبيرة، تزوجا من أختين وكانا صديقين حميمين، تولعوا بدروثي. لقد رأوا بأن دوروثي ونوبي يجب أن لا يموتا من الجوع. كل مساء خلال الأيام الأولى كانت مي تيرل ابنة الخمسة عشر عاما تأتي ومعها قدر مليء باليخنة وتقدمه بلا مبالة متعمدة كيلا يكون هناك أي تلميح بالتصدق عليهما. وكانت الصيغة هي نفسها دوماً:

ـ أرجوك ياهيلين، أمي كانت على وشك أن ترمي هذه اليخنة لكنها ظنت بأنكما قد تحبانها. هي لن تستفيد منها وستقدمان لها جميل لو قبلتا بها.

كثرت الأشياء التي يريد ال تيرل وبوروز رميها بشكل غير عادي خلال تلك الأيام القليلة الأولى وفي إحدى المناسبات أعطوا دوروثي ونوبي نصف رأس خنزير مطبوخ وجاهز وأعطوهم عدد من أواني الطبخ وعلبة صفيح يمكن استعمالها كمقلاة وكان أفضل ما قدموه

عدم الإزعاج بأي سؤال. عرفوا كلهم أن هناك غموض يلف حياة دوروثي - يمكن ان ترى،) قالوا (عندما تعود هيلين إلى العالم - واعتبروا إرباكها بالأسئلة مسألة شرف ولم تضطر دوروثي إلى تجشم عناء ابتداع كنية لها إلا بعد نصف شهر.

بعد أن صار بمقدور دوروثي ونوبي سحب جزء من أجريهما انتهت المشكلة. عاشا براحة مدهشة بمعدل واحد وست بنسات في اليوم لكليهما. أربع بنسات تذهب لشراء تبغ لنوبي وأربع ونصف أخرى لشراء رغيف من الخبز ويصرفان سبع بنسات للشاي والسكر والحليب (يمكن الحصول على نصف باينت من حليب المزرعة بنصف بنس) والزبدة النباتية وقطعاً من لحم الخنزير المقدد. لكن بالطبع لا يمكن قضاء اليوم دون تبذير بنس أو اثنين. تظل جائع بشكل دائم لتجمع أرباع بنسات لترى إن كنت ستقدر على دفع ثمن سمكة مدخنة أو كعكة محلاة أو رقائق بطاطا بقيمة بنس ومما زاد في بؤس أجور القاطفين أن نصف أهالي كَنْت تآمروا على انتزاع النقود من جيوبهم. لقد ربح أصحاب الحوانيت المحليين من الأربع مئة قاطف الذين نزلوا بأرضهم أموال أثناء موسم القطاف أكثر مما يكسبوه في كل ما تبقى من السنة لكن ذلك لم يمنعهم من النظر إليهم واعتبارهم قذارة سوقية. بعد الظهر يأتي مستخدمي المزرعة إلى الصناديق ليبيعوا التفاح والأجاص سبع حبات ببنس ويأتي بائعي لندن الجوالين بسلال الكعك المحلى والحلوى المائية أو (قطع الحلوى التي ثمنها نصف بنس) وفي الليل كان المخيم يعج بالباعة الجوالين القادمين من لندن بعربات مملوءة بالبقالة الرخيصة والسمك ورقائق البطاطا والسمك الهلامي والروبيان ونفايات الكعك والأرانب الكالحة ذات الأعين الزجاجية التي ظلت

مرمية بالثلج سنتين ليبيعوها بتسع بنسات.

كان النظام الغذائي الذي عاشه القاطفين قدرا محتوماً هكذا، وحتى لو توفر لديك المال لشراء طعام مناسب فلا يوجد وقت للطبخ إلا يوم الأحد. ربما كان التفاح المسروق هو الشيء المتوفر الوحيد الذي منع الإسقربوط من اجتياح القاطفين. كان هناك سرقة منظمة ودائمة للتفاح، عمليا كل من في المخيم يسرقه أو يتقاسمه وهناك حفلات للشباب(قيل بأن بائعي الفاكهة في لندن استخدموهم) الذين يأتون على دراجتهم من لندن كل عطلة أسبوعية بهدف الإغارة على البساتين. أما نوبي فقد فضل سرقة الفاكهة على التعليم ففي خلال أسبوع جمع عصابة من الشباب الذين نظروا إليه كبطل لأنه كان لص حقيقي أودع في السجن أربع مرات. كل ليلة ينطلق أفراد العصابة عند الغروب بأكياس ويعودون بأكثر من مئتي باوند من الفاكهة. كانت هناك بساتين متنوعة حول حقول الحشيشة وكان التفاح، خصوصاً نوع غولدن روسيت، مكوماً تحت الأشجار ومتعفناً لأن المزارعون لا يستطيعون بيعه ويقول نوبي إن عدم جمعه خطيئة. وفي إحدى المرات سرق هو وعصابته دجاجة والمحير في الأمر نجاحهم في ذلك دون إيقاظ الجيران لكن ظهر فيما بعد أن نوبي يعرف خدعة إنزال كيس فوق رأس الدجاجة لذلك قضت عند منتصف الليل دون ألم أو ضجة.

بهذه الطريقة مر أسبوع ثم نصف شهر ولم تقترب دوروثي من حل مشكلة هويتها وفي الحقيقة أصبحت أبعد عن الحل مما كانت عليه من قبل وتلاشى تقريباً الموضوع من بالها باستثناء لحظات غريبة وبدأت تسلم بوضعها أكثر فأكثر وتهجر أي فكرة عن الأمس أو الغد.

كان ذلك الأثر الطبيعي للحياة في حقول الحشيشة التي تضيق مدى الوعي لتحصره في اللحظة العابرة. لا تستطيع أن تتصارع مع المشاكل العقلية الضبابية عندما تكون منوماً ومشغولاً بشكل دائم - حتى عندما لا تعمل في الحقول فإنك تكون إما تطبخ أو تحضر الأشياء من القرية أو تستمتع بنار العيدان المبللة أو تمشي مجهداً وأنت تنقل سطول الماء. (كانت هناك حنفية ماء واحدة في المخيم على بعد مئتي ياردة عن خيمة دوروثي). كانت حياة تنهكك وتستنفذ كل ذرة من طاقتك وتبقيك بحالة من السعادة العميقة الأكيدة وبالمعنى الحرفي للكلمة إنها تخبلك. تهدئك النهارات الطويلة في الحقول والطعام السيئ والنوم غير الكافي ورائحة حشيشة الدينار والدخان لتدخلك في بلادة وهمية تقريبا وتتبلد حواسك مثلما يتبلد جلدك في المطر وأشعة الشمس والهواء المتجدد دائماً.

لم يكن هناك عمل في الحقول في أيام الآحاد طبعا؛ لكن يكون الصباح مزدحم بالعمل، لأن الناس في هذا الوقت يطبخون الوجبة الرئيسية الأسبوعية ويقومون بغسل ورتق الثياب. كانت تختلط في المخيم أصوات الأجراس المجلجلة لكنيسة القرية التي تحملها الريح مع ألحان (أوه يا الهي ساعدنا) الصلاة المعدة بشكل سيء في الهواء الطلق التي يقيمها مبعوث كنيسة سمبدي إلى القاطفين، وتتوهج نيران ضخمة من الحطب ويغلي الماء في السطول وعلب الصفيح والمقالي وأي شيء وجده الناس ويرفرف الغسيل الرث فوق سطوح الأكواخ. في أول أحد استعارت دوروثي طس غسيل من تيرلز وغسلت شعرها أولاً ثم ثيابها الداخلية وقميص نوبي. كانت ثيابها الداخلية في حالة رديئة جداً. لا تعرف طول المدة التي ظلت تلبسها لكن من المؤكد أنها لا

تقل عن عشرة أيام وكانت تنام فيها كل تلك الفترة. لم يبق نعل لجواربها أو حذائها الذي ظل متماسكاً بفضل الوحل الذي يغطيه.

بعد أن نشرت الغسيل ليجف طبخت الغداء وأكلا تفاحاً شبه مطهو (مسروق) وشربا شاياً بأكواب حقيقية لها قبضات استعارتها من السيدة بوروز وبعد الغداء وطيلة فترة العصر جلست دوروثي قبالة الجانب المشمس للكوخ واضعة على ركبتيها كيس ليشد ثوبها للأسفل وكانت تنعس ثم تعاود الاستيقاظ. ثلثا الناس في المخيم كانوا يقومون بنفس الأعمال، ينعسون في الشمس ويستيقظون ليحملقوا في الفراغ كالأبقار. هذا كل ما تشعر به بعد أسبوع من العمل المرهق.

حوالي الساعة الثالثة وبينما كانت جالسة وعلى وشك النوم ونوبي يتمشى عارياً حتى خصره ـ كان قميصه يجف ـ ويحمل نسخة من جريدة الأحد التي نجح في استعارتها ـ بيبن ويكلي من صحف الأحد الخمسة القذرة ـ وعندما مر بجانب دوروثي رماها في حضنها وقال بنبل:

ـ هل قرأت ذلك يا صغيرة؟

أخذت دوروثي الجريدة ووضعتها على ركبتيها لكنها شعرت بعدم قدرتها على القراءة بسبب النعاس، برز بوجهها عنوان ضخم: المأساة العاطفية في بيت كاهن ريفي تلته عناوين أخرى وشيء يدل على شكل صورة مقحمة لوجه فتاة. حدقت دوروثي لمدة خمس ثواني بصورة مسودة وملطخة لكنها كانت معروفة تماماً لها وكان هناك عمود من الطباعة تحت الصورة.

في الواقع، أكثر الصحف توقفت عن الكتابة حول (لغز ابنة القس) في هذا الوقت لأنه أصبح خبراً قديماً مضى عليه نصف شهر

لكن صحيفة ويكلي لم تهتم كثيراً إن كان الخبر جديداً أم لا طالما أنه بذيء وكان حصاد الأسبوع من الاغتصاب وأعمال القتل فقيراً لذلك أعطوا (ابنة القس) أخر دفع - في مكان الشرف في أعلى الزاوية اليسارية من الصفحة الأولى.

نظرت دوروثي بخمول إلى الصورة وأطل عليها وجه فتاة في السرير بطبعة سوداء منفرة - لم تنقل أي شيء إلى عقلها إطلاقا. وأعادت قراءة الكلمات بشكل آلي (مأساة عاطفية في بيت قس) دون فهم أو اهتمام. لقد اكتشفت أنها غير قادرة على محاولة القراءة أو حتى محاولة النظر إلى الصورة وأطبق على رأسها نوم ثقيل. تنقلت عيناها شبه المطبقتين من الصفحة إلى الصورة التي كانت إما للورد سنودن أو الرجل الذي لم يلبس الحزام ثم خرت نائمة بعدها أو بنفس اللحظة وعلى ركبتيها الجريدة ولم تتحرك حتى الساعة السادسة رغم أنها كانت تتكئ بوضع غير مريح على جدار الكوخ الحديدي المموج. عندما أيقظها نوبي ليخبرها أن الشاي جاهز خبئت دوروثي الجريدة عنها مقتصدة (ستكون مفيدة لإشعال النار) دون النظر إليها ثانية لهذا فاتت فرصتها في حل مشكلتها في هذه اللحظة التي قد تبقى دون حل شهور أخرى لولا أن انتزعها حادث كريه بعد أسبوع من حالة الرضا وعدم التفكير التي كانت تعيش فيها.

٥

في الأحد التالي انقض شرطيان على المخيم فجأة وقبضا على نوبي واثنين آخرين معه بتهمة السرقة.

حدث ذلك في لحظة ولم يتمكن نوبي من الفرار حتى لو تم تحذيره مسبقا لأن الريف كان يعج برجال الأمن الخصوصيين الموجدين بأعداد كبيرة في كنت. يؤدون القسم كل خريف ـ وهم نوع من الميليشيا للتعامل مع القبائل الغازية من قاطفي الحشيشة. مل المزارعون من سرقة البساتين وقرروا أن يضربوا مثلا في الإرهاب.

طبعاً كان هناك هياج كبير في المخيم. خرجت دوروثي من خيمتها لتكتشف الموضوع فرأت حلقة من الناس على ضوء النار وكان الكل يتوجه نحوها راكضاً فجرت خلفهم. سرت في أوصالها قشعريرة مرعبة لأنها عرفت على ما يبدو ما حدث. نجحت في شق طريقها إلى مقدمة الحشد ورأت ما كانت تخشاه بالضبط.

وقف نوبي هناك في قبضة شرطي ضخم وشرطي آخر ممسك بذراعي شابين خائفين أحدهما ولد بائس لا يتجاوز السادسة عشر من عمره وكان يبكي بمرارة. وكان السيد كيرنز، وهو رجل قوي البنية بسوالف رمادية، وصانعين من المزرعة يحرسون الملكية المسروقة التي أخرجت من القش الذي في كوخ نوبي. المعروض الأول:

كوم من التفاح؛ المعروض الثاني: بعض من ريش الدجاج المبقع بالدم.
لمح نوبي دوروثي وسط الحشد فكشر بابتسامة كشفت عن أسنانه الكبيرة وغمزها. كان هناك جلبة مربكة من الصياح:

ـ انظر إلى الولد المسكين كيف يبكي! دعهم يذهبون! يا للعار ولد مسكين كهذا! جازوا هذا الولد الساقط الذي ورطنا كلنا بما يستحق! دعه يذهب! دائماً يوضع السبب على قطاع في الحشيشة الملاعين!لا يمكن فقدان تفاحة دون اتهامنا بأخذها. دعهم يذهبون! اخرس، ألا يمكنك ذلك؟ افترض بأنه كان تفاحك اللعين؟ ألن تغضب؟ .. الخ الخ وبعدها: تراجع يا رفيق لقد جاءت أم الصغير.

شقت امرأة ضخمة تشبه إبريق البيرة بأثداء هائلة الحجم وشعر منسدل على ظهرها طريقها بالقوة عبر حلقة الناس وبدأت تزأر أولا بوجه الشرطي والسيد كيرنز ثم بوجه نوبي الذي أضل ولدها حتى نجح أخيراً صناع المزرعة في جرها بعيداً. استطاعت دوروثي سماع السيد كيرنز من خلال صرخاتها وهو يستجوب نوبي بطريقة فظة:

ـ والآن أيها الشاب، جاء دورك لتخبرنا من شاركك في التفاح! يجب أن نضع نهاية للعبة الحرامية هذه، مرة والى الأبد واعتقد أنه يجب أن تأخذ باعتبارك ذلك. أجاب نوبي بابتهاج كما هو حاله دائماً:

ـ اعتباري، أنك ا ... !

ـ لا تقلل الإحترام أيها الشاب بقلب شفتك وإلا إصابتها سخونة قبل أن تصعد لتمثل أمام القاضي!.

ـ تصيبها سخونة، أنت ا ... !

كشر نوبي. فطنته ملأته بالبهجة. التقت عيناه بعيني دوروثي فغمزها مرة أخرى قبل أن يبعدوه وكانت تلك آخر مرة رأته فيها.

علا صياح بعيد عندما نقل السجناء ولحق بهم قلة من الرجال مستهجنين الشرطيين والسيد كيرنز لكن لم يتجرأ أحد على التدخل. ابتعدت دوروثي بعد برهة؛ ولم تتوقف لترى إن كان بإمكانها توديع نوبي ـ كانت خائفة جداً وتواقة للهرب. ارتجفت ركبتاها دون أن تقدر أن تسيطر عليهما. عندما وصلت إلى الكوخ وجدت النسوة جالسات يتحدثن بشكل مشوق عن القبض على نوبي. حفرت جحراً عميقاً في القش وخبأت نفسها فيه لكي لا تسمع أصواتهن. استمر حديثهن إلى منتصف الليل وطبعاً لأن دوروثي (امرأة) نوبي واصلن عزاءها وإمطارها بالأسئلة. لم تجب ـ تظاهرت بالنوم لكن عرفت أنها لن تذوق طعم نوم تلك الليلة. أرعبها وأزعجها الأمر لكن خوفها لم يكن مفهوماً ولا منطقياً لأنها لم تكن مهددة ولا يعرف صناع المزرعة بأنها كانت تتقاسم التفاح المسروق مع نوبي — كل من في المخيم تقريباً اقتسموا التفاح المسروق ـ ونوبي لم يخنها أبداً. لم يكن قلقها فقط على نوبي الذي لم يهتم كثيرا بالشهر الذي سيمضيه في السجن بل كان هناك شيء يعمل في محيط عقلها.

شعرت أنها لم تعد نفس الشخص الذي كانت عليه منذ ساعة وتبدلت كلها من الداخل والخارج وكأن فقاعة انفجرت في دماغها وحررت الأفكار والمشاعر والمخاوف التي انستها وجودها وتحطمت كل لامبالاة الأسابيع الثلاثة الماضية التي تشبه الحلم. كانت كمن يعيش في حلم بالضبط ـ إنها حالة خاصة للحلم حين يقبل فيها المرء بكل شيء ولا يشك بأي شيء. بدت لها القذارة والأسمال والتشرد والتسول والسرقة أموراً طبيعية حتى فقدان ذاكرتها الذي لم توليه اهتماماً حتى هذه اللحظة. لقد خبا السؤال (من أكون؟) من ذهنها

حتى نسته ساعات كاملة في بعض الأحيان ولم يلح عليها جدياً إلا الآن.

طيلة الليلة الماضية البائسة وبالها مشغول بهذا السؤال الذي لم يزعجها بحد ذاته بل معرفتها بأنها على وشك الإجابة عليه. من المؤكد بأن ذاكرتها تعود إليها ومعها صدمة مروعة. لقد خافت فعلا من لحظة اكتشاف هويتها. كان بانتظارها شيء تحت سطح وعيها مباشرة لا تريد مواجهته.

نهضت في الساعة الخامسة والنصف وتلمست حذاءها كالعادة وخرجت من الكوخ؛ أشعلت النار ودست صفيحة ماء وسط الجمر الأحمر لتغلي. بعد هذا ومضت ذكرى في عقلها غير متعلقة بالموضوع ظاهرياً وكانت عن التوقف في حقول القرية في ويل قبل نصف شهر. الوقت الذي التقوا فيها مع المرأة الايرلندية، السيدة مس ايليفا. تذكرت المشهد بحيوية شديدة. كانت دوروثي مضطجعة ومنهكة على العشب وذراعها فوق وجهها وكان نوبي والسيدة مس ايليفا يتحدثان فوق جسدها الممدد وتشارلي بنكهته الممتعة يقرأ الجريدة بصوت عالي(سيرة الحب السري لابنة القس) ثم اعتدلت وسألت بارتباك لكن بلا اهتمام كبير(ما هو القس؟)

أطبقت برودة مميتة مثل يد جليدية على قلبها. نهضت وعادت مسرعة إلى الخيمة وحفرت في القش حيث وضعت أكياسها – إن كل ممتلكاتك غير المثبتة بإحكام تضيع وبالتدريج تجد طريقها نحو القاع في ذلك الكوم الكبير من القش لكن بعد دقائق من البحث الذي جلب عليها سيل شتائم من النسوة شبه النائمات وجدت دوروثي ما كانت تبحث عنه، نسخة من جريدة بوبين ويكلي التي أعطاها لها

نوبي منذ أسبوع. أخرجتها ونشرتها على ضوء النار.

كان على الصفحة الأولى - صورة وثلاثة عناوين كبيرة. نعم هذه هي!

مأساة عاطفية في أبرشية ريفية.

ابنة الكاهن وغاويها الكهل

الوالد العجوز ينهكه الأسى

(خاص - بيبن ويكلي)

(أتمنى أن أراها في قبرها قريباً!) كانت صرخة الوالد المفجوع المبجل تشارلز هير قس نايبهل، سوفوك عند علمه بفرار ابنته ذات الثمان وعشرين عاماً مع أعزب كبير السن يدعى ورببرتون الموصوف كفنان.

لا تزال الآنسة هير التي غادرت البلدة ليلاً في الواحد والعشرين من شهر آب مفقودة وباءت كل محاولا ت تعقب أثرها بالفشل. (بطباعة قاتمة) إشاعة غير مؤكدة بعد تقول أنها شوهدت مؤخراً برفقة رجل في فندق سيء السمعة في فيينا ويتذكر قراء الصحيفة بأن الفرار وقع في ظروف مثيرة. قبل منتصف ليلة الواحد والعشرين من شهر آب صدف أن نظرت السيدة ايفلينا سيمبريل وهي أرملة تقطن البيت المجاور لمنزل السيد ورببرتون من نافذة غرفة نومها ورأت السيد ورببرتون واقفاً عند بوابة منزله مع المرأة الشابة. كانت ليلة مقمرة مضيئة مما مكن السيدة سيمبريل تمييز الشابة بأنها ابنة القس. بقي الاثنان عدة دقائق عند البوابة وقبل أن يعودا إلى الداخل تبادلا قبلاً وصفتها السيدة سيمبريل بأنها ذات طبيعة عاطفية جداً وظهرا ثانيةً بعد نصف ساعة في سيارة السيد ورببرتون التي تسللت من البوابة

الأمامية وانطلقت باتجاه طريق ابسويتش وكانت الآنسة تستر نفسها بثياب قليلة وبدت بأنها كانت تحت تأثير الكحول.

وعلم أيضاً أن الآنسة هير اعتادت على القيام بزيارات سرية لمنزل السيد ورييرتون وكشفت السيدة سيمبريل التي تم إقناعها بصعوبة كبيرة للتكلم بتفصيل أكثر عن هذا الموضوع المؤلم أكثر.

جعدت دوروثي الصحيفة بعنف بين أصابعها وقذفتها في النار فانقلبت صفيحة الماء وتشكلت غيوم من الرماد والدخان الكبريتي لكنها أخرجتها من النار المطفأة بنفس اللحظة. لا يفيد الخوف منها ـ الأفضل معرفة الأسوأ. تابعت القراءة بافتتان مرعب ولم يكن خبراً جيداً تقرأه عن نفسك لأنه كان غريباً لكن لم يعد يساورها أدنى شك بأن تلك الفتاة التي قرأت عنها في الجريدة هي نفسها وليس شخص آخر. تفحصت الصورة الضبابية لكنها كانت بينة إضافة إلى أنها ليست بحاجة للصورة كي تتذكر. تمكنت من تذكر كل شيء ـ كل حدث من حياتها، إلى ذلك المساء الذي عادت فيه مرهقة إلى البيت من بيت السيد وريبرتون ومن المفترض بأن النوم داهمها في غرفة الموسيقى. كان هذا واضحاً جداً في ذهنها لهذا لا يمكن التصديق بأنها نسته. لم تتناول الإفطار في ذلك اليوم ولم تفكر بتحضير شيء للغداء لكن عندما حان الوقت انطلقت مع القاطفين إلى حقول الحشيشة بقوة العادة وبصعوبة ـ لكونها وحيدة ـ جرت صندوق الحشيشة الثقيل إلى مكانه المناسب وبدأت تقطف لكنها بعد دقائق قليلة وجدت ذلك مستحيل تماماً وأن عمل القطاف الآلي كان أكبر من قدراتها. لقد وترت تلك القصة الكاذبة المرعبة لصحيفة بيبن أعصابها جداً لدرجة استحال معها تركيز ذهنها على أي شيء آخر.

(قبلات ذات طبيعة عاطفية جداً .. بكساء قليل غير محتشم – تحت تأثير الكحول. . . . كانت كل عبارة تعود إلى ذاكرتها تسبب لها آلماً فظيعاً أجبرها على الصراخ كما لو أنه كان ألماً فيزيولوجياً).

توقفت عن التظاهر بالقطف بعد هنيهة وتركت اللبلاب يسقط في صندوقها وجلست مستندة إلى أحد الأعمدة التي تدعم الأسلاك. لاحظ بقية القاطفين مأزقها وتعاطفوا معها وقالوا إن ايلين مجروحة وماذا يمكن توقع غير ذلك بعد أن أوقع برجلها؟(كل من في المخيم سلم بأن نوبي كان عشيق دوروثي) نصحوها بأن تذهب إلى المزرعة وتخبرهم بأنها مريضة وفي حوالي الساعة الثانية عشر، حين حان أوان الكيل، أتى الجميع بقبعات مملوءة بالحشيشة وأفرغوها في صندوقها.

عندما وصل الكيال وجد دورثي لا تزال جالسة على الأرض. كانت شاحبة تحت القذارة وسمرة الشمس وبدا وجهها منهوكاً وأكبر عمراً بكثير عما هي عليه. كان صندوقها يبعد عشرين ياردة عن صناديق المجموعة وبه أقل من ثلاث بوشلات.

- ما هذا اللهو؟هل أنت مريضة؟، سأل:

- لا.

- حسناً، لماذا لا تقطفين إذاً؟ هل تعتقدين أن هذه نزهة تأنق؟ لم تأتي لتجلسي على الأرض، كما تعلمين.

(لا تضايقها) صاحت المرأة التي تبيع الخضار بلهجة شعبية فجأة. (آلا تستطيع الفتاة المسكينة الحصول على قليل من الهدوء والراحة حين تريد؟ أليس رجلها في الأصفاد بفضل جهودك وجهود أصدقائك الجواسيس القذرين من الشرطة في كنت!)

(يكفيك هذا ياسيدة!) قال الكيال بفجاجة لكنه بدا أكثر تعاطفا عند سماعه بأن عشيق دوروثي هو الذي ألقي القبض عليه الليلة الماضية. عندما أنهت البائعة العجوز غلي الشاي دعت دوروثي إلى صندوقها وأعطتها كأس من الشاي الثقيل وقطعة من الخبز والجبن، وبعد فاصل الغداء أرسل قاطف آخر لا شريك له إلى صندوق دوروثي. كان متشرد كبير السن ضئيل الحجم يدعى ديفي. تحسن وضع دوروثي بعد الشاي. وتشجعت بديفي لكونه قاطف ممتاز. وتدبرت آمر حصتها من العمل خلال فترة بعد الظهر.

قلبت الأشياء في ذهنها وكان تشتتها أقل مما كان عليه في الماضي. لا تزال عبارات الصحيفة تجفلها من الخزي لكنها الآن قادرة على مواجهة الموقف. فهمت جيداً ما حدث لها وما الذي أدى إلى تقرير السيدة سيمبريل. لقد رأت السيدة سيمبريل السيد وربيرتون وهو يقبلها عند البوابة وبعد أن اختفيا من نايبهل، كان من الطبيعي جداً . . . طبيعي أن تستنتج السيدة سيمبريل بأنهما فرا معاً. لكن هل لفقت كل ذلك؟ كان ذلك الشيء الوحيد الذي لا يمكن التأكد منه مع السيدة سيمبريل - إن كانت روت أكاذيبها بشكل مقصود ومتعمد كأكاذيب أم أن عقلها الغريب والمقزز نجح بطريقة ما بتصديقها.

حسناً، على أي حال لقد تم الأذى - لا فائدة من القلق. في الوقت المحدد، برزت لها مسألة العودة غالى نايبهل. يجب أن ترسل بطلب بعض الثياب وستحتاج إلى جنيهين أجرة القطار إلى البيت. البيت! أرسلت تلك الكلمة غصة في قلبها. البيت، بعد أسابيع من القذارة والجوع! كم اشتاقت إليه، الآن تتذكره!

لكن.. !

رفع شك قليل رأسه وبرز وجه للمسألة لم تفكر فيه حتى هذه اللحظة، هل تستطيع العودة إلى البيت بعد كل ذلك؟ هل تجرؤ؟هل تستطيع أن تواجه نايبهل بعد كل ما حدث؟ كان هذا هو السؤال بعد أن ظهرت على الصفحة الأولى للصحيفة بثياب قليلة وتحت تأثير الكحول، آه دعنا من التفكير بذلك! لكن بعد أن تثمل من رأسك حتى قدميك وتنشر عنك القصص البذيئة المرعبة المخزية فهل يمكنك العودة إلى بلدة لا يتجاوز أهلها الألفي شخص وحيث كل من فيها يعرف تاريخ الآخرين الشخصي والتحدث به طول اليوم؟

لم تعرف ولم تستطع أن تقرر. في لحظة بدت لها قصة فرارها سخف واضح لدرجة لم يصدقها أحد. يستطيع السيد وربيرتون تكذيبها - بالتأكيد سيكذبها بكل سبيل ممكن. لكن في اللحظة التالية تذكرت أن السيد وربيرتون قد سافر إلى خارج البلاد وإذا لم ينشر هذا الخبر في الصحف القارية فلن يسمع عنه شيئاً؛ بعدها ذوت مرة أخرى. عرفت معنى العيش مع فضيحة في بلدة صغيرة. التلميحات والوكزات الماكرة عندما تمر! العيون الفضولية التي تلاحقك من وراء ستائر النوافذ وأنت تسير في الشارع! زمر الشباب عند الزوايا حول معمل بيلفيل غوردن التي تتحدث عنك بشكل فاسق.

- جورج! جورج! هل ترى تلك التافهة هناك؟ ذات الشعر الأشقر؟

- ماذا، تلك النحيفة؟ نعم. من تكون؟

- إنها ابنة القس، الآنسة هير. لكن يقولون! ما هو رأيك بما فعلت قبل سنتين؟ لقد نامت مع رجل كبير في السن بعمر والدها واستمرت بالشرب والرقص والمتعة معه في باريس! لا تفكر بالنظر إليها، أليس كذلك؟

ـ تابع!

ـ فعلتها! دون توقف. تحدثت الجرائد والكل عنها لكنه رماها بعد ثلاثة أسابيع وعادت إلى البيت بوقاحة كبيرة.

ستظل سيرتها على لسان الناس وسيستمرون سنينا وعقودا بالتحدث عنها بتلك الطريقة. والأسوأ أن خبر الصحيفة الأسبوعية كان مجرد أثر مهذب مما قالته السيدة سيمبريل في البلدة. طبيعي، إن الصحيفة لم ترد أن تربط نفسها بالموضوع أكثر من ذلك. لكن هل هناك عائق يكبح السيدة سيمبريل سوى حدود خيالها الذي بوسع السماء؟

لكن هناك شيء واحد طمأن دوروثي ثانية وهو أن والدها سيفعل ما بوسعه ليحميها بأي إجراء وسيكون هناك آخرون أيضاً طبعاً. لم تكن بلا أصدقاء، على الأقل جماعة المصلين في الكنيسة الذين عرفوها ووثقوا بها واتحاد الأمهات والمرشدات والنساء اللواتي في قائمة زياراتها لن يصدقن مثل هذه الأخبار عنها لكن أهمهم جميعاً والدها. تقريباً يمكن تحمل أي وضع مهما كان صعباً في ظل وجود بيت تأوي إليه وعائلة تقف إلى جانبك. بالشجاعة وبدعم والدها يمكنها مواجهة الأشياء في الخارج. في المساء قررت العودة إلى نايبهل رغم عدم الشك بأنها لن تكون محل ترحيب في البداية. بعدما انتهى عمل اليوم سحبت شلن وذهبت إلى المحل العام في القرية واشترت ببنس رزمة أوراق ثم عادت إلى المخيم وجلست على العشب بجانب النار ـ لا توجد طاولات أو كراسي في المخيم . . . وبدأت تكتب بعقب قلم رصاص:

(والدي الحبيب، ـ لا أستطيع أن أصف لك مدى سعادتي ـ بعد كل ما حدث ـ بقدرتي على الكتابة لك مرة أخرى وأتمنى أنك لم

تقلق علي كثيراً وتتزعج من تلك القصص المرعبة التي نشرت في الصحف ولا أدري ماذا كان ظنك عندما اختفيت فجأة بتلك الطريقة ولم يصلك أي خبر مني منذ شهر تقريبا. لكن كما ترى . . .).

بدا القلم غريباً بين أصابعها المتخشبة والمتشققة! لم تتمكن من الكتابة سوى بخط كبير وممتد بشكل غير نظامي مثل كتابة طفل. لكنها كتبت رسالة طويلة شرحت فيها كل شيء وطلبت منه أن يرسل لها بعض الثياب وجنيهين أجرة القطار لتعود إلى البيت وطلبت منه أيضاً أن يراسلها على اسم زائف أعطته له ـ ايلين ميلبورو على اسم ميلبورو في سوفوك وبدا لها استعمال الاسم المزيف ـ غريباً وغير شريف وإجرامي تقريبا لكنه إجباري فهي لم تجرؤ على المخاطرة في كشف هويتها في القرية وربما في المخيم أيضاً ويعرفوا بأنها هي دورثي هير(ابنة القس) ذات السمعة السيئة.

٦

منذ أن بدأ عقل دوروثي بالتفكير تاقت للخلاص من المخيم وفي اليوم التالي وجدت صعوبة في مواصلة القطاف الممل ولم تعد تحتمل المزيد من المشقات والطعام السيئ الآن وبعد أن عادت لها ذكريات حياتها السابقة وقارنتها بوضعها الحالي ولو كان بحوزتها أجار العودة إلى البيت لفرت فوراً ولو وصلت رسالة والدها الفورية والنقود لودعت آل تيرل واستقلت القطار إلى البيت وأطلقت حسرة ارتياح لوصولها رغم الفضيحة القبيحة التي ستواجهها هناك.

في اليوم الثالث لكتابتها الرسالة ذهبت إلى مكتب بريد القرية وسألت عن رسالة والدها لكن موظفة البريد التي لها وجه كلب الصغير أخبرتها ببرود واحتقار شديد لقاطفي الحشيشة بعدم وصول أي رسالة لها فشعرت دورثي بالإحباط. يا للأسف ـ يجب أنها تأخرت في البريد. لكن لا يهم على أي حال إن غدا لناظره قريب ولن يضيرها انتظار يوم واحد فقط.

ذهبت في مساء اليوم التالي ثانية وهي متأكدة تماماً بأن الرسالة قد وصلت هذه المرة لكنها لم تجد شيئاً فساورتها الشكوك؛ وفي مساء يوم الخامس وعندما لم تصل الرسالة تحولت الشكوك إلى هلع رهيب. اشترت رزمة أوراق أخرى وكتبت رسالة طويلة استخدمت فيها كل الصفحات الأربعة؛ شرحت فيها المرة تلو الأخرى ما حدث لها

وتوسلت والدها بألا يتركها في هذه الحيرة. بعد أن وضعتها في البريد قررت بأن لا تراجعه قبل أسبوع.

حدث هذا هو يوم السبت وانهار عزمها يوم الأربعاء وعندما أعلن موعد فاصل الغداء تركت صندوقها وأسرعت إلى مكتب البريد . كان يبعد ميل ونصف مما يعني ضياع غداءها. بعد أن وصلت هناك ذهبت إلى المنضدة خجلة وغير قادرة على الكلام تقريبا. كانت الموظفة التي يشبه وجهها وجه الكلب تجلس في قفص ذو قضبان نحاسية في الطرف الأخر من المنضدة وتسجل أرقاما في دفتر حسابات طويل. رمت دوروثي بنظرة فضولية مقتضبة واستمرت بعملها دون أن تهتم بها.

شيء مؤلم كان يحدث في صدر دوروثي. وجدت صعوبة في التنفس لكنها أخيرا نجحت بأن تقول:

- هل هناك أي رسالة لي؟

- الاسم، قالت الموظفة

- ايلين ميلبورو

أدارت الموظفة انفها الكلبي الطويل من فوق كتفها للحظة ونظرت سريعا إلى حرف الميم في صندوق الرسائل.

- كلا ، قالت والتفتت إلى دفتر حساباتها ثانية.

بطريقة ما أخرجت دوروثي نفسها من مكتب البريد ومشت عائدة إلى حقول الحشيشة ثم توقفت لقد منعها جزئيا شعور الجوع المميت في معدتها من المشي.

إن صمت والدها لا يعني سوى شيء واحد. لقد صدق قصة السيدة سيمبريل بأنها فرت من البيت بظروف مشينة وبعدها بدأت تكذب

ليسامحها. كان غاضبا جداً منها ومشمئزا من مراسلتها وكل ما أراده هو التخلص منها وقطع كل الاتصالات معها وعدم رؤيتها أو التفكير بها لأنها مجرد فضيحة يجب أن يسدل ستارها وتنسى.

لن تستطيع العودة إلى البيت بعد ما حدث ولن تجرؤ وبعد أن رأت موقف والدها منها تفتحت عيونها على الطيش الذي كانت تفكر فيه. طبعاً هي لا تستطيع الذهاب إلى البيت! التسلل بالعودة إلى الرذيلة وجلب العار لبيت والدها بالذهاب هناك—آه، مستحيل، مستحيل تماما! حتى كيف لها أن تفكر بشيء كهذا؟

لكن ماذا بعد؟ لم يبق شيء سوى الذهاب مباشرة إلى مكان كبير يمكن الاختباء فيه كلندن مثلاً، إلى مكان لا يعرفها فيه أحد ولا مجرد ذكر اسمها أو منظرها اللذان سيجران قافلة من الذكريات القذرة.

عندما وقفت هناك سمعت صوت أجراس قادمة من كنيسة القرية عند انعطاف الطريق حيث كان ضاربوا الأجراس يسلون أنفسهم بدق(ابق معي) كما لو أنك تعزف نغمة بأصبع واحد على البيانو. لكن على الفور(ابق معي) أفسحت المجال لجلجلة صباح الأحد المألوفة. (أوه اترك زوجتي لوحدها! هي ثملة ولا تستطيع الوصول إلى البيت!) - نفس جلجلة أجراس كنيسة اثلستان التي كانت تدق قبل أن تتعطل منذ ثلاث سنوات. غرز الصوت رمح الحنين إلى البيت في قلب دوروثي وأعاد لها نشاطاً مفاجئاً لمزيج من الذكريات – رائحة علبة الصمغ في قاعة الموسيقى عندما كانت تصنع الثياب من أجل المسرحية المدرسية وزقزقة الزازير خارج غرفة نومها التي تقطع عليها صلواتها قبيل العشاء المقدس وصوت السيدة بنثل الحزين الذي يروي بالترتيب آلام ساقيها والقلق من

انهيار برج الأجراس وديون المحلات التجارية والنباتات الضارة في البازلاء وكل تفاصيل الحياة الملحة التي لا تحصى والتي تناوبت بين العمل والصلاة.

الصلاة! سيطرت الفكرة عليها لوقت قصير، ربما دقيقة. الصلاة التي كانت مصدر ومركز كل حياتها في تلك الأيام وملجأها في السراء والضراء. أدركت - أول مرة تخطر ببالها - بأنها لم تؤد أي فرض صلاة منذ أن تركت البيت ولم تتذكرها أيضاً إضافة إلا أنها لم تعد تشعر بأي دافع للقيام بها. بدأت بتلاوة الصلاة آليا لكنها توقفت فوراً، كانت الكلمات جوفاء وعقيمة. الصلاة التي كانت عماد حياتها الأساسي لم يعد لها أي معنى الآن. دونت هذه الحقيقة وهي تمشي ببطء على الطريق، دونتها باختصار وبشكل عرضي كما لو أنها كانت شيئاً عابراً رأته، زهرة في القناة أو عصفور يعبر الطريق، شيء لاحظته ثم أهملته، لم يتوفر لها الوقت لتتأمل معناه وأجبرته أشياء أكثر خطورة وأهمية على الخروج من تفكيرها.

إن الذي يجب أن تفكر به الآن هو المستقبل وبات واضحاً لها ما يجب فعله. بعد أن ينتهي القطاف يجب أن تذهب إلى لندن ويجب أن تكتب لولدها من أجل ثيابها ونقود - لأنه مهما كان غاضباً فهي لم تصدق بأنه سيتركها وحيدة تماماً في هذه المصيبة - ثم تبدأ البحث عن عمل وبسبب جهلها لم يكن لعبارة (البحث عن عمل) المرعبة ذلك الصدى القوي وتعرف نفسها قوية وذات إرادة ووجود أعمال كثيرة يمكنها القيام بها. يمكنها أن تعمل في دار حضانة أو مربية مثلاً، كلا، الأفضل خادمة منزل أو خادمة في فندق. لا توجد أشياء كثيرة

في البيت لا تستطيع القيام بها بطريقة أفضل من أغلب الخدم؛ بالإضافة إلى أنه كلما كان عملها أكثر وضاعة كلما سهل حفظ سر قصتها الماضية.

على أي حال لقد أقفل بيت الوالد بوجهها وهذا مؤكد ويجب أن تعيل نفسها من الآن فصاعدا. بهذا القرار وبفكرة غامضة لمعناه أسرعت الخطى عائدة إلى حقول الحشيشة.

لم يظل الكثير على انتهاء موسم القطاف. سوف ينتهي آل كرينز في أسبوع تقريباً وسيستقلون مع الكوكنيين القطار إلى لندن وسيأخذ الغجر حصنهم ويحزمون بيوتهم المتنقلة ويسيرون شمالا إلى لينكولنشاير للعمل في حقول البطاطا. بالنسبة للكوكنيين فقد امتلأت بطونهم من قطف الحشيشة هذه المرة وهم متشوقون للعودة إلى لندن الغالية والى وولويرثز ومحلات السمك المقلي القريبة والابتعاد عن النوم في القش ولحم الخنزير المقلي في أغطية الصفائح والعيون الدامعة من دخان الحطب. كان القطف إجازة لكنها من النوع الذي تسعد برؤية نهايته. تأتي مهللا ومبتهجا لكنك تغادر إلى البيت مهللا أكثر وتحلف بأنك لن تعود أبداً إلى القطاف مرة أخرى - حتى شهر آب عندها تكون قد نسيت الليالي الباردة والأجر الزهيد والضرر الذي تسببه ليديك ولا تتذكر سوى أوقات العصر الوردية في الشمس وشرب البيرة من الأواني الحجرية حول المخيم المضاء بلهيب النار الأحمر في الليل.

بدأ البرد يزداد في الصباح وكأنها أيام تشرينية وأصبح لون السماء رماديا وتساقطت وريقات الأشجار الأولى وحلقت أسراب

الحسون والزرزور معا استعداداً للشتاء. كتبت دوروثي مرة أخرى لوالدها طلباً للنقود والثياب. لم يترك أي رد على رسائلها كما لم يكتب لها أي شخص آخر. في الحقيقة لا أحد يعرف عنوانها الحالي سوى والدها لكن تأملت أن يكتب لها السيد وربيرتون. لقد بدأت شجاعتها تخونها الآن وخصوصاً في الليل وفي القش البائس وهي تفكر في المستقبل الغامض والخطير. كانت تقطف بنوع من اليأس وبطاقة جنونية، ازداد إدراكها يوماً بعد الآخر بأن كل قبضة قطاف تعني جزء آخر من المال يحول بينها وبين الموت جوعاً. أما شريكها في الصندوق ديفي فقد كان يقطف ضد الوقت مثلها لأنها أخر نقود يكسبها حتى موسم الحصاد القادم واستهدفا رقم خمس شلنات باليوم لكنهما لم يحرزاه في أي يوم.

ديفي عجوز غريب الأطوار ورفيق مسكين مقارنة بنوبي لكنه ليس سيئا. عمل مضيفاً في سفينة ثم عمل على سفينة شحن أمضى فيها سنوات من الوقوف حولته إلى أصم كالعمود لذلك تجد شيء من عمة السيد اف في حديثه. كان فضائحي أيضاً لكنه غير ضار أبدا. يظل ساعات يتغنى بأغنية صغيرة تقول(بعضوي بعضوي) رغم أنه لا يسمع لكن يبدو أن ذلك يسبب له نوع من المتعة. لديه أذنان مشعرتان لم تر دوروثي مثلهما قط وتخرج منهما خصلات شعر مثل صورة مصغرة لشوارب هر. كل سنة يأتي ديفي لقطف الحشيشة في مزرعة كيرنز ليوفر جنيها ثم يمضي أسبوعاً فردوسياً في بيت أجار في نيوينغتون بتز قبل أن يعود إلى الطريق. هذا هو الأسبوع الوحيد في السنة الذي ينام فيه بما يمكن تسميته للباقة سريراً.

انتهى القطاف في ٢٨ أيلول. بقيت عدة حقول دون أن تقطف لأن حشيشتها سيئة وفي اللحظة الأخيرة قررت السيدة كيرنز أن (تدع الريح تطيح بها). أنهت المجموعة ١٩ حقلها الأخير الساعة الثانية بعد الظهر. جمع رئيس العمال الغجري الأعمدة واستعاد الباقات المرمية ونقل الكيال أخر كمية من القطاف. وعندما اختفى علت صيحة مفاجئة (ضعها في الصندوق!) ورأت دوروثي ستة رجال قادمين نحوها يعلو وجوههم تعبير شيطاني. فتشت النسوة وهربن. قبل أن تدرك وتلملم نفسها لتهرب أمسك الرجال بها ووضعوها في صندوق ومرجحوها بقوة من جانب إلى أخر ثم جروها خارج الصندوق وقبلها شاب غجري تفوح منه رائحة البصل. قاومت في البداية لكنها استسلمت بعد إن رأت ذلك يحدث مع كل الأخريات في المجموعة. ظهر أن وضع النساء في الصناديق عادة ثابتة في يوم القطاف الأخير. كانت أعمال كثيرة تنتظرهم في المخيم في ذلك اليوم وليس هناك الوقت لنوم كاف لأي شخص. بعد منتصف الليل بوقت طويل وجدت دوروثي نفسها تتحرك حول نار هائلة تحلق حولها الناس وإحدى يديها مشبوكة بيد صبي جزار حمراء أما يدها الأخرى فتمسك بها امرأة عجوز ثملة في قلنسوة اسكتلندية فرحة بلحن (اولد لانغ سانغ).

في الصباح ذهبوا إلى المزرعة ليسحبوا نقودهم، قبضت دوروثي جنيه وأربع بنسات وكسبت خمس بنسات أخرى جراء تسجيل دفاتر لمن لا يعرفون القراءة أو الكتابة. دفع لها قاطفون من كوكني بنساً واحداً مقابل هذا العمل أما الغجرية فلم تدفع لها سوى التملق. بعدها انطلقت دوروثي مع آل تيرل إلى محطة اكويرث التي تبعد أربعة أميال. حملت السيدة تيرل الطفل أما الأولاد فحملوا أشياء متنوعة ودفعت

دوروثي عربة الأطفال المحملة بكل أواني الطعام وهي عربة لها عجلتين دائريتين واثنتين بيضاويتين.

وصلوا إلى المحطة عند منتصف النهار ولم يصل قطار القاطفين إلا في الساعة الثانية بدلاً من الواحدة كما هو مقرر ولم ينطلق حتى الثالثة والربع. بعد رحلة لا يصدق بطئها وتعرجها في كل أرجاء كنت لالتقاط دزينة من القاطفين هنا ونصف واحدة أخرى هناك والعودة إلى مساره المرة تلو الأخرى وتراجعه إلى السكك الجانبية لإفساح الطريق للقطارات الأخرى. لهذا استغرق ست ساعات لقطع خمسة وثلاثين ميلا ووصلوا إلى لندن بعد الساعة التاسعة بقليل.

٧

أمضت دوروثي الليلة مع آل تيرل. لقد تعلقوا بها كثيراً لذلك سيوفرون لها ملجأ لأسبوع أو حتى لنصف شهر إن رغبت في فرض ضيافتها عليهم. لا يبعد منزلهم المكون من غرفتين عن طريق تاور بريدج كثيراً ولم يتسع إلا بصعوبة لسبعة أشخاص بما فيهم الأطفال لكنهم قدموا لها فراشاً على الأرض مكون من قطعتين من الحصير ووسادة قديمة ومعطف.

ودعتهم في الصباح وشكرتهم لكل ما قدموه لها ثم ذهبت مباشرة إلى حمامات بيرموندسي العامة ونظفت نفسها من القذارة التي تراكمت عليها في الأسابيع الخمسة الماضية، بعد ذلك انطلقت للبحث عن مكان تقيم فيه. كان كل ما تملكه هو ستة عشر وثمان بنسات نقدا وترتدي ثيابا مهلهلة رتقتها ونظفتها بقدر ما استطاعت ولكونها سوداء لم يظهر عليها الوسخ كثيراً كما يفترض وبدت مقبولة من تحت الركبة الآن. في اليوم الأخير من القطاف أعطتها قاطفة محلية من المجموعة المجاورة تدعى كيلفرو حذاءاً جيداً كان لإبنتها وزوجاً من الجوارب الصوفية.

لم تنجح دوروثي في العثور على غرفة حتى المساء. أمضت عشر ساعات وهي تتجول ذهاباً وإياباً من بيرموندسي إلى ساوثورك ومن

ساوثورك إلى لامبث عبر متاهة من الشوارع التي كان يلعب فيها أولاد أنوفهم تسيل بقشور الموز وأوراق الملفوف الفاسدة على حجارة الرصيف. تكررت معها نفس القصة في كل بيت حاولت معه حيث ترفض صاحبة البيت بصراحة أن تدخلها. الواحدة تلو الأخرى، سلسلة من النساء العدوانيات يقفن في مداخل بيوتهن بشكل دفاعي كما لو أنها كانت قاطع طريق أو مفتش حكومي. ينظرن إليها من الأعلى إلى الأسفل ويقلن باختصار(لا نؤجر فتيات عازبات) ويغلقن الباب في وجهها. لم تعرف طبعاً أن مجرد منظرها كان كافياً لإثارة شكوك صاحبة البيت المحترمة وربما يمكنهن تحمل ثيابها المتسخة والبالية لعدم وجود حقائب وأمتعة تصر بها منذ البداية ـ فتاة عازبة بدون أمتعة يعني قدر سيء بالتأكيد وكانت تلك أول وأعظم حكمة لصاحبات البيوت في لندن.

في حوالي الساعة السابعة تماماً لم تعد تقدر على الوقوف فخاطرت بالدخول إلى مقهى صغير، قذر فاسد وقريب من مسرح اولد فيك لتطلب كوباً من الشاي. دخلت المالكة في حديث معها وعلمت أنها بحاجة إلى غرفة فنصحتها بأن تجرب في ماري ويلينغزكورت وماري كما ظهر لا تدقق وتؤجر أي شخص يمكنه الدفع. كان اسمها السيدة سوير لكن الأولاد ينادونها بماري.

وجدت دوروثي ويلينغزكورت بصعوبة. مشت في تقاطع لامبث إلى أن وصلت إلى محل يهودي للثياب يدعى بناطيل نكاوت بعدها لفت في زقاق ضيق وانعطفت إلى اليسار ثانية في زقاق آخر ضيق جداً لدرجة أن جدرانه الجصية القذرة تطليك عندما تمر فيه، وحفر عليها الأولاد المثابرون كلمة ... مرات لا تعد وبشكل لا يمحى. وفي نهاية الطرف

الآخر من الزقاق تجد نفسك في ساحة صغيرة وسط أربعة بيوت عالية وضيقة وأدراج حديدية تقابل بعضها البعض.

سألت دوروثي ووجدت ماري في وكر تحت الأرض بأسفل أحد تلك البيوت. كانت مخلوقاً هرماً بلا لون، شعرها قليل ووجها نحيل وهزيل، كأنه جمجمة مزينة بمساحيق وحمرة، صوتها أجش وسليط وموحش بشكل لا يوصف. لم تسأل دروثي أي سؤال حتى أنها لم تنظر إليها لكنها طلبت عشر شلنات وبعدها قالت بصوتها القبيح:

(تسع وعشرين، الطابق الثالث، اصعدي من الدرج الخلفي)

على ما يبدو أن الدرج الخلفي هو الذي بداخل البيت. صعدت دوروثي الدرج اللولبي المظلم بين الجدران الراشحة ورائحة المعاطف القديمة وماء غسيل الأطباق وفضلات الطعام وعندما وصلت إلى الطابق الثاني سمعت صرخة طويلة من الضحك وخرجت فتاتان فظلتان من إحدى الغرف وحملقتا بها لدقيقة. بدتا صغيرتين وتخفي وجهيهما مساحيق حمراء ووردية وطليت شفتيهما بلون قرمزي فاقع مثل زهر الرمان لكن بانت عيونهما متعبة وكبيرة السن ومرعبة من وراء المسحوق القرنفلي وكريهة لأنها تذكر بقناع الفتيات الذي يخفي وجوه العجائز. رحبت أطولهما بدروثي قائلة:

- مرحبا يا عزيزتي!

- مرحبا

- هل أنت جديدة هنا؟ بأي غرفة ستنزلين ؟

- رقم ٢٩

- يا الله، أليست هي تلك الزنزانة القذرة التي ستضعك فيها! هل أنت خارجة الليلة؟

ـ لا ، لا اعتقد ذلك. أنا متعبة جدا ، قالت دوروثي مندهشة من السؤال بالذات

ـ ظننا غير ذلك، عندما رأيتك غير متزينة. لكن عزيزتي، أنت لست متشردة أليس كذلك؟ ولا تفسدين السفينة من أجل قليل من القطران؟ إن أردت استعارة أحمر شفاه، ما عليك سوى قول ذلك. كلنا صديقات هنا، كما تعرفين.

ـ آوه. . . . لا شكرًا لكن، قالت دوروثي متراجعة للوراء.

ـ أوه، حسنا! اقترب موعد ذهابنا أنا ودوريس. لدينا عمل هام في ساحة ليسيستر.

هنا لكزت الفتاة الأخرى بوركها وضحكتا بطريقة سخيفة غير محتشمة. لكن الفتاة الأطول قالت واثقة:

ـ أليست متعة قذرة أن تمضي ليلة جيدة في سرير وحدك بتلك الطريقة؟ أتمنى لو استطيع ذلك، مستلقية على ظهرك دون أن تدفعك أقدام رجل كبيرة. سيكون الأمر مناسب عندما يمكنك توفير ذلك، إيه؟

ـ نعم، قالت دوروثي التي شعرت بأن هذا الجواب كان متوقعا منها وبفكرة غامضة جداً عما كانت تتحدث عنه الأخرى.

ـ حسنا ، تا تا ، ياعزيزتي! نامي بثبات. وانتبهي من جريمة أو عملية سطو وتحطيم الواجهات٠ ـ فككيها!

وثبت الفتاتان وهما تنزلان الدرج وأطلقتا ضحكة أخرى من ضحكاتهن السخيفة العالية. وجدت دوروثي طريقها إلى الغرفة رقم ٢٩ وعندما فتحت الباب هبت عليها رائحة باردة سيئة. غرفة مربعة صغيرة ومظلمة جدا. كان أثاثها بسيطاً، سرير حديدي ضيق عليه

غطـاء ممـزق ومـلاءات رماديـة في الوسـط وعلـى الجـدار صـندوق قصديري وقارورة ويسكي فارغة تستخدم للماء وصورة لبيبي دانييل بالية مقطوعة من فيلم فن معلقة فوق السرير.

لم تكـن الملاءات قـذرة فقـط بل رطبـة أيضاً. دخلت دوروثـي في السرير لكنها ظلت في قميصها الداخلي أو ما تبقى منه ـ أصبحت ثيابها الداخلية تالفة تماماً في هذا الوقت. لم تتمكن من الإستلقاء بين تلك الملاءات المثيرة للقرف بجسدها العاري. عندما أصبحت في الفراش لم تستطع النوم رغم أنها كانت تتوجع من الإعياء من رأسها حتى قدميها. كانت خائفة وفريسة للهواجس. ذكرها جو هـذا المكان القذر بالبيت أكثر من قبل وبأنها بلا عون أو أصدقاء ولا يفصلها عن حياة الشوارع سوى ستة شلنات وهي كل ما تملك. كلما تقدم الليل ازدادت الضجة أكثر. كانت الجدران رقيقة ويمكن سماع كل ما يحدث وراءها. انفجار ضحكات عالية مجنونة وأصوات غناء ذكرية خشنة وصوت حاكي يتشدق بقصيدة فكاهية وقبلات مسموعة وتأوهات غريبة ضعيفة وجلجلة سرير معدني مرة أو اثنتين. عند منتصف الليل بدأت الأصوات تأخذ شكل إيقاع في عقل دوروثي وخرت نائمة وهي قلقة لكنها استيقظت بعد دقيقة عندما انفتح بابها بقوة واندفع ما يشبه اثنتين مزقتا كل ما يغطيها من قصاصات الثياب ماعدا ملاءات السرير وخرجتا بسرعة. كان هناك نقص مزمن في أغطية الأسرة في نزل ماري والطريقة الوحيدة للحصول عليها سرقة أغطية سرير شخص أخر. لهذا كانت هناك عمليات سطو.

في الصباح وقبل نصف ساعة من وقت الافتتاح ذهبت دوروثي إلى أقرب مكتبة لتنظر في إعلانات الصحف فوجدت هناك عشرين

شخصان يجوسون المكان بمناظرهم البالية والغامضة وانتفخ العدد إلى الضعف ثم الضعفين وأصبح هناك لا يقل عن ستين شخصاً. فتحت في الحال أبواب المكتبة واندفع كل المتسابقين إلى لوح في الطرف الأخر من غرفة القراءة وثبتت عليه إعلانات الوظائف الشاغرة التي قصت من الصحف وجاءت على أثر صيادي الوظائف زمرة بائسة من النساء والرجال بأسمالهم البالية من الذين أمضوا ليلهم في الشوارع للنوم في المكتبة. أتوا متثاقلين الواحد تلو الآخر وارتموا على أقرب طاولة مصدرين نخير من الارتياح وجروا أقرب دورية نحوهم والتي قد تكون فري تشيرتز مسنجر أو فجيتيشن سينتينل. لا يهم ما تكون. لا يمكنك البقاء في المكتبة إلا إذا تظاهرت بالقراءة. فتحوا صحفهم وبنفس اللحظة خروا نياماً وذقونهم تتدلى على صدورهم والمراقب يتمشى حولهم ينخسهم بالدور مثل وقاد يلكز سلسلة من النيران المتتالية؛ ينخرون ويستيقظون عندما يلكزهم ثم يعودون إلى النوم في اللحظة التي يتجاوزهم بها. بعد ذلك دارت معركة حامية حول لوحة الإعلانات فقد كان كل واحد يقاتل ليكون في المقدمة. جاء شابان في ثياب زرق يركضان من الخلف وضع أحدهما رأسه للأسفل وشق طريقه بالقوة عبر الحشد كما لو كانت لعبة ركبي وفي لحظة أصبح عند اللوحة. التفت إلى صاحبه: (ها نحن جو ـ لقد حصلت عليها!) مطلوب ميكانيكيين في مرآب لوك في بلدة كيدمان. (تعال واخرج منها!) شق طريقه إلى الخارج ثانية واتجها إلى الباب بسرعة. ذهبا إلى البلدة بأقصى سرعة تحملهما بها إقدامهما. في تلك اللحظة وفي كل مكتبة عامة في لندن كان الميكانيكيون العاطلون عن العمل ينظرون إلى نفس الإعلان ويتسابقون إلى تلك الوظيفة التي في أفضل

الأحوال تكون قد أعطيت لشخص استطاع شراء جريدة لنفسه ورأى الإعلان منذ الساعة السادسة صباحاً.

نجحت دوروثي في الوصول إلى اللوحة أخيراً وسجلت بعض العناوين التي كانت بحاجة إلى طباخين عمومين. وبعد إفطار مكون من الخبز والسمنة النباتية والشاي كلفها ثلاث بنسات انطلقت للبحث عن عمل بقائمة مؤلفة من عشرين عنوان دون أن تفقد الأمل. كانت تجهل أيضاً بأن فرصها في إيجاد عمل دون مساعدة كانت معدومة عملياً لكن الأيام الأربع التالية نورتها.

خلال تلك الأيام الأربعة تقدمت إلى ثمان عشر وظيفة وأرسلت طلبات توظيف إلى أربعة أخرى. مشت مسافات هائلة في كل ضواحي المدينة الجنوبية: كلابهام وبريكستون ودولويتش وبنجي وسيدنهام وبيكينهام ونوروود حتى أنها وصلت إلى كرويدون في إحدى المرات. دخلت في غرف ضيوف أنيقة في الضاحية وأجرت مقابلات مع نساء من كل النماذج التي يمكن تخيلها بدينات وعريضات ومبطنات ونحيفات ولاذعات وخبيثات ونساء رشيقات باردات بنظارات مذهبة ونساء غامضات متمعجات تظاهرن بأنهن نباتيات أو يحضرن جلسات علاج روحانية. لكن كان ردهن نفسه بالضبط. يتفحصنها ويسمعن كلامها ويحدقن بها باستغراب ويوجهن لها عشرات الأسئلة المحرجة والوقحة وبعد ذلك يرفضنها.

يمكن لأي شخص خبير أن يخبرها النتيجة ففي ظروفها من غير المتوقع أن يجازف أحد ويشغلها. إن ثيابها البالية وعدم وجود تزكية ليسا لصالحها كما أن لهجتها كمتعلمة التي لم تعرف كيف تخفيها قضت على أي فرصة محتملة. لم يلحظ المتشردون والسوقيون من

قاطفي الحشيشة ذلك بعكس ربات المنازل في الضواحي اللواتي لاحظن ذلك بسرعة وأرعبتهن مثلما أرعب مالكات البيوت عدم وجود أمتعة معها. حالما يسمعن كلامها ويحددن أنها سيدة فاضلة تنتهي اللعبة. اعتادت تماماً على النظرة الحائرة القلقة التي تغطي وجوههن حالما تفتح فمها - النظرة الأنثوية الفضولية من وجهها إلى يديها المتضررتين ومنهما إلى رتوق تنورتها. بعض النسوة سألنها ماذا فعلت فتاة من طبقتها لتبحث عن عمل كخادمة. اكتشفن أمرها مما لاشك في ذلك وعرفن أنها كانت (في ورطة) - وأن لها طفل غير شرعي - وبعد إجراء تحقيق معها يتخلصن منها بأسرع ما يمكن.

كتبت دوروثي إلى والدها فور حصولها على عنوان وعندما لم يأتيها رد في اليوم الثالث كتبت مرة أخرى لكن بيأس هذه المرة— كانت رسالتها الخامسة أربع منها بدون رد - أخبرته أنها ستموت من الجوع حتما إذا لم يرسل لها نقودا في الحال. لا يزال هناك وقت قبل أن تكمل أسبوعها في نزل ماري التي سترميها إلى الخارج بعده لعدم قدرتها على دفع الإيجار.

استمر بحثها غير المجدي عن عمل بينما كانت نقودها تتناقص بمعدل شلن في اليوم - مبلغاً يكفيها للبقاء على قيد الحياة لكنه يتركها مصابة بجوع مزمن. وفقدت الأمل تقريباً بمساعدة والدها. ومن الغريب أن ذعرها الأول قد مات وكلما ازداد جوعها وأصبحت فرص حصولها على عمل أبعد منالاً تحول رعبها إلى ضروب من اللامبالاة البائسة. عانت لكنها لم تكن خائفة كثيراً وبدا العالم السفلي الذي كانت تهبط فيه أقل فظاعة كلما اقترب منها أكثر.

كان الطقس الخريفي يزداد برودة رغم جماله وكانت الشمس

تقاتل في كل يوم معركتها الخاسرة ضد الشتاء وتكافح متأخرة عبر الضباب لتصبغ واجهات البيوت بالألوان المائية الباهتة. أمضت دوروثي جل يومها في الشوارع أو في المكتبة العامة ولم تكن تذهب إلى نزل ماري إلا للنوم فقط وتحتاط بجر سريرها لتدعم به الباب. وفهمت هذه المرة أن نزل ماري لم يكن بيت دعارة فعلي ـ لأنه يندر وجود مثل هذا الشيء في لندن ـ لكنه مأوى معروف للعاهرات. لهذا السبب يتوجب دفع عشر شلنات في الأسبوع لوجار لا يستحق خمس شلنات. ماري القديمة ـ لم تكن صاحبة البيت بل مجرد مديرة ـ كانت عاهرة في ذلك الزمن وتشرف عليه. إن العيش في مكان كهذا يسيء إليها حتى في لامبث. احتقرتها النسوة لمجرد المرور بجوارهن وأبدى بها الرجال اهتماما مهينا وكان أسوأهم اليهودي الذي يقف عند الزاوية، صاحب محل بناطيل نكاوت. إنه شاب صلب في حوالي الثلاثين من عمره، خدوده حمراء منتفخة وشعره مجعد اسود مثل استراخان. يقف اثنتا عشر ساعة على الرصيف ويعترض طريق المارة وهو يهدر برئتيه الرنانتين صائحاً: لا يمكنك شراء بنطال أرخص من بناطيله في لندن كلها ويجبرك على التوقف جزء من الثانية ويمسك بذراعك ويرمي بك داخل المحل بالقوة وبمجرد أن يدخلك تصبح لهجته تهديدية فعلياً وإن قلت أي شيء يحط من قدر بناطيله يبدي استعداده للقتال وبسبب الإرهاب البدني يشتري منه ضعاف العقول بنطالاً. رغم إنشغاله لكنه يبقي عينيه مفتوحتين (للطيور) كما يسميهم ومن الواضح أن دوروثي كانت أكثر طير سحره. لقد فهم بأنها ليست عاهرة لكنها تعيش في بيت ماري وهي على وشك أن تكون كذلك كما اعتقد وسال لعابه بسبب الفكرة. عندما يراها قادمة في الزقاق يتسمر كالعمود في

الزاوية مبرزاً صدره الكبير ويرميها بعين سوداء فاسقة كأنها تقول (ألم تستعدي بعد؟) ويقرصها في مؤخرتها عندما تمر.

في الصباح الأخير من أسبوعها في بيت ماري نزلت دوروثي بآخر ومضة أمل إلى سجل الرسائل في الرواق. لم تكن هناك رسائل باسم ايلين ميلبورو. لقد انتهى الأمر لم يبق بوسعها سوى الخروج إلى الشوارع أي الرذيلة. لم يخطر ببالها أن تفعل ما كانت تفعله كل امرأة في بيت ماري—يعني عاهرة علاقة مقابل نقود قليلة ولم تحاول أن تتسول إقامة ليلة أخرى مجانية بل خرجت من البيت ببساطة ولم تجد الشجاعة لتقول لماري أنها مغادرة.

لم تكن لديها أية خطة كانت. وعند الظهر خرجت لتصرف ثلاث بنسات من البنسات الأربعة التي بقيت لديها في شراء خبز وشاي وسمنة وأمضت يومها كله في المكتبة العامة في قراءة الصحف الأسبوعية. في الصباح قرأت باربر ريكورد وبعد الظهر قرأت كيج بيردز وهما الصحيفتان الوحيدتان التي استطاعت الإمساك بهما بسبب عدد المتسكعين الكثير والدائم في المكتبة الذي عليك أن تدفعهم للحصول على صحيفة. قرأتهما من الغلاف إلى الغلاف وحتى الإعلانات. وفكرت ساعات بتقنية شحذ أمواس الحلاقة الفرنسية و: لماذا فرشاة الشعر الكهربائية غير صحية؟ وهل تتغذى الببغاوات على بذور اللفت؟ وشعرت أنها الحرفة الوحيدة التي كانت ندا لها. كانت في حالة سباتية غريبة ومن الأسهل فيها إشغال نفسها في كيفية شحذ أمواس الحلاقة الفرنسية بدلا من التفكير بمصيبتها القاتلة. رحل كل خوفها من المستقبل الذي عجزت تماماً من التفكير به أو حتى بالليلة التي تنتظرها في الشوارع. في غضون ذلك استحوذت أقفاص

الطيور على اهتمامها وسجل باربر للأرقام القياسية التي كانت جذابة بشكل غريب.

في تمام الساعة التاسعة جاء المراقب بعمود طويل معقوف وأطفأ المصابيح لقد أغلقت المكتبة. استدارت دوروثي إلى اليسار إلى طريق ووترلو باتجاه النهر. توقفت لحظة على جسر المشاة الحديدي. كانت الريح الليلية تعصف. أكوام عميقة من الضباب مثل الكثبان كانت ترتفع من النهر وعندما تمسك بها الريح تجري كالدوامة باتجاه الشمال الشرقي عابرة المدينة. غلفت دوروثي دوامة من السديم واخترقت ثيابها الرقيقة وسببت لها رجفة إنذار مفاجئ بالبرد الليلي. واصلت المشي ووصلت بفعل الجاذبية التي تشد كل الناس المشردين إلى نفس البقعة، إلى ساحة ترافلغار سكوير.

الفصل الثالث

١

(المشهد: ساحة ترافلغار. تظهر مجموعة من الناس بشكل خافت من خلال الضباب وسطهم ودوروثي متجمعة حول إحدى المنصات قرب الحاجز الشمالي.)

شارلي [مغنيا]: مرحبا بك يا مريم، مرحبا بك يا مريم

(تدق أجراس بيغبن العاشرة)

سنوتر [مقلدا الضجيج]: دينغ دونغ، دينغ دونغ! ألا تستطيع أن تكتم ضجيجك؟ سنظل سبع ساعات أخرى في هذه الساحة قبل أن نحظى بفرصة توقف وقليل من النوم!

السيد تولبويز [لنفسه]: ليس هناك سيدات فاضلات في مملكة ادوارد لي في أيام طهارتي وقبل أن يحملني الشيطان إلى مكان عالي ويرميني وسط صحف الأحد، يعني عندما كنت قساً في فولي الصغيرة - كوم -ديوزبيري. . .

ديفي (مغنياً): بعضوي بعضوي. . . . . . .

السيدة واين: آه يا عزيزتي، حالماً وقعت عيناي عليك عرفت أنك سيدة بالولادة والمنشأ. أنا وأنت نعرف معنى الانحدار إلى العالم أليس كذلك يا عزيزتي؟ ليس الأمر بالنسبة لنا كما هو لبعض الموجودين هنا.

تشارلي [مغنيا]: مرحبا بك يا مريم مرحبا بك يا مريم يا صاحبة

الرحمة الواسعة!

السيدة بنديغو: يسمى نفسه زوجاً حقيراً أليس كذلك؟ أربع جنيهات في الأسبوع في كوفنت غاردن وزوجته تعد النجوم في الساحة اللعينة! زوج!

السيد تولبويز [لنفسه]: طوبى لتلك الأيام السعيدة! يا كنيستي التي يكسوها اللبلاب ويسترها سفح التل - ويا بيتي القرميدي الأحمر الهاجع وسط أشجار الصنوبر! آه يا مكتبتي ويا دالية كرمي وطباخي وخادمات بيتي وسائسي والجنايني! يا نقودي التي في المصرف واسمي في كروكفورد! يا بزتي السوداء ذات القصة التي تخلو من العيوب وقبتي وردائي الكهنوتي الحريري الجميل في فناء الكنيسة.

السيدة واين: طبعاً الشيء الوحيد الذي أعمله يا عزيزتي هو أنني أحمد الرب لأن أمي المسكينة لم تعش لترى اليوم الذي أصبحت فيه ابنتها البكر المدللة بدون نفقة احتياطية وحليب طازج من ضرع البقرة مباشرة. . .

السيدة بينديغو: يا زوجي!

جنجر: تعالوا دعنا نصنع برميلاً من الشاي بما أن الفرصة متاحة لذلك. سنحصل الليلة، يغلق أخر مقهى في العاشرة وأربع دقائق.

كايك: يا سيدنا المسيح! سيقتلني هذا البرد اللعين! لا ارتدي أي ثياب تحت سروالي. أوه يا يسوع!

تشارلي [مغنياً]: مرحباً يا مريم، مرحباً يا مريم.

سنوتر: أربع بنسات! أربع بنسات حصيلة ست ساعات من التسكع! هناك لوطي متطفل بساق خشبية يفسد لحننا في كل خمارة بين ادلفيت ومايل ايند رود وأوسمته الحربية التي اشتراها من

لامبيث ! ابن الزانية!

ديفي [مغنياً]: بإرادتي، بإرادتي—

السيدة بينديغو: حسناً، على أي حال لقد قلت لإبن الزانية رأي فيه. هل تسمى نفسك رجلا؟ لقد رأيت أشياء مثلك تحفظ في قوارير في المستشفى.

السيد تولبويز [لنفسه]: أيام سعيدة، أيام سعيدة! لحم بقر مشوي وقرويون يرقصون وسلام الرب الذي يفوق كل إدراك! صباحات الأحد وأنا في مقعدي السندياني في الكنيسة ورائحة الورد الهادئة والسترات الكهنوتية الممزوجة بنسيم الجثث! وأماسي الصيف عندما تنحرف الشمس المتأخرة عبر نافذة مكتبي وأنا مستغرق ومخدر بالشاي وبعطر أكاليل التبغ اقلب بأصابع ناعسة صفحات المجلدات الفخمة المغلفه بجلد عجل. أعمال وليام شيكسبير الأدبية ومختارات بيرسي من الشعر الانكليزي القديم وج. ليمبرير أستاذ اللاهوت الفاسق. . . . . .

جنجر: هيا تعالوا إلى هذا البرميل من النشاط؟ لدينا الحليب ولدينا الشاي والسؤال من لديه السكر اللعين؟

دوروثي: هذا البرد، هذا البرد! إنه يخترق العظم مباشرة! بالتأكيد لن يظل هكذا الليل كله، أليس كذلك؟

السيدة بنديغو: أوه، انصرفي!، إني أكره المومسات المتباكيات.

تشارلي: سيكون الجو بارداً جداً بالتأكيد أليس كذلك؟ انظري إلى ضباب النهر القارس الذي يتصاعد إلى الأعلى في عمود هناك ويجمد سنارات الصيد في نيلسون قبل الصباح.

السيدو واين: طبعاً، في ذلك الوقت الذي أتكلم فيه كان لا يزال

لدينا قليل من التبغ والقيام بأشياء حلوة في الزاوية، ستدركين. . . .

كايك: يا يس. . . . وع! عرني ذلك المعطف يا جنجر فانا أتجمد!

سنوتر: . . . . النغل الخائن! قد لا استحق سترته عندما أمسك به!

تشارلي: غنائم حرب أيها الصبي غنائم حرب. الساحة بارة جداً الليلة، شرائح لحم وسرير من الريش غداً. ماذا تتوقع غير ذلك في خميس قارس؟

السيدة بينديفو: ابتعد يا دادي ابتعد! أتعتقد أنني بحاجة لرأسك المقمل فوق كتفي.. أنا امرأة متزوجة؟

السيد تولبويز [لنفسه]: لم يضاهني أحداً في الوعظ والنشيد والترنم. تفريجي عن قلوبكم كان معروفاً في كل الأبرشية الذي اديته بكل الطرق والأساليب: الكنيسة العليا والدنيا والكنيسة الفسيحة وكنيسة الرفض، الغناء الأنغلوكاثوليكي الحلقي من ظهر ذكر انجليكي أو نحيب الكنيسة الدنيا الغدي الذي لا يزال يبقي على نغمات قدماء الكهنة. . .

ديفي [مغنيا]: بعضوي، بعضوي.

جنجر: أبعد يديك عن المعطف اللعين أيها اليهودي القذر لن تحصل على أي قطعة من ثيابي وأنت مصاب بالبلق.

تشارلي [مغنياً]: كما يتلهف القلب بحثاً عن الجداول المنعشة
عندما يتأجج في المطاردة.

السيدة مس ايلاغا [في نومها]: هل أنت عزيزي مايكل؟

السيدة بنديفو: كنت متأكدة بأن النغل الحقير كان يعيش مع زوجة أخرى عندما تزوجني.

السيد تولبويز [من سقف فمه يقدم للجمهور بحكمة القساوسة

متـذكراً]: إن كـان أحـدكم يعـرف عائقـا حقيقيـا يمنـع هـذين الشخصين من الاتحاد معاً في زواج مقدس. . . .

كايك: صديق! صديق قذر! لا يريد أن يعير معطفه القذر!

السيدة واين: حسنا والآن كما ذكرت، يجب أن اعترف بأنني لست من يرفض كوبا من الشاي اللذيذ. اعرف ذلك عندما كانت أمي المسكينة حية كنا نشرب الإبريق تلو الأخر. . . . .

نوزي واتسون [لنفسه، بغضب]: اللوطي! . . . يتدخل فيها ثم يتوسع حوله. . . . دون ان يقوم بالعمل القذر أبدا. . . . لوطي!

ديفي [مغنيا] بعضوي بعضوي—

السيدة مس ايلايفا [شبه نائمة]: عزيزي مايكل. . . لقد كان عاشقاً حقيقياً محباً وصادقاً ولم أنظر إلى أي رجل أخر منذ ذلك المساء الذي قابلته فيه خارج مذبح كرونك حين أعطاني رطلين من النقانق لأنه كان سيتسول عشائه في انترناشنال ستورز. . . . . .

السيدة بنديغو: حسنا، اعتقد بأننا سنحصل على ذلك الشاي اللعين بهذا الوقت غدا.

السيد تولبويز [منشدا باستذكار]: على ضفاف انهار بابل جلسنا وبكينا حين تذكرناك يا صهيون!

دوروثي: أوه، هذا البرد، هذا البرد!

سنوتر: حسنا، لن أظل أحدق بالنجوم في هذا المكان في عيد الميلاد. سأحصل على سريري غدا حتى لو توجب علي نزعه من أحشاءهم.

نوزي واتسون: هل هو مخبر؟ سميث من فرقة الطيران! الاحتمال الأكبر إنه يهوذا الخائن! كل ما يمكنهم فعله هو القبض على

المذنبين العجائز دون أن يوفروا لهم قاضياً وفرصة عادلة.

جنجر: حسناً، لقد توقفت بسبب هذا الهراء. من لديه كتلتي قذارة من أجل الماء؟

السيدة مس ايلايغا [مستيقظة]: آه يا عزيزتي، آه يا عزيزتي! لو أن ظهري لم ينكسر، آه يا مسيحنا المبارك، لو أن هذه المنصة لا تمسك بكليتي! لحلمت بأنني مستلقية في سرير دافئ وينتظرني بجانبه كوب لذيذ من الشاي وقطعيتين من الخبز المحمص المدهون بالسمنة. حسناً، لقد جافتني آخر غفوة نوم إلى أن أصل إلى مكتبة لامبث غداً.

دادي [يخرج رأسه من داخل معطفه مثل سلحفاة داخل قوقعتها]: ماذا قلت أيها الولد؟ ندفع مالاً من أجل ماء! كم صار لك متشرداً أيها الحقير الصغير؟ تسولها يا ولد تسولها! لا تشتر ما يمكن تسوله ولا تتسول ما يمكن سرقته هذا هو مبدأي. خمسون عاماً من التشرد شاباً وشيخاً. [ينسحب إلى داخل معطفه]

السيد تولبويز [منشداً]: كل أعمالك من اجل المولى.

ديفي [مغنيا]: بعضوي بعضوي—

تشارلي: من ألقى القبض عليك يا نوزي؟

كايك: أوه يسوع!

السيدة بينديغو: ارحل، ارحل! يبدو لي أن بعض الناس يعتقدون بأنهم اخذوا صكا بهذا المقعد اللعين.

السيد تولبويز [منشدا]: أوه كل أفعالك للمولى، العنه وحط من قدره!

السيدة مس ايليغا: ما أقوله أننا فقراء الكاثوليك القذرون نحن

المرميون في مقالب النفايات القذرة دائماً.

نوزي واتسون: سميثي. فرقة النجدة ـ اللوطي الطائر! أعطانا مخططات البيت وكل شيء وبعد ذلك كان بانتظارنا مع عربة مليئة بالشرطة التي اعتقلت الكثير منا. كتبتها في بلاك ماريا: المحقق سميث يعرف كيف يسرع قل له انه................ مني

سنوتر: ماذا عن شاي .. نا؟ استمر ايها اليهودي، أنت هوني صغير أغلق ذلك الضجيج وخذ البراميل. لا تدفع شيئاً. انتزعه من المومس العجوز. ابك ومثل دور الحزين.

السيد تولبويز [منشدا]: كل أولادك الرجال يشتموك أيها المولى، اشتموه وحطوا من قدره للأبد

تشارلي: ماذا، هل سميثي خائن أيضا؟

السيدة بينديفو: سأخبركن ماذا يا فتيات، سأخبركن ما الذي أحزنني انه التفكير بزوجي اللعين الذي يشخر الآن تحت أربع بطانيات بينما أتجمد أنا في هذه الساحة اللعينة. هذا ما لا استطيع تحمله. اللوطي الشاذ!

جنجر [منشدا]: إلى هناك ذهبوا . فرحين جداً ـ لا تأخذ ذلك البرميل والنقانق الباردة فيه يا كيكي

نوزي واتسون: خائن؟ خائن؟ إن مفتاح السدادات الفلينية يبدو كالمخرز بجانبه! لا يوجد واحد من أولاد المومسات في زمرة الطيران إلا ويبيع جدته لقصاب بجنيهن ثم يجلس على شاهدة قبرها يأكل شرائح البطاطس. يا جاسوس، يا خرقة الإصبع!

تشارلي: يا له من برد قاس. كم جرما عليك؟

جنجر [مغنيا]: الى هناك ذهبوا ...

فتاة سعيدة .. وصبي سعيد .

نوزي واتسون: أربعة عشر. ليس هناك أي فرصة أمام كل هذا الكم.

السيدة واين: ماذا؟ ألم يحتفظ بك إذا؟

السيدة بينديغو: كلا، أنا إمرأة متزوجة من هذا اللوطي!

تشارلي: لقد أدنت تسع مرات. لقد تعرضت للبرد والرطوبة تسع مرات بنفسي.

السيد تولبويز [منشدا]: العنوا المولى يانانياس وازارياس وميسايل، العنوه وحطوا من قدره للأبد.

جنجر [منشدا]: يذهبان هناك .. فرحين

فتاة سعيدة .. وصبي سعيد ..

لكن أنا هنا أنا أنا أنا ...

محطم الفؤاد!

يا رب، لم ارتكب أي ذنب منذ ثلاثة أيام، منذ متى لم تغسل وجهك يا سنوتر؟

مس ايليفا: آه يا عزيزتي، آه يا عزيزتي! إن لم يأت ذلك الولد بالشاي بسرعة سأجف مثل سمكة رنجة مملحة قذرة.

تشارلي: هل يستطيع أي منكم الغناء؟ ينبغي أن تسمعوني أنا وسنوتر في عيد الميلاد عندما نغرد خارج الخمارات منشدين (وينسيسلاس الملك الطيب) والتراتيل أيضاً ويذرف رجال المشرب الدموع من عيونهم المتعبة ليسمعوننا. هل تتذكر عندما نقرنا مرتين على نفس الباب بالخطأ يا سنوتر؟ ومزقت تلك المومس العجوز الشقراء ثيابنا الداخلية.

السيد تولبويز [يمشي مشية عسكرية وراء طبل وهمي ويغني]:
كل الأشياء لعينة وقذرة
وكل المخلوقات الكبيرة والصغيرة أيضاً
[تدق بيغ بن العاشرة والنصف]

سنوتر [مقلداً الساعة]: دينغ دونغ دينغ دونغ! ست ساعات ونصف منها! يا يسوع!

جنجر: أنا وكيكي صرعنا أربعا منها بالمجاديف في وولزويرث هذا المساء. سأحاول في النوافير إن استطعت تسول قطعة من الصابون.

ديفي: عندما عملت مضيفا في مكتب البحرية كنا نلتقي بالهنود السود لمدة يومين في البحر على قواربهم الطويلة الرفيعة ونمسك بسلاحف بحرية الواحدة منها بحجم طاولة العشاء.

السيدة وايني: هل كنت كاهنا آنذاك يا سيدي؟

السيد تولبويز [متوقفاً]: بعد أوامر ميلشيزيديك. لم يعد هناك مسألة (كنت)، يا سيدتي. بمجرد أن يصبح المرء كاهنا يظل كذلك إلى الأبد ويصبح مشعوذا أيضاً حتى ولو جرد من سلطته أو انهارت صحته أو مزق الأسقف رداءه الاكليركي علنا.

جنجر [مغنيا]: ذهبا هناك فرحين، الشكر للمسيح! لقد جاء كيكي. الآن الاستشارة مجانية.

السيدة بنديغو: ليس قبل أن تكون ضرورية.

تشارلي: كيف طردوك من الخدمة يا رفيق؟ هل السبب هو القصة المألوفة؟ فتيات الجوقة كن في طريق العائلة.

السيدة مس ايلاغا: لقد نلت قسطك من الوقت، أليس كذلك أيها الشاب؟ لكن تعال دعنا نأخذ جرعة منه قبل أن ينخلع لساني عن

فمي اللعين.

السيدة بنديغو: ابتعد يا دادي! أنت تجلس على كيس سكري اللعين.

السيد تولبويز: الفتيات! هذا تعبير ملطف. هن مجرد صيادات بسراويل قطنية قصيرة ملونة يستهدفن الكهنة غير المتزوجين. مزينات مذبح الكنيسة الهرمات وملمعات النحاس العوانس اللواتي يزددن هزالا ويأسا ويتلبسهن العفاريت في سن الخامسة والثلاثين من أعمارهن.

كيكي: لم تعطني العاهرة الهرمة ماءاً حاراً فاضطررت أن أتسول بنساً من شخص في الشارع كي أدفع ثمنها.

سنوتر: .... قصة محتملة! ومحتمل أن يتجرعها بن على الطريق.

دادي [يخرج من نحت معطفه]: برميل شاي، ايه؟ أستطيع أن أجرع برميل من الشاي. [يتجشأ قليلاً]

تشارلي: متى تصبح أثدائهن مثل حد موس الحلاقة ؟ . أنا – أعرف.

نوزي واتسون: شاي – أيتها القطة اللعينة. أفضل لو أنه كان ممزوجاً بالكاكو. عرني فنجانك يا رفيقي

جنجر: انتظر قليلاً حتى أثقب علبة الحليب هذه. أرعبنا شخص ما نقودك أو حياتك.

السيدة بنديغو: على مهلك على هذا السكر اللعين! من دفع ثمنه، يجب أن اعرف؟

السيدة تولبويز: عندما تصبح أثدائهن مثل أمواس الحلاقة العاطلة. أشكرك على هذه الفكاهة. خصصت صحيفة بين

الأسبوعية عمودا لهذه القضية. (القانون الكنسي الضائع في قصة غرام رزوا. عروض حميمة وأيضا في رسالة مفتوحة إلى جون بول: الى الظربان الحقير المتنكر بثياب كاهن. يا للشفقة - - - لقد رشحت لترقية. [إلى دوروثي] مدربون على المشي في العائلة، إن كنت تفهمينني. لم تعتقدي بأن هذا العجز الحقير قد بعج الوسائد المترفة لكرسي الكنيسة في السابق؟

تشارلي: لقد جاءت فلوري. ظننت بأنها ستتأخر عن الشاي لها انف غراب للشاي. تلك الفتاة مثل.

سنوتر: نعم متوفرة للحب دائماً وبأي وقت. [مغنيا]

الحب. . . . أنا شيطان بارع في ذلك—

السيدة مس ايليفا: المسكينة الصغيرة. لا تعي شيئاً لماذا لا تذهب إلى سيرك بيكاديلي حيث يمكنها الحصول على خمس شلنات بشكل نظامي؟ لن تنجح جيدا بالتسول في ساحة مع مجموعة من الأسماك المعمرة.

دوروثي: هل هذا الحليب جيد؟

جنجر: جيد؟ [أطبق فمه على احد الثقوب في العلبة ونفخ فسال بخار رمادي من الطرف الآخر.]

تشارلي: يا للحظ! يا فلوري؟ ما رأيك بذاك المتأنق الذي رأيتك تخرجين معه قبل قليل؟

دوروثي: مكتوب عليه (غير مناسب للأطفال).

السيدة بنديغو: حسنا، أنت لست طفلة لعينة، أليس كذلك؟ يمكنك التخلي عن أساليب قصر بكينغهام هنا يا عزيزتي.

فلوري: قدم لي قهوة وسيجارة أيها النغل الحقير! ذلك الشاي الذي

صنعته يا جنجر؟ كنت دائماً المفضل عندي يا عزيزي.

السيدة واين: هناك ثلاث عشر منا تماما.

السيد تولبويز: بما أننا لن نتناول العشاء فلا حاجة بأن تزعجي نفسك.

جنجر: ماذا - أوه، سيداتي سادتي، الشاي جاهز قدموا كؤوسكم من فضلكم!

كايك: يا يسوع! أنت لم تملأ لي نصف الكوب اللعين!

السيدة مس ايلفا: حسنا، ليحالفنا الحظ كلنا ونوما أفضل غدا. سوف أجد ملجأ في إحدى الكنائس، فقط ال... لن يدعوك تدخلين لأنهم يعتقدون أنك مصابة بالبلق. [تشرب]

السيدة وايني: حسنا، لا استطيع القول بأن هذه هي الطريقة التي اعتدت عليها في شرب الشاي بالضبط - وما أزال - [تشرب]

ديفي: وكان هناك أفواج من الببغاوات الخضر في أشجار جوز الهند أيضاً. [يشرب]

السيد تولبويز: كم جرعة شربت من الدموع الغاوية الراشحة من جوف ضار كقلب الجحيم! [يشرب]

سنوتر: سنظل نشرب حتى الساعة الخامسة صباحا. [يشرب]

[تخرج فلوري سيجارة مكسورة من جوربها تصلحها وتتسول عود ثقاب. يلف الرجال ماعدا دادي وديفي والسيد تولبويز سجائر من أعقاب السجائر التي يلتقطونها. تتوهج الأعقاب الحمراء في الشفق الضبابي مثل مجموعة منحنية من النجوم عندما تمدد المدخنون على المنصة والأرض وعلى الحاجز المنحدر]

السيدة وايني: حسنا، والآن أظن بأن كوبا من الشاي اللذيذ

سيدفئك، أليس كذلك؟ لكن اشعر بأنه مختلف قليلا، كما يمكن أن تقول، بدون غطاء طاولة جميل كما اعتدت، ودائما، طبعا، أفضل شاي يمكن للنقود أن تشتريه - بيكو بوينت حقيقي الباوند منه بثمن كبير.........

جنجر [مغنيا]: إلى هناك يذهبان - في فرحهما -

فتاة سعيدة وصبي محظوظ.

السيد تولبويز [مغنيا بنغمة دتشلاند]: ابق نبات الاسبيد مرفرفا

تشارلي: كم بقيتما يا صغيري في سموك؟

سنوتر: سوف أعطيهما شراب مسكر غدا كي لا يعرفان رأسيهما من عقبيهما. سأحصل على نصف دولار إن قلبت أعلاهم على أسفلهم و.... هزهم).

جنجر: ثلاثة أيام. أتينا من يورك - مشينا نصف الطريق. يا رب، لم تكن قطعة ذهبية من عيار تسع قيراط ذهب أيضا!

فلوري: هل لديك مزيد من الشاي يا عزيزي جنجر؟ حسنا، وداعا يا قوم. أراكم عند ويلكنز غدا صباحا.

السيدة بنديغو: مومس صغيرة وسارقة! بلعت الشاي ثم انصرفت دون أن تقول شكرا. لا تستطيع تضييع دقيقة واحدة.

السيدة ميس ايليفا: برد؟ أي، أصدقك. إن النوم على العشب الطويل بدون دثار ويكاد الندى اللعين أن يغرقنا ولا تستطيع أن تشعل النار في الصباح أيضاً، كما علينا أن نتسول الحليب لنصنع إبريقا من الشاي. لقد نالني نصيبب من هذا عندما كنا أنا ومايكل مشردين.

السيدو بينديغو: هذه البقرة القذرة الصغيرة تذهب حتى مع السود والصينيين أيضاً.

دوروثي: كم تكسب في كل مرة؟

سنوتر: ستة بنسات

دوروثي: نصف شلن؟

تشارلي: أكيد. اقسم بأنها تعملها حتى الصباح من اجل سيجارة.

السيدة ميسليفوت: لم أتقاضى اقل من شلن أبدا.

جنجر: أنا وكيكي نمنا في مقبرة في إحدى الليالي وعندما استيقظنا في الصباح وجدت نفسي مستلقيا على بلاطة قبر قذرة.

كايك: كما أنها ليست مثيرة أيضا

السيدة ميسليفوت: نمنا أنا ومايكل في زريبة خنازير مرة. كنا نتسلل إلى الداخل عندما قال مايكل يا مريم المقدسة يوجد خنزير! قلت هو سيدفئنا على أي حال. لهذا دخلنا وكانت هناك أنثى خنزير هرمة مستلقية على جانبها تشخر مثل محرك جرار. زحفت عليها ووضعت ذراعي حولها ودفأتني طول الليل. لقد نمت في أماكن أسوأ.

ديفي [مغنيا]: بعضوي بعضوي

تشارلي: لا تدع ديفي يستمر، انه يقوم بنوع من الطنين الداخلي، هو يقول؟

دادي: عندما كنت صبيا لم نعش على الخبز والسمنة النباتية والشاي ومثل هذه النفايات. كان طعام تلك الأيام جيدا. يخنة لحم البقر وحلوى سوداء وزلابية لحم الخنزير ورأس الخنزير. نطعم كديوك مقاتلة بستة بنسات في اليوم. أما الآن فقد صار لي خمسين عاما في التشرد وجني البطاطس وقطف البازلاء والعناية بالخراف وتكديس اللفت والنوم في القش الرطب ولم أملأ بطني تماماً ولا مرة. حسنا ... [يعود للاختباء في معطفه]

السيدة مسيليغوت: لكن مايكل كان شجاعا حقا. يدخل في أي مكان. اقتحمنا بيوتا فارغة مرات عديدة ونمنا على أفضل الأسرة وكان يقول لماذا هم لديهم بيوت ونحن لسنا مثلهم.

جنجر [مغنيا]: لكن أنا ارقص – باكيا ...

السيد تولبويز [لنفسه]: اظن بأن قبو مؤونتي ظل فيه إحدى وعشرين قارورة من كلوس سان جاك ١٩١١ في الليلة التي ولد الطفل فيها ورحلت إلى لندن بقطار الحليب!........

السيدة وايني: وبالنسبة للأكاليل التي أرسلناها عندما ماتت أمنا - حسنا، لن تصدق! كانت ضخمة.

السيدة بنديغو: لو عاد لي عمري فلن أتزوج إلا من اجل النقود اللعينة.

جنجر [مغنيا]:

لكنني ارقص – والدموع في عيوني...

لأن الفتاة التي احضنها بين ذراعي ليست أنت تي!

نوزي واتسون: يعتقد الكثير منكم انه عانى الكثير مثلي أليس كذلك؟ ما رأيكم بلوطي مسكين مثلي؟ لم تتجسس عليكم الشرطة وتلقي بكم في السجن عندما كان عمركم ثمانية عشر عاما، هل حدث؟

كايك: اوه يا يسوع!

تشارلي: جنجر، لا يمكنك الاستمرار في الغناء مثل قط ضعيف يعاني من الم في أحشائه. فقط استمع إلي. سأسدي لك معروفا. [مغنيا] يا يسوع، يا حبيب روحي...

السيد تولبويز [لنفسه]: كنت غارق بالسخام. . . . مع الأساقفة

ورؤساء الأساقفة وكل أهل الجنة.....

نوزي واتسون: هل تعرف كيف دخلت إلى السجن لأول مرة. أختي بلغت الشرطة .. نعم أختي اللعينة! إن أختي بقرة لو كانت هناك امرأة كالبقرة. لقد تزوجت من مهووس متدين .. رجل متدين قذر لديها منه خمسة عشر طفلا الآن ـ حسنا، جعلها تتجسس علي. لكني انتقمت منهم، ـ أنا ـ استطيع آن أخبرك. أول شيء فعلته عندما خرجت من السجن، اشتريت مطرقة وذهبت إلى بيت أختي وحطمت البيانو وقلت هذا جزاء تجسسك علي أيتها الفرس الفضولية.

دوروثي: هذا البرد، هذا البرد! لم اعد اشعر إن كانت قدماي في مكانيهما أم لا.

السيدة ميس اليفا: لم يدفئك طويلا الشاي اللعين، أليس كذلك؟ أنا نفسي أتجمد.

السيد تولبويز [لنفسه]: أيامي عندما كنت راعي الأبرشية! أسواق التطريز الخيرية وحفلات الرقص الخيرية على مرج القرية، محاضراتي لاتحاد الأمهات وأعمال الاتحاد التبشيرية في غرب الصين مع أربع عشر شريحة فانوس سحري! أولادي في نادي الكريكت الذين لا يشربون الخمر إلا في دروس تثبيت التعميد ـ محاضرة الطهارة مرة واحدة في الشهر في قاعة الأبرشية ـ لهو صبيان الكشافة! جراء الذئب ستطلق العواء الكبير. التلميحات المنزلية لمجلة الأبرشية، عبوات أقلام الحبر المرمية التي يمكن استخدامها حقنا شرجية للكناري........

تشارلي [مغنيا]: المسيح حبيب روحي...

جنجر: ها قد جاء البدين القذر، قوموا عن الأرض كلكم.

[دادي يخرج من معطفه]

الشـــرطي [يهـــز النـــائمين علـــى المنصـــة التاليـــة]: والآن استيقظوا، استيقظوا، انهض، أنت! يجب أن تذهب إلى البيت إن كنت تريد أن تنام. هذا ليس نزل العوام. انهض أنت هناك! [الخ الخ]

السيدة بينديغو: لن يتركك ذلك اللوطي الصغير الذي يريد ترقية تتنفسين في منطقته.

تشارلي [مغنيا]:

يسوع يا حبيب روحي،

دعني أطير إلى صدرك.

الشرطي: والآن، أنت! ماذا تظن هذا؟ جلسة لصلاة تعميد؟(إلى اليهودي) انهض أنت، أسرع!

تشارلي: لا يمكنني تجنبها يا حضرة الرقيب. إنها طبيعتي الموسيقية. تخرج مني بشكل طبيعي.

الشرطي [يهز السيدة بينديغو]: استيقظي يا أمي، استيقظي!

السيدة بينديغو: أم؟ هل هي أم؟ حسنا لو كنت أما، احمد الرب لأنه ليس لي ابنا قذرا مثلك! وأخبرك سرا صغيرا أخرا، أيها الشرطي. المرة القادمة أريد يد رجل سمينة تداعبان عنقي من الخلف، انا لن اطلب منك لتفعلها. سوف احصل على واحد ذو جاذبية جنسية أكثر منك.

الشرطي: والآن، الآن! لا ضرورة لبذاءتك، أنت تعرفين بأننا ننفذ الأوامر. [يخرج بشكل مهيب]

سنتوتر [بصوت هامس]: . . . لقد انصرف. . . . . ابن ال. . . . . . !

تشارلي [مغنيا]:

حين تموجت المياه المتجمعة،

وحين كانت العاصفة عالية!

غنيت بصوت جهير في جوقة دارتمور في السنتين الأخيرتين.

السيدة بنديغو: سأعتني به كأم قذرة! [تصيح بالشرطي] أنا! لماذا لا تطارد اللصوص القذرين بدلا من المجيء والتجسس على امرأة متزوجة محترمة؟

جنجر: اخمدوا يا رجال. لقد تم صرفه. [دادي يعود للاختباء في معطفه]

نوزي واتسون: هل كانت مثل دارتمور الآن؟ هل كنت تقيم حفلات ؟

السيدة وايني: طبعا، كما ترين لا يستطيعون فعلا أن يسمحوا للناس بالنوم في الشوارع - اقصد، لن يكون ذلك جميلا - وعليك أن تتذكري كما لو انه حافز للناس كي لا يحاولوا الحصول على بيوت خاصة بهم - صنف الرعاع، إن أدركت ما اعنيه. . . . . .

السيد تولبويز [لنفسه]: أيام سعيدة، أيام سعيدة! النزهات مع الفتيات المرشدات في غابة ايبنغ - عربة مستأجرة وخيول غبراء ملساء وأنا على المقصورة في بزتي الرمادية الصوفية الناعمة، وقبعة مرقطة من القش وربطة عتق رجل دين حكيم. الكعك المحلى والشراب الغازي المنشط واستئجار ارض أشجار الدردار الخضراء. عشرون فتاة تقية حتى الآن عرضة للمرح بأثدائهن العالية، وأنا مساعد الخوري السعيد اتريض وسطهن واقرص مؤخراتهن متنقلا من واحدة إلى أخرى. . . . . .

السيدة مس ايلغا: حسنا، أنت تتحدث عن الخمود، لكن بالله يا عزيزي لم يبق الكثير من النوم لعظامي البائسة الليلة. لا استطيع

النوم الآن كما اعتدنا أنا ومايكل آن نفعل.

تشارلي: ليست حفلات. لكن حصلت على شيء ممتاز(شخص ذو شأن مرتين في الأسبوع.

كايك: اه يا يسوع! لم اعد احتمل أكثر من ذلك. أنا ذاهب إلى مخفر الشرطة

[دوروثي تقف لكنها توشك أن تقع لقد تيبست ركبتاها من البرد]

جنجر: لهذا أرسلوك إلى إصلاحية الأحداث. ما رأيك بأن نذهب إلى كوفنت غاردن غدا صباحاً لنتسول بعض الأجاص إن وصلنا في وقت مبكر؟

تشارلي: لقد مللت من دارتمور، صدقيني. كنا أربعون واحدا لقد قاسينا المر بسبب علاقاتنا الجسدية مع النساء في البساتين. كانت قاطفات البطاطس عجائز في السبعين من عمرهن. لم يقبض علينا بسبب عادل ولم نسرق سوى الخبز والماء فقيدونا بالجدار وكادوا يقتلونا.

السيدة بنديغو: لا خوف! وزوجي القذر ليس هناك. تكفيني بقعة سوداء واحدة حول العين في الأسبوع، شكرا لك.

السيد تولبويز [منشدا، متذكرا]: أما قيثارتنا فقد علقناها على أشجار الصفصاف في بابل!

السيدة مس ايلاغا: استمر بقوة يا صغيرتي! اخبط قدميك وأعيدي الدم لهن. سوف آخذك في مشوار إلى بول في دقيقتين.

ديفي: بعضوي بعضوي

[تدق بيغ بن الحادية عشرة]

سنوتر: ست ساعات أخرى! يا للهول!

لتمر ساعة. تتوقف بيغ بن عن الرنين. يقل الضباب ويزداد البرد. يبان وجه القمر الوضيع متسللا وسط غيوم السماء الجنوبية. عشرة رجال كبار متيبسين على المنصات يحتالون للنوم، ينثنون ويختبئون في معاطفهم وأحيانا يئنون في نومهم. بينما انطلق الآخرون في كل الاتجاهات عازمين على قضاء الليل بطوله في المشي ليظل الدم يجري في عروقهم، لكن كل النساء تقريبا أسرعن عائدات إلى الساحة عند منتصف الليل. جاء شرطي جديد ليقوم بواجبه. تمشى في الساحة بفواصل لمدة نصف ساعة متفحصا وجوه النيام وتركهم بحالهم بعدما تأكد بأنهم ليسوا أمواتا.

حول كل منصة تدور زمرة من الناس الذين ينتظرون دورهم في الجلوس لكنهم يعودون للوقوف مرة أخرى بعد بضع دقائق بسبب البرد. ملأ جنجر وشارلي ابريقين من النافورة وشرعا بأمل يائس في غلي شاي على نار بقايا الفحم في شارع كاندوس، لكن الشرطي كان يدفئ نفسه قربها فأمرهم بالابتعاد. اختفى كايك فجأة، ربما ليسأل عن سرير في م. ب. ا. في حوالي الساعة الواحدة سرت إشاعة بأن سيدة توزع القهوة وسندويشات من لحم الخنزير وعلب سجائر تحت تشارينغ كروس بريدج، اندفع الناس إلى البقعة المذكورة، لكن ثبت بأن الإشاعة لا أساس لها من الصحة. بعد امتلاء الساحة مرة أخرى تسارع تبديل الأدوار على المنصات حتى أصبحت مثل لعبة الكراسي الموسيقية. الجلوس واليدين تحت الإبطين ومن الممكن الدخول في حالة من النوم أو غفوة مدتها دقيقتين أو ثلاث لكن تبدو كدهور طويلة إذ يغرق المرء في أحلام معقدة ومزعجة تشعره بالمحيط

من حوله وبالبرد القارص. ازداد برد الليل وانقشاع الضباب دقيقة بعد أخرى. وهناك جوقة من الأصوات المتنوعة - أنات وشتائم وانفجار ضحكات وغناء تخللها كلها صوت اصطكاك الأسنان الخارج عن السيطرة.

السيد تولبويز [منشدا]: إني انهمر كالماء وكل عظامي تفككت!...

السيدة مسيلغوت: انا وهيلين كنا نتسكع حول المدينة في الساعتين الماضيتين. يا الهي انها مثل قبر قذر بمصابيحها الكبيرة المتوهجة ولا توجد حركة لروح واحدة ماعدا بعض المشاة الذين يتسكعون أزواجا.

سنوتر: الساعة الواحدة ...... وخمس دقائق ولم أذق أي لقمة منذ الغداء! بالطبع سيحدث هذا لنا في ليلة كهذه!.

السيد تولبويز: ليلة شرب يجب أن اسميها. لكن لكل شخص ذوقه. [منشدا] (قوتي جفت مثل كسرة إناء خزفي، ولساني التصق بلثتي!...

تشارلي: قل ما شئت. لقد قمنا انا ونوزي بهجوم ساحق قبل قليل. لقد رأى نوزي صندوق عرض لبائع تبغ مملوء بالعلب الفاخرة من غولدن فليك وأقسم بأن يحصل على بعض منها حتى لو وضع على النقالة بسببها! لهذا لف وشاح حوله وانتظرنا حتى مرت عربة لتغطي على الضجة ثم سدد نوزي الضربة! أخذنا دزينة من علب السجائر واراهن بأنك لن تر... ذرة. وعندما اقتربنا وفتحناها لم يكن بداخلها شيء! فقد كانت علب زائفة. أجبرت على الضحك.

دوروثي: تلاشت ركبي. لم اعد استطيع المقاومة.

السيدة بنديغو: أوه، اللوطي، اللوطي! لقد طرد امرأة من البيت في ليلة لعينة كهذه! سأنتظر حتى امسك به ثملا ليلة السبت حين لا يكون بمقدوره الرد وأحطمه وأحوله إلى قصبة ساق عجل قذرة، نعم سوف افعل وسيبدو مثل قطعتين تافهتين بعد أن اضربه بعنف بالمكواة اللعينة.

السيدة مس ايلاغا: هنا، افسحوا مكانا لتجلس الصغيرة التصقي بالعجوز دادي، يا عزيزتي. ضعي ذراعك حوله. انه ثرثار لكنه سيدفئك.

جنجر [علامة زمنية مضاعفة]: اخبطوا أقدامكم بالأرض. الشيء الوحيد الممكن فعله. ابدؤوا بعزف أغنية واخبطوا أقدامكم بالتناسق مع لحنها.

دادي [يستيقظ ويخرج]: ما هذا؟ [لا يزال شبه نائم ويترك رأسه يرتد للوراء، فمه مفتوح وتفاحة ادم ناتئة من رقبته الضعيفة مثل نصل الفأس.]

السيدة بينديغو: توجد نساء لو تحملن كما تحملت لوضعن كحول منشط في هذا الكوب اللعين من الشاي.

السيد تولبويز [يضرب طبلا وهميا ويغني]: تقدموا أيها الجنود الوثنيون..

السيدة وايني: نحن فعلا الآن! لو احد منا فكر، في الأيام الحلوة الماضية عندما كنا نتحلق حول نار فحم سيلكستون وغلاية الشاي على الحاجز الحديدي وطبق الكعك الشهي المسطح الساخن القادم من المخبز مباشرة.......

[تسكتها أسنانها المصطكة]

تشارلي: بدون حيلة من حيل الكنيسة يا رفيقتي. سأعطيك قليل من السخام - شيء يمكننا أن نرقص له. اسمعوني.

السيدة مس ايلاغا: الن تكفي الحديث عن الكعك يا آنسة. بطني اللعينة تلتصق بعمودي الفقري مسبقا.

[تشارلي يرتب نفسه ويتنحنح ويزأر بصوت هائل بأغنية مطلعها (البحار المرح بيل). انفجر الذين على المنصة بضحكات رعدية وغنوا الأغنية مرة أخرى بصوت أعلى وخبطوا بأقدامهم وصفقوا بنفس الوقت. أما الجالسون فقد ضموا كوعا إلى كوع وتمايلوا من طرف إلى آخر بنحو مضحك وحركوا أقدامهم كما لو أنهم يدوسون دواسات الارغن. حتى أن السيدة وايني انضمت إليهم بعد دقيقة بالضحك رغما عنها. كان الكل يضحك بأسنان مصطكة. أما السيد تولبويز فقد مشى مشية عسكرية خلف كرشه الكبير المتدلي متظاهرا بحمل راية أو صولجان أمامه. انجلى الليل عن صباح صاح تماماً واجتاحت الساحة ريح جليدية راعدة متقطعة. ارتفع التخبيط والتصفيق إلى نوع من السعار عندما شعر الناس بذلك البرد القاتل الذي اخترق عظامهم. بعد ذلك شوهد الشرطي وهو يتجول في طرف الساحة الشرقي فتوقف الغناء فجأة.]

تشارلي: هناك، لا يمكنك القول إن بعض الموسيقى قد ادخل الدفء عليك.

السيدة بنديغو: هذه الريح اللعينة! وأنا بدون سروال داخلي، طردني النغل إلى الخارج بسرعة كبيرة.

السيدة مس ايلاغا: حسنا، المجد للمسيح، لم يبق وقت طويل حتى تفتح تلك الكنيسة الكائنة في طريق غري بسبب الشتاء وستوفر

ملجأ لليلة واحدة بأي حال.

الشرطي: والآن، الآن! هل تعتقد أن هذا هو الوقت المناسب من الليل لبدء الغناء مثل دب الحديقة الحقير؟ يجب أن أرسلكم إلى البيت إن لم تلزموا الهدوء.

سنوتر [هامسا]: أنت. . . . ابن. . ال. . . . . !.

جنجر: نعم - يتركوك تنام على الأرض الحجرية القذرة مع ثلاث من ملصقات الجرائد بدلاً من البطانيات. كما يمكن أن تهلك في الساحة أيضاً. يا إلهي، أتمنى لو كنت في المزلقة اللعينة

السيدة مس ايلاغا: هل لا يزال لديك كوب من هورليكس وشريحتين. أكون ممنونة لو تسولت ما يكفي.

السيد تولبويز [منشداً]: كنت مسروراً عندما قالوا لي بأننا سندخل إلى بيت المولى!. . .

دوروثي [بادئة]: آه من هذا البرد، البرد! لا أعرف أيهما أسوأ الجلوس أم الوقوف. اوه، كيف تتحملونه؟ بالتأكيد أنكم لا تعانون منه كل يوم في حياتكم، أليس كذلك؟

السيدة وايني: يجب ألا تفكري يا عزيزتي، إن بعضنا لم يترعرع في جو محترم.

تشارلي [مغنيا]: ابتهج يا مغفل، ستموت قريباً ! بررر يا يسوع الفاني! أليست صنارتي زرقاء [علامة زمنية مضاعفة ويضرب جوانبه بذراعيه]

دوروثي: أوه، لكن كيف تطيقون هذا الليلة تلو الأخرى وسنة إثر السنة؟ من غير الممكن أن يعيش الناس هكذا! هذا يتنافى مع العقل ولا يمكن للمرء تصديقها لو لم يعرف بأنه حقيقة. مستحيل!

سنوتر: ...... ممكن إن سألتني.

السيد تولبويز [يتقدم كمساعد خوري حكيم]: مع الرب كل الأشياء ممكنة.

[تعود دوروتي إلى المنصة ركبتاها ترتجفان]

تشارلي: حسنا، إما أن نظل نتحرك أو نشكل هرما على تلك المنصة لو أردنا ألا نموت. من يذهب بنزهة قصيرة إلى برج لندن؟

السيدة مس ايلاغا: لست أنا التي ستمشي خطوة أخرى الليلة. ساقاي البائستان نفذتا مني.

جنجر: ما رأيكم بهرم! هذه الأيام التسعة مؤلمة جداً بالنسبة لي. لعبة أقل ازدحاما على تلك المنصة – عفوك يا ماما.

دادي [ناعسا]: ما اللعبة؟ألا يستطيع المرء الحصول على قسط من النوم بسبب إزعاجكم وهزكم؟

تشارلي: تلك هي القضية! اندفع للداخل! انقل نفسك يا دادي وأفسح لمقعدي الصغير. تراصفوا فوق بعضكم البعض. تلك الليلة. لا بأس في الثرثرة. تراصوا مع بعضكم البعض مثل أسماك في علبة فاسدة.

السيدة وايني: هنا! لم أطلب منك أن تجلس في حجري أيها الشاب!

جنجر: علي يا سيدي لا يا أمي لا فرق في ذلك. ماذا - أوه! الشيء الوحيد الأول الذي ألف ذراعي حوله منذ عيد الفصح.

[يكومون أنفسهم في كتلة ضخمة عديمة الشكل، رجال ونساء متشابكون بدون تمييز معاً مثل عنقود من الضفادع أثناء موسم التفريخ. وبدأت حركة ملتوية بعد أن استقرت الكومة وفاحت رائحة

ملابس نتنة بغيضة ولم يظل سوى السيد تولبويز يتمشى لوحده.]

السيد تولبويز [ملقيا خطبة]: أيتها الليالي والأيام، أيها الضوء والظلام أيها البرق والغيم العنوا المولى!

[شخص داس على الحجاب الحاجز لديفي فأطلق صوتاً غريباً لا يمكن إعادة إصداره.]

السيدة بنديغو: ألا تستطيع الإبتعاد عن ساقي المريضة ؟ماذا تظنني؟ أريكة غرفة ضيوف؟

تشارلي: لا تدع دادي يطلق رائحة عندما تصعد ثانية.

جنجر: ستكون هذه الكومة القذرة مناسبة للحديث.

دوروثي: أوه، يا رب، يا رب!

السيد تولبويز [متوقفا]: لماذا تنادين الرب، بكاءك بكاء تائب يحتضر؟ تشبثي بأسلحتك واستدع الشيطان كما أفعل أنا. مرحباً بك يا إبليس، يا أمير الأثير! [يغني لحن مقدس، مقدس، مقدس]: الشيطان والشيطانة يركعان أمامك!. . . . . . .

السيدة بنديغو: أوه، اخرس أيها العجوز اللوطي الكافر! هو لا يشعر بالبرد لأنه بدين جداً، هذا عيبه.

تشارلي: حصلت على أريكة مريحة خلفك يا ماما، راقبي المخادع جنجر.

السيد تولبويز: ملسيدايت العمل (الألم) كله ! القداس الأسود! لماذا لا؟ كاهن مرة كاهن للأبد. ناولني قطعة كبيرة من الحشيشة وسأصنع المعجزات. شموع كبريتية وصلاة للمولى بشكل معكوس وصليب مقلوب. [إلى دوروثي] لو كان لدينا تيس أسود لكان مفيداً.

[بفعل الحرارة الحيوانية للأجساد المكومة. خيم النعاس على

الكل.]

السيدة وايني: يجب أن لا تظن بأني معتادة على الجلوس في أحضان الرجال. . . . .

السيدة مس ايلاغا [ناعسة]: لقد واظبت على قرابيني المقدسة بشكل منتظم إلى أن رفض القس اللعين أعطائي الغفران لذهابي مع مايكل. الكل ينال الكل يفوز شجاع.

السيد تولبويز [اخذا موقفا]: لأن الماء المنثور مقدس كالكنيسة لذا يخدمها الصليب

جنجر: من يعطي محتاجا؟ لقد دخنت آخر عقب سيجارة عندي.

السيد تولبويز [كما لو انه في المذبح]: أيها الأخوة الأعزاء اجتمعنا معا تحت نظر الرب للاحتفال في تجديف آثم. لقد ابتلانا بالقذارة والبرد، بالجوع والعزلة، بالسفلس والحكة، بقمل الرأس وقمل السرطان. غذائنا كسر رطبة وقذرة من فضلات اللحم التي تسلم برزم من مداخل الفنادق. متعتنا الشاي المطبوخ ونشارة الكعك الموضوعة في الأقبية النتنة، ورواسب البار وبقايا البيرة وعناق العجائز الهرمة. مصيرنا القبر البائس على عمق عشرين قدماً في أكفان من خشب الشوح، البيت تحت الأرض. واجبنا الإلزامي والصحيح أن نلعنه ونشتمه في كل الأوقات وكل الأماكن. لهذا مع الشياطين وملوك الشياطين [الخ الخ الخ]

السيدة مس ايلغا [ناعسة]: بيسوع المبارك، أنا شبه نائمة الآن، لولا شي متوضع بين ساقي ويسحقهما.

السيد تولبويز: أمين. الشر منا ولد لكن لن يقودنا إغراءه [الخ الخ]

[عندما يصل إلى أول كلمة من الصلاة يمزق الخبز المقدس. يتدفق الدم منه. هناك صوت دحرجة. كصوت الرعد وتتبدل المناظر. قدما دوروثي باردتان جداً. تظهر بشكل غير واضح أشكال ضخمة من الشياطين وملوك الشياطين وهم يتحركون ذهابا وإيابا. شيء ما، أنف معقوف وأصابع تقبض بكتف دوروثي تذكرها بأن قدميها ويديها تتوجع من البرد.]

الشرطي [يهز دوروثي من كتفها]: استيقظي الآن، استيقظي! أليس لديك معطف؟ تبدين بيضاء شاحبة كالموتى. ألا تعرفين بأن لا تتركي نفسك مستلقية في مثل هذا الجو البارد؟

[تكتشف دوروثي أنها متخشبة من البرد. كانت السماء صاحية تماماً الآن مع نجمات قليلة بعيدة تتلألأ فيها مثل مصابيح كهربائية. تفككت الكومة بنفسها.

السيدة مس ايلاغا: لم تتعود الصغيرة المسكينة على الطريقة التي نعيش بها.

جنجر [يضرب ذراعيه]: بررلووو! زهرة في مزبلة!

السيدة واين: إنها سيدة بالمولد والمنشأ.

الشرطي: هل الأمر كذلك؟ أظن يا آنسة أنك يجب أن تأتي معي إلى مخفر الشرطة سوف يوفرون لك سريرا مناسبا. يستطيع أي شخص أن يرى من الوهلة الأولى انك من مستوى يفوق الآخرين هنا.

السيدة بنديغو: شكرا لك أيها الشرطي شكرا! اسمعوا انه يقول بأن تلك الفتاة من مستوى يفوقنا؟ جميل أليس كذلك؟ [الى الشرطي] اسكوتي قذر تتباهى بنفسك، أليس كذلك؟

دوروثي: لا، لا! اتركني، أفضل البقاء هنا.

الشـرطي: حسـنا كمـا تشـائين. إن وضـعك يبـدو سـيئا جـداً الآن. سأعود فيما بعد لألقي نظرة عليك. [يبتعد مترددا]

تشـارلي: انتظـروا حتـى يبتعـد قلـيلاً ثـم تكومـوا فـوق بعضـكم البعض هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستدفئنا.

السيدة مس ايلاغا: تعالي يا صغيرة. كوني تحتي ودعيني أدفئك.

سـنوتر: السـاعة الثانيـة إلا عشـر دقـائق. لا يمكـن أن تسـتمر إلى الأبد كما اعتقد.

السيد تولبويز [منشدا]: أنا أرشح كالماء وعظامي كلها انخلعت من مفاصلها وقلبي الذي في وسط جسدي أصبح مثل الشمع المنصهر!.

...

[مرة أخرى تكدس الناس فوق بعضهم البعض على المنصة لكـن درجـات الحـرارة الآن لا تتجـاوز درجـة التجمـد بكـثير وعصفت الـريح ببرد اشـد. كـان النـاس يشـقون طريقـا لوجـوههم داخـل الكـومـة مثـل خنازير تتصارع على حلمات أمهاتها. فواصل من النوم تتقلص إلى بضـع ثواني تزداد فيها أحلام المرء إزعاجا ورهـابا لـكنهـا لا تشبه الأحـلام. توجـد أوقـات عنـدما يـتكلم تسـعة أشـخاص بشـكل عـادي تقريبـاً، أوقـات عنـدما يضـحـكون مـن وضـعهم، وأوقـات عنـدما يضـغطون أنفسهم بنوع من السعار بتأوهات عميقة من الألم. أنهك السيد تولبـويز فجأة وانحط حوراه الذاتي الى سيل من الهراء وألقى بمؤخرته الكبيرة فـوق الآخـرين وكـاد أن يخـنقهم. تـدحرجت الـكومـة وتفـككـت إلى أجـزاء. بعضـهم بقـي علـى المنصـة وبعضـهم الأخـر انزلـق علـى الأرض واصـطدموا بحـاجز الشـرفة أو بركـب الآخـرين. أمـرهم الشـرطي بالوقوف على أقدامهم فنهضوا لـكنهم انهاروا ثانية لحظة ذهابه. ليس

هنـاك أي صـوت للأشـخاص العشـرة سـوى الشـخير الممـزوج بـالأنين. رؤوسـهم تتـوس مثـل رؤوس هـؤلاء الصـينيين المترابطـين علـى الخـزف الـذين ينـامون ويسـتيقظون بـالتواتر مـع دقـات السـاعة. دقـت السـاعة الثالثـة في كـل مكـان. صـرخ صـوت كـالبوق مـن الطـرف الشـرقي للساحة: انهضوا يا فتيان! لقد وصلت الجرائد.]

تشارلي [جافلا من نومه]: الجرائد اللعينة! عجل يا جنجر! اركض كجهنم!

[يركضان إلى زاوية الساحة بأسرع ما استطاعا حيث كان ثلاثة من الشبان يوزعون ملصقات زائدة تحسنت بها الجرائد الصباحية. عاد تشارلي وجنجر بلفة سميكة من الملصقات. ضغط الرجال الخمسة الأكثر بدانة أنفسهم معاً على المنصة ووضعوا في أحضانهم ديفي والنسوة الأربعة. بعد ذلك وبصعوبة متناهية لفوا أنفسهم في شرنقة ضخمة من الورق بسماكة عدة صفحات. ثبتوا الأطراف المرنة في رقابهم وصدورهم أو بين الأكتاف أو بمسند المنصة وأخيراً لم يظل مكشوفاً سوى رؤوسهم وأقدامهم. صمموا لرؤوسهم قبعات ورقية لكنها كانت ترتخي دائماً لتدخل منها رماح الريح الباردة وهكذا أصبح الآن النوم ممكنا لخمسة دقائق متتالية. في هذا الوقت - بين الثالثة والخامسة صباحا - اعتادت الشرطة أن لا تزعج النيام في الساحة. تسلل مقدار من الحرارة إلى كل واحد منهم وامتدت إلى أقدامهم أيضاً وكان هناك بعض الملاطفة للنساء تحت الغطاء الورقي لكن دوروثي بقيت بعيدة جداً عن العناية.

في الرابعة إلا ربع تجعد كل الورق وتمزق وأصبح البرد لا يحتمل في حالة الجلوس. نهض الناس وشتموا ووجدوا بعض الراحة في

أقدامهم فبدؤوا يمشون بشكل أخرق هنا وهناك أزواجا لكنهم كانوا يتوقفون كثيرا من التعب وتلوت بطونهم من الجوع الآن. فتحت علبة الحليب المركز التي تخص جنجر والتهمت محتوياتها، كان كل واحد منهم يغمس أصابعه فيها ويلعقها. إن الأشخاص الذين لا يملكون أي نقود يذهبون إلى ساحة غرين بارك حيث يظلون هناك دون إزعاج حتى السابعة أما الذين في حوزتهم ولو نصف بنس فيذهبون إلى مقهى ويلكنز غير البعيد عن تشارينغ كروس رود ومعروف للجميع بأن المقهى لا يفتح أبوابه قبل الخامسة ومع ذلك ينتظر خارجه حشد من الناس منذ الساعة الخامسة إلا ثلث.]

السيدة مس ايلاغا: هل لديك نصف بنس يا عزيزتي؟ لن يسمحوا بدخول أربعة منا من أجل كوب من الشاي، تلك الذرية القذرة!

السيد تولبويز [مغنيا]: ألوان الفجر الوردية...

جنجر: يا الله، ذلك النوم القليل تحت الجرائد أفادني كثيرا. [مغنيا]: لكنني أرقص والدموع في عيني...

تشارلي: أوه، يا أولاد، يا أولاد! انظروا إلى الحرارة إنها تتبخر من ألواح النافذة! انظروا إلى دنان الشاي التي تغلي وأكداس الخبز المحمص وصندويشات لحم الخنزير والنقانق الساخنة في المقلاة. ألا يجعل ذلك بطونكم تتشقلب لرؤيتها؟

دوروثي: لدي بنس. هل استطيع الحصول على كوب من الشاي مقابل ذلك؟

سنوتر:... كثير من النقانق سنحصل عليها بأربع بنسات بيننا. نصف كوب من الشاي و.. كعكة محلاة. يوجد فطور لنا!

السيدة مس ايلاغا: ليس من الضروري أن تشتروا كوب من الشاي

لكل واحد منكم. لدي نصف بنس وأيضا دادي، سنضيفها إلى بنسك وسنحصل على كوب نقتسمه الثلاثة. لديه تقرحات على شفتيه لكن لتذهب إلى الجحيم من يهتم؟ اشربي من قرب المقبض ولن تتضرري.

[تدق الساعة الخامسة إلا الربع]

السيدة بينديغو: أراهن بدولار بأن رجلي العجوز يتناول الآن قطعة من السمك على إفطاره. أتمنى لو يغص بها.

جنجر [مغنيا]: لكنني ارقص والدموع في عيني...

السيدة مس ايلغا: لقد حصلت على مأوى في هذا المكان، ذلك المكان مريح. يسمحون لك بالنوم ورأسك على الطاولة حتى الساعة السابعة. إنه هبة من الله.

تشارلي [يسيل لعابه ككلب]: نقانق! نقانق لعينة! أرنب من ويلز! شواء يقطر من الحرارة! شريحة كفل بسماكة بوصتين مع رقائق البطاطس وبنت من اولد بيرتون! يا يسوع الفاني!

[ارتد إلى الأمام وشق طريقه عبر الحشد وهز مقبض الباب الزجاجي. اندفعت مجموعة الناس تقدر بحوالي أربعين شخصا كموجة قوية للأمام وحاولت أن تقتحم الباب الذي أمسك به السيد ويكينز، صاحب القهوة بقوة من الداخل الذي كان يهددهم من وراء الزجاج. ضغطوا وجوههم وصدورهم على النوافذ كما لو أنهم يدفئونها. مع الهتاف وقوة الاندفاع اندفعت فلوري وأربع فتيات نشيطات نسبيا، لأنهن قضين قسما من الليلة في أسرة، من زقاق مجاور وبصحبتهن عصبة من الشبان في بزات زرق. قذفوا بأنفسهم في مؤخرة المجموعة بزخم كبير لدرجة أوشك فيها الباب أن ينخلع ففتحه السيد ويلكنز غاضبا ودفع من هم في المقدمة للخلف. تدفقت هبة من دخان

النقانق والسمك والقهوة والخبز الحار من الداخل إلى الخارج البارد.]

تعالت أصوات الشبان من الخلف: لماذا لا يستطيع أن يفتح قبل الخامسة؟ نحن نتضور لشرب.. شاينا... اقتحموا ال.. باب! [الخ، الخ]

السيد ويلكنز: اخرجوا! اخرجوا كلكم! أو بالله لن يدخل أيا منكم هذا الصباح!

صوت فتيات في المؤخرة: سي.. د ويل.. كنز! سي.. د ويل... كنز! لتكن روحك رياضية ودعنا ندخل وسنعطيك قبلة مجانية! [الخ، الخ]

السيد ويلكنز: اخرجوا كلكم لن نفتح قبل الخامسة وتعرفون ذلك. [يغلق الباب بعنف]

السيدة ميسليغوت: أوه يا يسوع المبارك، إنها أطول عشر دقائق في كل الليلة اللعينة! حسنا، سأريح رجلاي البائستان على أي حال. [تقرفص على كعبيها على طريقة عمال المناجم ويقوم آخرون كثيرون بالشيء نفسه.]

جنجر: من لديه نصف بنس؟ أنا مستعد لاقتسام كعكة محلاة معه مناصفة.

أصوات شبان [تقلد موسيقا عسكرية ثم تغني]

... ! كانت كل الفرقة تستطيع عزفه

... !.. ولك نفس الشيء!

دوروثي [إلى السيدة ماك ايليغوت]: انظري إلينا كلنا! إلى ثيابنا! إلى وجوهنا!

السيدة بينديغو: أنت لست غريتا غاربو إذا لم تمانعي من ذكرها.

السيدة وايني: حسناً، الآن، ألا يبدو بأن الوقت يمر ببطء عندما تنتظر كوبا من الشاي اللذيذ؟

السيد تولبويز [منشداً]: لأن أرواحنا جلبت رخيصة وسويت بالتراب: أحشائنا انفلقت على الأرض!

تشارلي: السمك المملح! أكداس منه! استطيع أن أشم رائحته من وراء الزجاج اللعين.

جنجر [مغنياً]:

لكنني أر.. قص والدموع. في عيوني.

لأن الفتاة.. التي بين ذراعي.. ليست أنت!

[مر وقت كثير. خمس دقات بدن كأنها دهور لا تطاق وبعدها انفتح الباب فجأة وانتشر الناس مذعورين وتصارعوا من أجل مقاعد الزاوية. أغمي عليهم تقريبا من الهواء الحار فرموا بأنفسهم وتمددوا على الطاولات وهم يشربون في الحرارة وتخللت رائحة الطعام كل مساماتهم.]

السيد ويلكينز: الآن كلكم يعرف القوانين على ما اعتقد. لا مجال للحيل هذا الصباح! ناموا حتى السابعة إن شئتم لكن لو رأيت أي رجل نائم بعد ذلك سيخرج على رقبته. انشغلن بالشاي يا فتيات!

صيحات جماعية صامة للأذان: مقعدين هنا! كوب شاي كبير وكعكة محلاة بيننا الأربعة! سمك مملح! سيد ويلكنز! بكم النقانق؟ شريحتين! سيد ويلكنز هل لديك أي ورق سجائر؟ سمك! [الخ، الخ]

السيد ويلكنز: اخرسوا! اخرسوا! أوقفوا هذا الصياح أو لن احضر لكم أي طلب.

السيدة مس ايلاغا: هل تشعرين بعودة جريان الدم إلى أصابع قدميك يا عزيزتي؟

السيدة وايني: لقد تفوه بكلام قاس عنك، أليس كذلك؟ انه رجل غير محترم.

سنوتر: هذا هو ... ركن المجاعة، هذا هو يا يسوع. لو استطيع تناول زوجا من النقانق!

المومسات [مع بعض]: سمك هنا! اعجل بالسمك! يا سيد ويلكنز، سمك للجميع وكعكة محلاة!

تشارلي: ليس النصف! يجب أن أملأ رئتي برائحته هذا الصباح. أن اقترابي من هذا المكان او الساحة المميتة سيان بالنسبة لي.

جنجر: هي ديفي! هل شربت نصفك! أعطني الكوب القذر.

السيد تولبويز [منشدا]: بعدها امتلأ فمنا بالضحك، ولساننا بالبهجة!..

السيدة مس ايلاغا: لقد كنت شبه نائمة قبل قليل. انه فعل حرارة الغرفة.

السيد ويلكنز: أوقفوا هذا الغناء هناك! تعرفون القوانين.

المومسات [مع بعضهن البعض]: سم.......... ك!

سنوتر: ... الكعك والطعام البارد يسببان المرض لبطني.

دادي: حتى الشاي الذي يقدمونه ليس أكثر من مجرد ماء عليه قليل من السكر. [يتجشأ]

تشارلي: أفضل شيء هو اخذ غفوة من النوم ونسيان كل شيء. احلم بتقطيع اللحم والخضار. دعنا نضع رؤوسنا على الطاولة ونرتاح.

السيدة مس ايلاغا: استندي على كتفي يا عزيزتي. على عظمي

لحم أكثر مما عليك.

جنجر: لو كان لدي ستة بنسات لأعطيتها مقابل سيجارة.

تشارلي: توقف! ضع رأسك مقابل رأسي يا سنوتر. ذلك صحيح. ألن أنام!

[يحمل طبق من السمك إلى طاولة المومسات]

سنوتر [ناعسا]: المزيد ... من السمك. أتساءل كم مرة اضطجعت على ظهرها لتدفع مقابل كل ذلك السمك.

السيدة مس ايلاغا [شبه نائمة]: يا للشفقة كانت كارثة عندما انصرف مايكل بمدواره وتركني مع الطفل القذر وكل......

السيدة بينديغو [بغضب، تتابع طبق السمك بأصابع الاتهام]: انظري إلى تلك الفتيات! انظري إلى تلك الأسماك المملحة ! ألا يسبب لك ذلك بعض الغضب اللعين؟ نحن لم نحصل على سمك من أجل الفطور، أليس كذلك يا صبايا؟ المومسات القذرات يبتلعن السمك بشكل أسرع مما يخرج من المقلاة بينما نحن الأربعة بكوب من الشاي ونشعر بأننا محظوظات لأننا حصلنا عليه!

السيد تولبويز [يتقدم للجمهور كمساعد رجل حكيم]: السمك جزاء الخطيئة.

جنجر: لا تتنفس بوجهي يا ديفي. لا استطيع تحمل ذلك.

تشارلي [في نومه]: تشارلز - ويسدوم - ثمل - و- عاجز - سكير؟ - نعم – ست – شلنات – تحرك – التالي !

دوروثي [على صدر السيدة مس ايلغا]: أوه، متعة، متعة!

[الجميع نيام]

٢

سارت الأمور على هذه الشاكلة.

استطاعت دوروثي تحمل هذه الحياة عشرة أيام وللدقة تسعة نهارات وعشر ليال. كان من الصعب رؤية ماذا يمكنها أن تفعل غير ذلك. يبدو أن والدها قد تخلى عنها تماما. رغم وجود أصدقاء لها في لندن مستعدين لمساعدتها إلا أنها لم تشعر بأنها تستطيع مواجهتهم بعد كل ما حدث أو ما يفترض بأنه قد حدث ولم تتجرأ على التقدم بطلب إلى إحدى الجمعيات الخيرية لأن ذلك سيؤدي بالتأكيد إلى كشف اسمها ومن ثم إلى ضجة جديدة حول (ابنة القس).

لهذا بقيت في لندن وأصبحت واحدة من تلك القبيلة الغريبة والقليلة التي لم تنقرض تماماً - مجموعة من النسوة المفلسات والمشردات اللواتي يقمن بجهود يائسة لإخفاء وضعهن وينجحن تقريبا في ذلك، النساء اللواتي يغسلن وجوههن في ماء النوافير في برد الفجر ويسوين ثيابهن المجعدة بحرص بعد ليلة لم يذقن طعم النوم فيها ويعززن أنفسهن بهيئة المحافظة والحشمة لكن وجوههن الشاحبة الملوحة بالشمس تفضح عوزهن الشديد. لم يكن من طبيعة دوروثي أن تكون متسولة متمرسة كغيرها من الناس المحيطين بها. أمضت ساعاتها الأربع والعشرين الأولى في الساحة دون طعام سوى كوب من الشاي تناولته في الليل وثلاثة أرباع الكوب في مقهى ويلكنز في

الصباح. لكن في المساء أصبح وضعها بائسا من الجوع وعبرة للآخرين، مشت نحو امرأة غريبة وبذلت جهودا للسيطرة على صوتها وقالت: أرجوك يا سيدتي هل يمكنك أن تعطيني بنسين؟ لم أذق طعم الزاد منذ الأمس. حدقت المرأة بها وفتحت محفظة نقودها وأعطتها ثلاث بنسات. لم تعرف دوروثي بأن لهجتها المثقفة التي حالت بينها وبين العمل كخادمة كانت رصيدا نفيسا لها كمتسولة.

بعد ذلك وجدت بأن تسول الشلن اللازم الذي يبقيها على قيد الحياة يومياً عملية سهلة جداً ومع ذلك لم تتسول أبداً. وبدا لها أنها لا تستطيع فعل ذلك فعلا إلا عندما يتجاوز جوعها حدود التحمل أو عندما يجب عليها أن تستلقي بقيمة البنس الثمين الذي كان جواز مرورها إلى مقهى ويلكنز في الصباح. لقد تسولت في الطريق إلى حقول حشيشة الدينار برفقة نوبي دون خوف أو تردد لكن الأمر آنذاك كان مختلفا فقد كانت لا تعرف ما تفعله أما الآن فهي تتسول قليل من البنسات تحت مهماز الجوع الفعلي الذي يمدها بالشجاعة المطلوبة من إحدى النساء اللواتي تبدو عليهن علامات المودة وكانت تطلب دائماً من نساء طبعاً. حاولت مرة واحدة فقط أن تطلب من رجل.

أما بقية الآخرين فقد اعتادوا أكثر على الحياة التي كانوا يعيشونها - اعتادوا على الليالي الطويلة التي لا مكان للنوم فيها وعلى البرد والقذارة والضجر ومشاعة الساحة المرعبة. توقفت بعد يوم أو اثنين عن الشعور بالاندهاش من وضعها. لقد وصلت مثل كل المحيطين بها إلى القبول بهذا الوجود البهيمي الذي بدا عاديا تقريبا وعاد إليها الشعور بالدوخة والبلاهة الذي عرفته في طريقها إلى حقول الحشيشة لكنه كان هذه المرة أقوى من قبل. انه الأثر العام لحالة

عدم النوم والتعرض للعوامل الجوية فالعيش المستمر في الجو المفتوح وعدم الاحتماء بظل سقف أكثر من ساعة أو اثنتين يغشي الإدراك والإحساس مثل ضوء قوي يبهر العين أو ضجيج يصم الأذن. إن المرء يعمل ويخطط ويعاني ولكن بنقص في التركيز والواقعية وتزداد عتمة العالم الخارجي والداخلي حتى تصل إلى حد غموض الأحلام تقريبا.

في الوقت الراهن، كانت الشرطة تسعى إلى معرفتها بالمراقبة. في الساحة يأتي الناس ويروحون باستمرار دون أن يلاحظهم احد تقريبا. يأتون من اللامكان بطبولهم وصررهم، يخيمون بضعة أيام وليالي ثم يختفون بشكل غامض مثلما جاءوا. لكن لو بقي المرء أكثر من أسبوع أو في حدود ذلك يدونه رجال الشرطة كمتسول عادي ويقبضون عليه أجلا أم عاجلا. من المستحيل أن يفرضوا قوانين التسول على الجميع بشكل نظامي لكنهم يقومون بين الفينة والأخرى بغارات مفاجئة ويعتقلون شخصين أو ثلاثة من الذين قاموا بمراقبتهم وهذا ما حدث في قضية دوروثي.

في إحدى الليالي قبض عليها بينما كانت بصحبة السيدة مس ايليغا وامرأة أخرى لا تعرف اسمها. كن يتسولن دون مبالاة من امرأة عجوز مثيرة للاشمئزاز لها وجه حصان التي مشت فورا نحو اقرب شرطي وسلمتهن له.

دوروثي لم تهتم كثيرا. كان كل شيء كالحلم الآن - وجه السيدة العجوز القذرة التي اتهمتهن بتلهف والمشي إلى مخفر الشرطة مع شرطي شاب لطيف كان يضع يده المؤدبة على ذراعها ثم الزنزانة القرميدية البيضاء ويد الرقيب الأبوية التي ناولتها كوباً من الشاي من خلال الشبك الحديدي وأخبرها بأن القاضي لن يقسو عليها إن اعترفت

بجرمها والتمست العفو. أما السيدة مس ايليفا فقد كانت في الزنزانة المجاورة وأمطرت الرقيب بالسباب ودعته بالذرية القذرة ثم أمضت نصف الليلة في ندب حظها. لم تشعر دوروثي بشيء سوى ارتياح غامض لكونها في مكان نظيف ودافئ. زحفت مباشرة إلى السرير الخشبي المثبت بالجدار كالرف، عاجزة حتى عن جر الأغطية فوقها، ونامت عشر ساعات دون حركة ولم تدرك حقيقة وضعها إلا في صباح اليوم التالي عندما تدحرجت بلاك ماريا برشاقة إلى محكمة الشرطة القديمة وعلى نغمة صياح خمسة من الثملين في الداخل.

الفصل الرابع

١

أخطأت دوروثي بحق والدها عندما ظنت أنه يريدها أن تموت جوعاً في الشوارع لأنه في الواقع قام بعدة محاولات للاتصال بها لكنها لم تكن مباشرة أو مفيدة جداً.

كان إحساسه الأول بعد اختفاء دوروثي مجرد غضب شديد. في حوالي الثامنة صباحاً، عندما بدأ يتساءل عما حدث للماء الذي سيحلق ذقنه فيه دخلت ايلين غرفة نومه وأعلنت بنغمة مسعورة:

- أرجوك يا سيدي، الآنسة دوروثي ليست في البيت. لم أجدها في أي مكان.

- ماذا؟ قال القس.

- ليست في البيت يا سيدي! ويبدو أنها لم تنم في فراشها. في اعتقادي أنها رحلت

- رحلت! ماذا تقصدين ب رحلت؟ صرخ القس ونهض في السرير.

- حسنا، يا سيدي، أعتقد أنها هربت من البيت!

- هربت من البيت! في هذه الساعة من الصباح؟ وماذا عن فطوري والصلاة؟

نزل القس في الموعد المحدد إلى الطابق السفلي دون أن يحلق ودون ماء ساخن - ايلين ذهبت إلى البلدة لتسأل عن دوروثي لكن دون جدوى ومرت ساعة دون أن تعود. عندها حدث شيء مخيف غير مسبوق ولا

يمكن نسيانه، اضطر القس أن يعد الإفطار لنفسه – نعم عملياً يعني التورط بمقلاة سوداء مبتذلة وشرائح من لحم الخنزير الدنمركي الرقيقة - بيديه الكهنوتيتين.

بعد ذلك قسا قلبه طبعاً ضد دوروثي للأبد. انشغل كثيرا فيما تبقى من اليوم بالوجبات غير المؤقتة بدقة لذا لم يتسن له المجال ليسأل نفسه لماذا اختفت وهل أصابها أي أذى. النقطة أن البنت اللعينة (كرر لعينة مرات كثيرة وأوشك على قول كلمات أقوى) قد اختفت وأزعجت البيت كله بفعلتها هذه. لكن في اليوم التالي أصبحت القضية أكثر إلحاحا لان السيدة سيمبريل نشرت قصة الفرار بالطول والعرض طبعاً أنكر القس ذلك بشدة لكن ساوره شك خفي في قلبه بأنها قد تكون صحيحة وقرر أن دوروثي قد تفعل ذلك. إن الفتاة التي تغادر البيت فجأة دون التفكير بفطور والدها قادرة على فعل أي شيء.

بعد يومين تلقفت الصحف الخبر وجاء مراسل فضولي صغير إلى نايبي هيل وبدأ بطرح أسئلته. زاد القس الطين بلة عندما رفض غاضبا مقابلة المراسل لهذا كانت رواية السيدة سيمبريل هي الوحيدة للنشر. استمرت القصة في الصحف حوالي أسبوع ثم ملت من قضية دوروثي وأسقطتها لصالح مشاهدة نوع من الزواحف المنقرضة في مصب نهر التيمز ونعم القس بسمعة سيئة جراء ذلك ولم يفتح أي جريدة دون أن يرى عنوانا براقا عن (ابنة القس) و(أسرار أعمق عن ابنة القس) و(هل هي في فيينا؟) (شوهدت المدعوة في كباريه رخيصة) وظهرت أخيرا مقالة في سندي سبايهول قال مطلعها (في بيت القس في سوفوك يجلس رجل عجوز يحدق بالجدار) وكانت لا تطاق إطلاقا لهذا استشار القس محاميه لاتخاذ إجراء ضد التشهير والقذف. لم يقم القس بأي

فعل لكن غضبه من دوروثي التي جلبت له العار تجاوز إمكانية المسامحة.

بعد هذا وصل من دوروثي ثلاث رسائل تشرح فيها ما حدث لكن والدها لم يصدق بأنها فقدت ذاكراتها واعتبرها قصة ضعيفة واعتقد بدل ذلك إما أنها فرت مع السيد وربيرتون أو قامت بعمل طائش مماثل وانتهى بها المطاف إلى التشرد في كنت على أي حال - هذا ما استقر عليه نهائيا ولن يزحزحه عن ذلك أي نقاش - مهما حدث لها فانه نتيجة خطأها. لم تكن الرسالة الأولى التي كتبها لدوروثي بل لابن عمه البارون توم. بالنسبة لرجل تربى على شاكلة القس كانت له طبيعة ثانية وهي اللجوء إلى قريب غني طلباً للمساعدة في أي مشكلة خطيرة تواجهه. منذ خمسة عشر عاماً لم يتبادل كلمة واحدة مع ابن عمه حين تشاجرا بسبب مسألة صغيرة - اقتراض خمسين جنيها، ومع ذلك كتب له بثقة تامة طالباً منه الاتصال بدوروثي إن كان ذلك ممكنا وأن يجد لها أي عمل في لندن. إذ بعد ما حدث لم تعد طبعاً هناك أي إمكانية في عودتها إلى نايبهل.

بعد هذا بقليل جاءت رسالتان يائستان من دوروثي تخبره فيهما أن الجوع يهددها بالموت وتتوسله ليرسل لها بعض المال. انزعج القس. وخطر بباله -- وهي المرة الأولى في حياته التي أخذ مثل هذا الشيء على محمل الجد - إنها من الممكن أن تموت جوعاً بما أنها لا تملك أي مال. لهذا وبعد التفكير بالأمر لمدة أسبوع تقريبا باع أسهما بقيمة عشرة جنيهات وأرسلها شيكا إلى ابن عمه ليحتفظ بها إلى حين ظهور دوروثي وأرسل بنفس الوقت رسالة جافية لدوروثي نصحها فيها بأن تتقدم بطلب إلى السير توماس هير. لكن مرت عدة أيام قبل أن تودع

هذه الرسالة في البريد لأن القس ساوره ارتياب مفاجئ بسبب عنونة الرسالة باسم ايلين ميلبورو - تخيل أن استخدام اسم مزيف عمل يتنافى مع القانون - وطبعا تأخر كثيرًا جداً وكانت دوروثي في الشوارع عندما وصلت الرسالة إلى مكتب ماري.

كان السير توماس هير أرملا طيب القلب في الخامسة والستين من عمره وغبي بوجهه الوردي البليد وشاربيه المجعدين، يلبس معطفا ذو مربعات وقبعة مستديرة معقوفة كانت سابقا أنيقة جداً لكنها تتخلف أربعين عاماً الآن عن الزي الدراج. من النظرة الأولى يعطيك الانطباع بأنه تتكر بحرص كفارس من التسعينيات لذلك لا يمكنك النظر إليه دون التفكير بالعظام المتبلة ورنين أجراس المركبة ذات العجلتين وإبريق نقابة اليسار المعتدل القرنفلي في عز أيامه ولوتي كولينز وعهد الازدهار. لكن خاصيته المميزة كانت التشوش العقلي العميق. هو واحد من الناس الذي يقول (ألا تعرف؟ وماذا! ماذا!) ويتوه في وسط كلامه. عندما يكون في حيرة أو عسر يقف شارباه ويبرزان للأمام مما يعطيه هيئة النية الحسنة الفاشلة لكن لقريدس أبله بشكل استثنائي. لم تصل رغبات السير توماس إلى حد التلهف في مساعدة ابن عمه لأن دوروثي نفسها لم تره أبداً ونظر إلى القس كقريب متطفل رديء من أسوأ نوع ممكن لكنه في الحقيقة نال من قضية ابنة القس بقدر ما استطاع تحمله. المصادفة اللعينة أن كنية دوروثي هي نفس كنيته وحولت حياته إلى بؤس في نصف الشهر الماضي وتكهن بفضائح أكثر وأسوأ إن تركت طليقة أكثر من ذلك لهذا قبل أن يغادر لندن من اجل صيد الطيور أرسل بطلب رئيس خدمه والمؤتمن على أسراره ومرشده الفكري وعقد مجلس حرب.

انظر هنا يا بلايث، اللعنة، قال السير توماس بطريقة تشبه القريدس (بلايث اسم رئيس الخدم) هل رأيت كل الهراء الذي كتب في الصحف؟ ابنة القس هذه هي ابنة أخي.

كان بلايث رجل ذو ملامح صغيرة حادة وصوته لا يعلو على الهمس. كان صوتا صامتا تقريبا وبالقدر الذي يمكن تسميته صوتا ولا يمكنك التقاط كل ما يقوله إلا بمراقبة شفتيه والاستماع إليه عن قرب. في هذه الحالة تشير شفتاه إلى الأثر بأن دوروثي كانت ابنة عم السير توماس وليست ابنة أخيه.

- ماذا، ابنة عمي، هل هي؟ هكذا هي، بحق جوبيتر لحسنا، انظر هنا، يا بلايث، ما أقصد قوله - لقد حان الوقت للامساك بتلك الفتاة الملعونة وحبسها في مكان ما. أتفهم ما أقول؟ جدها قبل حصول أي مشاكل أخرى. أنها تتسكع في لندن كما اعتقد. ما هي أفضل طريقة للوصول إلى طريقها؟ الشرطة؟ المخبرين الخاصين وكل ذلك؟ هل تعتقد يمكننا تدبر ذلك؟ قال السير توماس.

سجلت شفتا بلايث عدم الموافقة وبدا كأنه يقول من الممكن تعقب دوروثي دون إخبار الشرطة والتسبب بمزيد من التشهير.

- رجل صالح! إذا توصل إليها. لا يهم كم تكلف. سوف ادفع خمسين جنيها إن لم تثار قضية ابنة القس ثانية. إكراما لله يا بلايث، أضاف واثقاً، حين تمسك بتلك الفتاة اللعينة، لا تدعها تغيب عن ناظريك. أعدها إلى البيت واحبسها جيدا هنا. هل تفهم ما اقصد؟ اسجنها بقفل ومفتاح حتى أعود. او لا يعرف إلا الرب ماذا ستفعل في الخطوة التالية. قال السير توماس.

لم ير السير توماس دوروثي مطلقا لهذا السبب فإنه معذور كما

أنه شكل صورة لها من خلال تقارير الصحف.

استغرق البحث عن دوروثي أسبوعاً من السيد بلايث. في صباحا أحد الأيام التي تلت خروج دوروثي من زنزانة محكمة السجن (غرموها ستة شلنات ولعدم حدوث الدفع حجزت اثنتا عشرة ساعة أما السيدة مس ايليفا فقد عوقبت بسبعة أيام كمجرمة قديمة) جاء اليها السيد بلايث، رفع قبعته المستديرة السوداء ربع بوصة عن رأسه وسأل بهدوء إن كانت هي الآنسة دوروثي هير. في المحاولة الثانية فهمت دوروثي ما كان يقوله واعترفت بأنها دوروثي هير؛عندئذ شرح بلايث إنه أرسل بناء على طلب ابن عمها المتلهف لمساعدتها ويجب عليها أن تأتي معه إلى البيت حالاً.

تبعته دوروثي دون أن تنبس بكلمة. من الغريب أن يهتم بها ابن عمها فجأة لكن ذلك لم يكن أغرب من الأشياء التي حدثت لها مؤخراً. استقلا الحافلة إلى هايد بارك كورنر ودفع بلايث الأجرة ثم مشيا إلى بيت فاره مغلق النوافذ على الحدود بين نايتس بريدج وماي فير. هبطا الدرج فتح بلايث الباب ودخلا. وهكذا وبعد غياب يزيد عن ستة أسابيع في المناطق المكشوفة عادت دوروثي إلى مجتمع محترم.

أمضت ثلاثة أيام في البيت الفارغ قبل أن يعود ابن عمها إلى البيت. كان في البيت الكثير من الخدم لكنها لم ترى إلا بلايث الذي كان يجلب لها وجباتها ويتحدث معها بلا ضجيج وبمزيج من الاحترام والاستهجان. لم يستطع أن يقرر تماماً إن كانت هي سيدة صغيرة وابنة عائلة أم مومس تائبة مستردة، لهذا عاملها كشيء بين الاثنين. في البيت هواء شبيه برائحة الجثث الخامدة الخاصة بالبيوت التي يغيب عنها سادتها مما يدفع وبشكل غريزي إلى المشي على أطراف الأصابع

وإبقاء الستائر مغلقة. لم تجرؤ دوروثي على دخول أي واحدة من الغرف الرئيسية. أمضت نهارها كله كامنة في غرفة مهجورة مغبرة بأعلى البيت الذي كان مثل متحف يحوي أثريات قديمة من عام ١٨٨٠ وبعده. كانت السيدة هير التي ماتت قبل خمس سنوات جامعة نفايات مجدة التي خزن أغلبها في تلك الغرفة بعدما ماتت لكن النقطة المبهمة كانت أيهما أكثر الأشياء غرابة، الصورة المصفرة لوالد دوروثي وهو بعمر الثامنة عشر بشاربين محترمين يقف خجولا بجانب دراجة عادية عام ١٨٨٨ أم العلبة الصغيرة من خشب الصندل المصنفة ب (قطعة خبز لمستها سيسيل رودز في سيتي ومأدبة جنوب إفريقيا، حزيران ١٨٧٩. الكتب الوحيدة في الغرفة كانت جوائز مدرسية مرعبة ربحها أولاد السير توماس. ثلاثة أصغرهم بعمر دوروثي.

من الواضح أن الخدم تلقوا الأوامر بعدم السماح لها بالخروج. بعد وصول شيك العشرة جنيهات الذي أرسله والدها أقنعت دوروثي بلايث بصعوبة بصرفه لها وفي اليوم الثالث خرجت واشترت لنفسها بعض الثياب. اشترت معطفا صوفيا جاهزا وتنورة وكنزة تتوافق معها وقبعة وعباءة رخيصة جداً من الحرير المزيف وزوج بني متوسط الجودة من الأحذية وثلاثة أزواج من الجوارب القطنية الناعمة وحقيبة يد رديئة رخيصة وزوج رمادي من القفازات القطنية التي تبدو جلدية من مسافة قليلة. كان ذلك بثمان جنيهات وعشر، ولم تجرؤ أن تصرف أكثر. بالنسبة للثياب الداخلية وثياب المنامة والمناديل، يجب أن تنتظر وما يهم أخيراً هو الثياب الظاهرة.

وصل السير توماس في اليوم التالي ولم يستطع التغلب على الدهشة التي سببها له مظهر دوروثي. توقع أن يرى فاتنة تضع الأحمر

والمساحيق على وجهها التي ستتزل به بلاء الإغراء الذي يتحسر عليه ! لم يعد قادراً على الاستسلام أكثر. هذه الفتاة الريفية العازبة أفسدت كل حساباته وطافت أفكار معينة غامضة في ذهنه بإيجاد وظيفة لها كمزينة أظافر أو ربما سكرتيرة خاصة لوكيل مراهنات لكنها تلاشت مرة أخرى. من حين لآخر وجدته دوروثي يتأملها بذهول ويتساءل بوضوح كيف استطاعت فتاة كهذه بأن تقوم بالفرار. كان من غير المفيد إخباره بأنها لم تفر وروت له نسختها من القصة وتقبلها بشهامة (طبعا يا عزيزتي!) ثم أبدى حقيقته بأنه لا يصدق كل ما تقول.

لم يحدث شيء يذكر ليومين اثنين. استمرت دوروثي في الحبس الانفرادي في الغرفة العلوية وكان السير توماس يذهب إلى النادي لتناول أغلب وجباته وفي المساء تدور أكثر النقاشات الصامتة غرابة. كان السير توماس صادقاً ومتشوقاً في محاولة إيجاد عمل لدوروثي لكنه كان يواجه صعوبة في تذكر ما كان يتحدث به قبل دقائق قليلة. (حسنا يا عزيزتي) يعاود القول (أنت ستدركين أنني عازم جداً على فعل ما أستطيعه من أجلك. طبيعي لأنني عمك وكل ذلك - ماذا؟ ما ذا كان ذلك؟ ألست عمك؟ كلا، أعتقد أنني لست كذلك، بحق الإله ابن عمك، نعم هذه هي، ابن عمك. حسناً يا عزيزتي، كوني ابن عمك - الآن ماذا قلت؟ بعدها وعندما توجهه إلى الموضوع يرمي ببعض التلميحات مثل (حسنا، مثلا، يا عزيزتي، ما رأيك أن تكوني مرافقة لسيدة كبيرة في السن؟ ألا تعرفين - القفازات السوداء والحمى الرثوية يمتن ويتركن لك عشرة آلاف جنيه ورعاية ببغاء. ماذا، ماذا؟). كررت دوروثي عدة مرات بأنها تريد أن تعمل خادمة منزل أو فندق لكن

السير توماس لم يستمع اليها. أيقظت الفكرة فيه الغريزة الطبقية التي يتذكرها بذهن مشوش جداً. (ماذا! سيقول. (خادمة محطمة؟ فتاة بتربيتك؟ لا ، يا عزيزتي - لا ،لا! لا تستطيعين القيام بذلك العمل، اصرفي النظر عنه!)

لكن في النهاية تم ترتيب كل شيء وبسهولة مدهشة؛ ليس السير توماس من كان غير قادر على تدبير أي شيء لكن بواسطة محاميه الذي فكر باستشارته فجأة الذي دون أن يرى دوروثي اقترح وظيفة معلمة لها وهي أسهل عمل يمكن الحصول عليه من بين كل الوظائف.

عاد السير توماس إلى البيت مسرورا بهذا الاقتراح الذي رآه مناسبا جدا. (اعتقد سرا أن دوروثي لها الوجه الذي ينبغي أن تظهر فيه المعلمة) اندهشت دوروثي عندما سمعت بذلك وقالت:

- معلمة! لكنني لا استطيع بأي حال! أنا متأكدة بأنه ليس هناك مدرسة تعطيني وظيفة كما لا توجد أي مادة استطيع تعليمها.

- ماذا؟ ما هذا؟ لا تستطيعين أن تعلمي! آوه، بالطبع تستطيعين! أين الصعوبة؟

- لكنني لا املك المعرفة الكافية! لم أعلم أي شخص أي شيء ماعدا الطبخ للفتيات المرشدات. يجب أن يكون الشخص مؤهلا بشكل جيد ليعمل معلماً.

- أوه، هراء! التعليم أسهل عمل في العالم. مسطرة ثخينة جيدة - واضربيهم بها على براجم الأصابع. سوف يكونون مسرورين للتمسك بشابة ذات تربية محترمة كي تعلم الصغار حروف الأبجدية. هذا هو دربك يا عزيزتي - معلمة. أنت مخلوقة لهذه المهنة.

وبالتأكيد الجازم أصبحت دوروثي معلمة. لقد قام المحامي الخفي بكل الإجراءات بأقل من ثلاثة أيام. تكشف بأن سيدة تدعى كريفي كانت تدير مدرسة بنات نهارية في ضاحية ساوثبريدج وبحاجة إلى معاونة وراضية جداً في إعطاء الوظيفة إلى دوروثي. كيف سويت الإجراءات بسرعة كبيرة وما نوع هذه المدرسة التي تقبل بغريب تام وغير مؤهل لذلك في منتصف الفصل الدراسي هذا ما لم تستطع دوروثي تخيله إلا بصعوبة ولم تعرف أن رشوة بخمس جنيهات ـ سميت خطا بعلاوة ـ قد بدلت الأمور.

وهكذا وبعد عشرة أيام من إلقاء القبض عليها كمتسولة بدأت دوروثي في مدرسة رينغوود هاوس في بورورود، ساوثبريدج، مع صندوق صغير مملوء بالثياب وأربعة جنيهات وعشر في محفظة نقودها ـ لأن السير توماس قدم لها عشرة جنيهات هدية. عندما فكرت بالسهولة التي وجدت بها هذه الوظيفة وبعد صراعها البائس الذي استمر طيلة الأسابيع الثلاثة الماضية أذهلها ذلك التناقض. وفرت لها قوة ونفوذ النقود البيت كما لم يحدث من قبل. في الواقع، ذكرها بقول مفضل للسيد وربيرتون لو أنها أخذت الفصل الثالث عشر من الكتاب المقدس (العهد الجديد) واستبدلت كلمة (إحسان) بكلمة نقود في كل مقطع وردت فيه الأولى (إحسان) فسيكون للفصل معنى أكبر بعشر مرات مما هو عليه.

٢

ساوثبريدج ضاحية منفرة تبعد حوالي عشرة أميال عن لندن وبورورود تقع في قلبها وسط متاهات من الشوارع المقبولة المتشابهة بصفوف بيوتها شبه المنفصلة وأسوارها من الجناب والغار وبقع الأشجار المريضة عند تقاطع الطرق. يمكن أن تضل طريقك هناك وكأنك في غابة برازيلية. ليست البيوت نفسها بل حتى أسماءها كانت متشابهة ومتكررة وتشعر عند قراءتها على البوابات حين تصل إلى بورورود كأنها جزء من مقطع شعري تملكك وبعدما تتوقف لتحدده تدرك انه بيتي الشعر الأولين من ليسداس.

رينغوود هاوس بيت معتم نصف معزول من القرميد الأصفر ومؤلف من ثلاثة طوابق، نوافذه السفلية مخفية عن الطريق بأشجار غار مغبرة ومهملة. فوق أشجار الغار في واجهة البيت لوح نقشت بحروف ذهبية باهتة:

مدرسة رينغوود هاوس للبنات

الأعمار من ٥ إلى ١٨

تعليم الموسيقى والرقص

تقدم بطلب في الداخل من اجل كتيبات.

وبمحاذاة هذه اللوحة على النصف الثاني من البيت لوحة أخرى تقرأ عليها:

مدرسة رشنغتون غرانج الثانوية للذكور

الأعمار من ٦ إلى ١٨

اختصاص مسك الدفاتر والحسابات التجارية

تقدم بطلب في الداخل من أجل كتيبات.

تعج المنطقة بالمدارس الخاصة وهناك أربعة في بورورود وحدها. كانت السيدة كريفي مديرة المدرسة والسيد بولغر مدير مدرسة رشنغتون غرانج في حالة حرب رغم استحالة تعارض مصالحهما. لا أحد يعرف سبب العداء ولا حتى السيدة كريفي أو السيد بولغر نفسيهما؛ كان نزاعاً توارثاه من صاحبي المدرستين السابقين. بعد الإفطار صباحاً كانا يتمشيان ببطء في حديقتي مدرستيهما الخلفيتين ويتظاهران بعدم رؤية كل منهما للآخر ويكشران بكره.

اكتأبت دوروثي بمنظر رينغوود هاوس. لم تتوقع أي شيء رائع أو جذاب لكنها توقعت شيئاً أفضل من هذا البيت الكئيب والوضيع. لم تكن أي نافذة مضاءة فيه رغم أن الوقت تجاوز الساعة الثامنة مساءا. طرقت الباب وفتحته امرأة بدت طويلة القامة وهزيلة في المدخل المظلم، اعتقدت دوروثي بأنها خادمة لكنها كانت السيدة كريفي نفسها. دون أي كلمة باستثناء السؤال عن اسم دوروثي، قادتها المرأة عبر درج مظلم إلى غرفة ضيوف كانت بلا موقد ولا ضوء سوى ضوء الغروب وحين أشعلت رأس غاز صغير جداً انكشف بيانو أسود وكراسي من شعر الحصان وبضع صور مبهمة مصفرة على الجدران.

كانت السيدة كريفي في الأربعينيات من عمرها، نحيلة وصلبة، عظامها بارزة وتشير حركاتها الواضحة الحادة إلى إرادة قوية وطبع شرير. وعلى الأقل لم تكن قذرة أو غير مرتبة لكن هناك شيء

غامض في مظهرها وكأنها عاشت كل حياتها في إضاءة سيئة؛ ويرتسم على فمها تعبير حزين ويبدو شكله سيئا بشفته السفلى المقلوبة ويذكرك بالضفدع. تكلمت بصوت حاد ومسيطر وبلكنة سيئة مع التحول إلى عامية عرضية في كلامها. يمكن القول من النظرة الأولى بأنها تعرف ما تريد وتمسك به بلا رحمة كالآلة. ليست متمرة بالضبط - لكنها شخص يستغلك ثم يرميك جانبا دون ندم كما لو كنت فرشاة تنظيف بالية.

لم تضع السيدة كريفي الوقت بأية عبارات ترحيبية. قادت دوروثي الى كرسي باسلوب الامر اكثر مما هو دعوة الى الجلوس ثم جلست ويداها مشبوكتان على ساعديها الضعيفين. وبدأت بصوتها الخارق شبه المستبد

- أتمنى أن تكون علاقتنا جيدة يا آنسة ملبورو. بناءا على نصيحة محامي السير توماس الحكيم دائماً، التصق اسم ايلين ميلبورو بدوروثي وأتمنى أن لا اضطر إلى اللجوء إلى نفس التصرف البغيض الذي طال معاونتي الأخيرتين. تقولين بأنك بلا خبرة سابقة في التعليم؟

- ليس في مدرسة، قالت دوروثي

كان هناك تلميح في رسالة تقديمها إلى تجربة في التعليم الخصوصي.

تفحصت السيدة كريفي الآنسة دوروثي كما لو أنها تتساءل إن كانت ستعلمها الأسرار الداخلية للتعليم في المدارس لكنها قررت عكس ذلك. وقالت:

- حسنا، سنرى. (وأضافت متشككية) يجب أن أقول بأنه ليس من السهل إيجاد مساعدات مجدات في هذه الأيام. تقدم لهن أجور ومعاملة

جيدة ولا تلاقي لقاء ذلك سوى الجحود. آخر واحدة كانت عندي قبل أن أتخلص منها هي الانسة سترونغ التي لم تكن سيئة في مجال التعليم في الحقيقة وكانت تحمل إجازة البكالوريوس. أنت غير حاصلة على البكالوريوس أو الماجستير أليس كذلك؟

ـ كلا، أنا متأسفة، قالت دوروثي.

ـ (حسناً، يا للأسف. لو تلا اسمك بعض الحروف لبدا سجل المدرسة أفضل بكثير حسنا، ربما لا يهم الأمر. لا اعتقد إن كثير من الآباء يعرفون إلى ماذا ترمز (ب ا) أو (أم ا) كما انهم ليسوا متحمسين لإظهار جهلهم. اعتقد بأنك تتحدثين الفرنسية طبعا؟

ـ بشكل جيد ـ لقد تعلمت الفرنسية

ـ آوه، ذلك ممتاز. إذا يمكننا وضع ذلك في السجل. حسنا، لنعد إلى ما كنت أقوله، الآنسة سترونغ كانت جيدة كمعلمة لكنها لم ترتق إلى أفكاري في الجانب الأخلاقي. نحن في رينغوود هاوس متشددون في الجانب الأخلاقي وهو أكثر ما يتهم به الآباء، كما ستجدين. والواحدة التي كانت قبل الآنسة سترونغ، هي الآنسة بروير ـ حسنا، عندها ما أسميته بالطبيعة الضعيفة. لن تتجحي مع البنات بطبيعة ضعيفة. وانتهى الأمر عندما تسلقت إحدى البنات الصغيرات المنضدة في صباح احد الايام وكان معها علبة كبريت فأضرمت النار في تنورة الآنسة بروير. طبعاً لن احتفظ بها بعد ذلك وطردتها من المدرسة بنفس اليوم ـ ولم أعطها أي سند مرجعي(تزكية) أيضاً. استطيع أن أقول لك.

ـ هل تقصدين بأنك طردت الفتاة التي قامت بذلك العمل؟ قالت دوروثي بارتباك.

ـ ماذا؟ الفتاة؟ غير ممكن! انت لا تفترضين بأنني سأحول الرسوم عن بابي، هل تقصدين ذلك؟ اقصد أنني طردت الآنسة بروير وليس الفتاة. ليس من الجيد تشغيل معلمات يسمحن للبنات بالتطاول عليهن. لدينا واحد وعشرين طالبة في الصف في الوقت الحالي وستكتشفين أنهن بحاجة يد قوية للسيطرة عليهن.

ـ وأنت ألا تعلمين؟ قالت دوروثي.

قالت السيدة كريفي باحتقار تقريبا:

ـ أوه كلا! لدي عمل كثير بدلا من تضيع وقتي في التعليم. هناك إدارة المدرسة وسبعة من البنات الصغيرات يبقين للعشاء ـ لدي خادمة نهارية واحدة في الوقت الحاضر. بالإضافة إلى أن تحصيل الرسوم من الأهالي يستهلك كل وقتي. وأخيرا الذي يهم هو الرسوم أليس كذلك؟

ـ نعم اعتقد ذلك، قالت دوروثي.

ـ حسنا، يجب أن نسوي الأمر بخصوص أجورنا (استمرت السيدة كريفي) في الفصل الواحد. سوف أقدم لك الطعام والإقامة وعشر شلنات في الأسبوع وسأعطيك في العطلات الطعام والمنامة فقط. يمكنك استخدام الأوعية النحاسية في المطبخ من اجل غسيل ثيابك وإشعال سخان الماء لحماماتك الحارة كل ليلة سبت أو على الأقل اغلب ليالي السبت. لا يمكنك استخدام الغرفة التي نحن فيها الآن لأنها غرفة الاستقبال عندي ولا أريدك أن تهدري الغاز في غرفة نومك لكن يمكنك استخدام الغرف الصباحية كلما رغبت في ذلك.

ـ شكراً لك، قالت دوروثي.

ـ حسناً، أعتقد أن هذا كل الأمر تقريباً. أتوقع أنك تشعرين

بالإستعداد للنوم. من المؤكد أنك تناولت عشاءك منذ وقت بعيد طبعاً

هذا يعني بوضوح أن دوروثي لن تتناول أي طعام الليلة لهذا ، أجابت بنعم كاذبة وانتهت المحادثة. كانت تلك طريقة السيدة كريفي دائماً ـ لا تترك المرء يتكلم أكثر مما هو ضروري. كانت محادثاتها محددة جداً ومتعلقة بالموضوع بالضبط لذلك هي ليست محادثة إطلاقاً بل مخطط محادثة مثل حوار روائي سيء في محادثة لا تتكلم شخوصه سوى القليل جداً. لكن في الواقع وبالمعنى الصحيح للكلمة هي لا تحب التحدث وتقول بأسلوبها المختصر التسلطي ما هو ضروري ثم تتخلص منك بأسرع ما يمكن. دلفت دوروثي إلى غرفتها عبر الممر وأشعلت غار بحجم البندقة كاشفة عن غرفة نوم كئيبة وسرير ضيق مغطى بلحاف أبيض وخزانة ثياب مخلوعة وكرسي ومنصب لغسيل اليدين وإبريق وحوض غسيل من الصيني الأبيض. كانت تشبه غرف الإيجار التي على الشاطئ لكن ينقصها الشيء الوحيد الذي يعطي هذه الغرف جو البساطة والحشمة ـ الكتاب المدرسي الذي فوق السرير.

(هذه عرفتك) قالت السيدة كريفي وأتمنى أن تحافظي على ترتيبها ونظافتها أكثر مما فعلت الآنسة سترونغ ولا تشعلي الغاز حتى منتصف الليل رجاءً لأنني استطيع أن أعرف متى تطفئينه من الشق الذي تحت الباب.

بهذا الترحيب الوداعي تركت دوروثي لوحدها. كانت الغرفة باردة جداً وفي الحقيقة كل البيت فيه رطوبة وشعور قارس كما لو أن النار لم تشعل فيه إلا نادراً. دخلت دوروثي في السرير بأسرع ما يمكن ظنا منها انه أدفأ مكان في البيت. وجدت في أعلى خزانة الثياب علبة

كرتونية تحتوي على ما لا يقل عن تسع قوارير ويسكي فارغة بينما كانت تضع ثيابها جانباً ـ من المحتمل أنها بقايا ناتجة عن ضعف الآنسة سترونغ في جانبها الأخلاقي.

في الثامنة صباحاً نزلت دوروثي إلى الطابق السفلي ووجدت السيدة كريفي أمام الإفطار في ما سمتها الغرفة الصباحية. كانت غرفة صغيرة بجوار المطبخ كغرفة غسل الأطباق وحفظها؛ لكن السيدة كريفي حولتها إلى الغرفة الصباحية بعملية بسيطة بنقل حوض الغسيل والأواني النحاسية إلى المطبخ. كانت طاولة الإفطار المغطاة بقماش خشن كبيرة جداً وخالية بشكل منفر، من الناحية التي عليها السيدة كريفي هناك صينية وإبريق شاي وكوبين وطبق عليه قطعتين من البيض المقلي المجلد وطبق من المرملات أما في الوسط وضمن مدى دوروثي إن مطت نفسها فهناك طبق من الزبدة والخبز وبجانب طبقها حامل أواني مع مادة جافة متخثرة داخل القوارير ـ كما لو أنه الشيء الوحيد الذي يمكنها الوثوق به.

ـ صباحك سعيد، آنسة ملبورو (قالت السيدة كريفي) لا يهم هذا الصباح بما أنه اليوم الأول، لكن تذكري في المرة القادمة بأنني أريد ك هنا في الغرفة في الوقت المحدد لتساعديني في تحضير الإفطار.

ـ أنا متأسفة، قالت دوروثي.

ـ أرجو أن تكوني مغرمة بالبيض المقلي على الفطور؟ استمرت السيدة كريفي.

سارعت دوروثي في التأكيد أنها كذلك.

ـ حسنا، ذلك شيء جيد، لأنك ستتناولين دائماً ما أتناوله. لذا أرجو أن لا تكوني ما أسميه صعبة الإرضاء في الطعام. (أضافت وهي

تلتقط ملعقتها وشوكتها) أنا دائماً أعتقد أن طعم البيض المقلي يكون أفضل بكثير لو قطعتيه جيداً قبل أكله.

شرحت البيضتين إلى شرائح رقيقة وقدمتها بطريقة تلقت فيها دوروثي ثلثي بيضة وبصعوبة اقتصدت دوروثي بحصتها من البيض لتكون نصف دزينة من اللقم وبعدها تناولت شريحة خبز وزبدة ولم تستطع منع نفسها من إلقاء نظرة آمل إلى جهة طبق المرملات. لكن السيدة كريفر كانت تجلس ويدها اليسرى الضعيفة ـ ليست تماماً حول المرملات ـ لكن بموقع حماية بخاصرتها اليسرى وكأنها شكت بأن دوروثي ستقوم بهجوم مباغت عليه. دوروثي خانتها أعصابها ولم تتناول المرملات ذلك الصباح وفي الحقيقة ولا الصبحات التالية الكثيرة.

لم تتكلم السيدة كريفي ثانية على الإفطار لكن صوت أقدام على الحصباء في الخارج وأصوات حادة في غرفة الصف أعلنت بدء وصول البنات اللواتي يدخلن من باب جانبي يترك مفتوحا لهن. نهضت السيدة كريفي عن الطاولة وخبطت أشياء الإفطار مع بعضها في الصينية. كانت من النساء اللواتي لا يمكنهن تحريك شيء دون خبطه. وكانت مملوءة باصمات الجلد والطرق مثل شبح شرير. حملت دوروثي الصينية إلى المطبخ وعندما رجعت أخرجت السيدة كريفي مفكرة صغيرة من الدرج ووضعتها على الطاولة وقالت:

ـ إلق نظرة فقط على هذه القائمة التي جهزتها لك بأسماء البنات. أريد منك أن تعرفي الكل هذا المساء. (بللت إبهامها وقلبت ثلاث صفحات) هل ترين القوائم الثلاث هذه التي هنا؟

ـ نعم، قالت دوروثي.

ـ حسنا ، عليك أن تحفظي هذه القوائم عن ظهر قلب وتأكدي بأنك تعرفين البنات التي عليها. لأنني لا أريدك أن تظني بأن الفتيات يتلقين نفس المعاملة ، إنهن لسن كذلك فتيات مختلفات معاملة مختلفة—هذا هو النظام عندي. والآن هل ترين هذه المجموعة التي على الصفحة الأولى؟

ـ نعم، قالت دوروثي مرة أخرى.

ـ حسنا ، أهالي تلك المجموعة هم ما أطلق عليهم بالدافعين الجيدين. تعرفين ما اقصد بذلك؟ هم الوحيدون الذين يدفعون نقدا لآخر قرش ولا يحرنون بوجه المبالغ كنصف الجنيه أو حوالي ذلك التي أضيفها بين الحين والأخر. يجب أن لا تضربي أي واحدة من تلك المجموعة ولا تحت أي ظرف. وفي المجموعة الأخرى، هذه الدافعون المتوسطون. أهاليهن يدفعون عاجلا أم أجلا لكنك لا تحصلين على النقود دون إزعاجهم ليلا ونهارا. يمكنك ضرب طالبات تلك المجموعة إن تصرفن معك بوقاحة لكن لا تتركي أي علامة أو اثر يمكن أن يراه أهلهن وان عملت بنصيحتي أفضل شيء مع الصغار هو لوي الآذان. هل جربت ذلك من قبل؟

ـ كلا ، قالت دوروثي.

ـ حسنا ، وجدت بأنها تفي بالغرض أفضل من أي شيء آخر وهي لا تترك أي أثر ويتحملها الصغار. أما الثلاث اللواتي هنا فهن أسوأ الدافعات. آباءهن متخلفون عن دفع فصلين دراسيين وأفكر بتكليف محامي. لا أهتم بما تفعلينه بهن كثيراً ـ حسناً ، بدون قضية شرطة طبعاً. الآن ، هل أخذك إلى البنات لتبدأي معهن؟ من الأفضل أن تحضري معك ذلك الكتاب وابق عينيك عليه طول الوقت كي لا

تكون هناك أخطاء.

دخلتا إلى غرفة الصف. كانت غرفة كبيرة وضع على جدرانها ورق رمادي فبدت أكثر قتامة جراء سوء الإضاءة لأن شجيرات الغار الكثيفة خنقت النوافذ ولم تسمح بدخول أشعة الشمس المباشرة إلى الغرفة أبداً ويوجد مكتب للمعلمة بجانب الموقد الفارغ ودزينة من المكاتب المزدوجة الصغيرة ولوح كتابة مضاء، وعلى رف الموقد ساعة جدارية سوداء بدت مثل ضريح صغير ولم تر دوروثي أي خرائط أو صور أو حتى كتب. الأشياء الوحيدة في الغرفة التي يمكن تسميتها زينة صفحتان من الورق الأسود مثبتتان على الجدران وعليهما كليشات جميلة مكتوبة بالطبشور. كانت إحداها (إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب) وعلى الأخرى (دقة المواعيد سلوك الأمراء)

جلست البنات ـ الواحد والعشرين ـ في مقاعدهن مسبقا وازداد صمتهن باقتراب الخطى وحين دخلت السيدة كريفي انكمشن في أماكنهن مثل صغار الحجل حين يحلق صقر فوقهن. فتيات صغيرات غبيات وسباتيات بملامح سيئة وزوائد أنفية مشتركة على نحو بارز بينهن. أكبرهن قد تكون في الخامسة عشر من العمر وأصغرهن طفلة تقريباً. ليس للمدرسة زي موحد ولبست واحدة أو اثنتين من البنات ثياب شبه مهلهلة. قالت السيدة كريفي عندما وصلت طاولة المعلمة:

ـ وقوف يا فتيات. سنبدأ بتلاوة دعاء الصباح.

وقفت البنات وشبكن أيدهن أمامهن وأغلقن عيونهن. كررن الدعاء في انسجام بأصوات رائقة ضعيفة بقيادة السيدة كريفي بينما

كانت عيناها الحادتان تراقبهن كل الوقت لتتأكد من إصغائهن.

ـ يا أبونا الأزلي والقدير نسألك أن تبارك دراستنا لهذا اليوم بتوجيهك المقدس. اجعلنا نتصرف بهدوء وطاعة وانظر إلى مدرستنا واجعلها مزدهرة كي تزيد الأعداد فيها وتكون نموذجا للجوار وليست عارا مثل بعض المدارس التي تعرفها جلالتك. نتضرع إليك يا مولانا بأن تجعلنا مجدات ودقيقات بالمواعيد وبالمظهر المحترم وجديرات في كل النواحي الممكنة للمشي في سبلك: بحق مولانا المسيح، آمين.

هذه الدعاء من تأليف السيدة كريفي. بعد أن انتهت البنات منه كررن صلاة الرب وجلسن. فقالت السيدة كريفي:

ـ والآن أيتها الفتيات هذه هي معلمتكن الجديدة، الآنسة هيلين ميلبورو. كما تعرفن وجب على الآنسة سترونغ أن تتركنا فجأة بعد أن بوغتت بشكل سيء في منتصف حصة الحساب وأخبركن بأنني قضيت أسبوعاً صعباً في البحث عن معلمة جديدة. كان أمامي ثلاثة وسبعون طلب توظيف قبل أن أنتقي الآنسة ميلبورو، رفضتهن كلهن بسبب مؤهلاتهن التي لم ترتق عالياً الى المستوى المطلوب. فقط لتتذكرن وتخبرن أهاليكن بذلك، كلكن ـ ثلاثة وسبعون طلب توظيف! حسناً، الآنسة ميلبورو سوف تعلمكن اللاتينية والفرنسية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والأدب الانجليزي والإنشاء والاملاء والقواعد والكتابة والرسم الحر أما السيد بروث فسيأخذ الكيمياء كالعادة بعد ظهر أيام الخميس، والآن ما هو الدرس الأول في جدولكن الدراسي لهذا الصباح؟

ـ تاريخ يا سيدتي، رد صوت أو اثنين.

- حسناً، أعتقد أن الآنسة ميلبورو ستبدأ بطرح بعض الأسئلة حول التاريخ الذي تتعلمنه. لهذا ابذلن أقصى جهد لترى أن الجهود التي بذلت عليكن لم تضع سدى. ستجدين أنهن طالبات ذكيات عندما يحاولن ذلك يا آنسة ميلبورو.

- أنا متأكدة من ذلك، قالت دوروثي.

- حسنا، سوف أترككِ إذاً تصرفن بأدب يا بنات! لا تحاولن التصرف مع الآنسة ميلبورو مثل ما فعلتن بالآنسة بروير لأنني أحذركن بأنها لا تتحمل ذلك. إن سمعت أي صوت قادم من هذه الغرفة ستكون هناك ورطة لإحداكن.

ألقت نظرة على المكان شملت بها دوروثي وفي الحقيقة أوحت أن تلك الواحدة التي أشير إليها قد تكون دوروثي وغادرت.

واجهت دوروثي الصف. لم تكن خائفة منهن - اعتادت على التعامل مع الصغار ولم تخف منهم أبداً - لكنها شعرت بخوف مفاجئ. الشعور بكونها محتالة (وأي معلم لم يشعر به أحيانا؟) كان ثقيلا عليها. خطر ببالها فجأة، ما أدركته بشكل غامض من قبل بأنها أخذت هذه الوظيفة التعليمية تحت ادعاء آثم وكاذب دون أن يكون لديها أية مؤهلات. المادة التي كانت ستدرسها الآن هي التاريخ وكأغلب المتعلمين لا تعرف فعليا شيئاً عن التاريخ. كم سيكون الوضع مقززاً إن ثبت بأن البنات يعرفن عن التاريخ أكثر مما تعرف هي! قالت مترددة:

- كم هي الفترة بالضبط التي عملتن بها مع الآنسة سترونغ؟

لم تجب أي واحدة منهن. شاهدت دوروثي البنات الكبيرات وهن يتبادلن النظرات ويتساءلن إن كان من الآمن قول شيء ما لكن قررن

أخيراً بأن لا يورطن أنفسهن.

قالت دوروثي وهي تتساءل إن كانت كلمة فترة كثيرة جداً عليهن

- حسنا ، إلى أين وصلتن؟

مرة أخرى لا جواب.

- حسنا ، الآن، من المؤكد أنكن تتذكرن شيئاً حول الموضوع؟ أذكرن لي أسماء بعض الناس الذين درستن عنهم في آخر درس تاريخ.

زاد تبادل النظرات وعلقت فتاة صغيرة بسيطة جداً من النسق الأول ترتدي كنزة وتنورة وشعرها معقوص في ضفيرتين محكمتين ببرود (كان عن البريطانيين القدماء.) بهذا تشجعت فتاتان غيرها وأجابتا بوقت واحد. قالت أحداهن (كولومبوس) وقالت الأخرى (نابليون).

بطريقة ما بدت دوروثي ترى طريقها بشكل أوضح بعد ذلك وبدلاً من التضايق من مستوى إطلاعها كما خافت فإن الصف لا يعرف أي شيء عن التاريخ إطلاقاً. بهذا الاكتشاف تلاشت مرحلة الخوف لديها وأدركت ذلك قبل أن تقوم بفعل أي شيء آخر معهن لكن من الضروري أن تكتشف ما تعرفه تلك البنات. لهذا بدلاً من إتباع الجدول الدراسي أمضت الصباح كله بسؤال الصف عن كل موضوع بدوره؛ وعندما انتهت من التاريخ - استغرق سبر أغوار معرفتهن التاريخية خمس دقائق - جربت الجغرافيا وقواعد اللغة الانكليزية والفرنسي والحساب - بكل شيء تعلمنه تقريباً ، ما يفترض ذلك وعند الساعة الثانية عشر لم تكتشف بل سبرت هاويات جهلهن المخيف.

لم يعرفن أي شيء ، لاشيء تماماً مثل الداديين. من المرعب أن

يكون الصغار بهذا القدر من الجهل. عرفت بنتان فقط في الصف كله من يدور حول الأخرى الأرض أم الشمس، ولم تستطع أي واحدة منهن أن تقول لدوروثي من هو الملك الذي كان قبل جورج الخامس أو من كتب هاملت أو ما المقصود بالكسور العادية وهل المحيط الذي نعبره للوصول إلى أميركا هو الأطلسي أم الهادئ. لم تكن الفتيات الكبيرات من عمر الخمسة عشر عاما أفضل من البنات الصغيرات ذوات الثمانية أعوام سوى أن الكبيرات يقرأن دون انقطاع ويكتبن بخط أنيق. يبدو أن السيدة كريفي انتبهت لذلك. وطبعا وسط جهلهن المنتشر كانت هناك جزر منفصلة صغيرة من المعرفة كبعض المقاطع الشعرية الغريبة التي حفظنها عن ظهر قلب وعدد قليل من الجمل باللغة الفرنسية - مرر لي الزبدة من فضلك وضيعت ابنة البستاني قبعتها - التي تعلمنها بشكل ببغائي. أما بالنسبة لمادة الحساب فقد كان الوضع أفضل بقليل وأغلبهن يستطعن الجمع والطرح ونصفهن لديه فكرة عن عملية الضرب وثلاثة منهن تقدمن في عملية القسمة أيضاً لكن كانت تلك حدود معرفتهن القصوى أما أبعد من ذلك فهناك ليل مطلق لا يخترق في كل المجالات.

إضافة إلى ذلك، لم يكن جاهلات فقط وإنما غير معتادات على أن يسألهن أحد لهذا كان من الصعب الحصول منهن على إجابات. من الواضح أياً كانت معرفتهن فقد تعلمن بطريقة ميكانيكية تماماً ولا يبدو أنهن غير راغبات في التعلم ومن الواضح أنهن قررن أن يكن جيدات - الصغار دوماً جيدين مع المعلمين الجدد؛ ودورثي أصرت وبالتدريج فأبدت الصغيرات ظلا أقل بلادة. بدأت تلتقط من إجاباتهن فكرة صحيحة عما كان عليه نظام الآنسة سترونغ.

وانكشف أن المواد التي تم تعليمها بشكل جدي كانت الكتابة والحساب رغم أنهن نظرياً تعلمن كل المواد المدرسية العادية. كانت الآنسة كريف حريصة على مادة الكتابة بوجه خاص التي صرفن عليها كميات كبيرة من الوقت ساعة أو ساعتين من كل يوم في الكدح في عمل روتيني مخيف يدعى النسخ الذي يعني نسخ أشياء من الكتاب المدرسي أو من اللوح. تكتب السيدة سترونغ مثلا مقالة صغيرة من المواعظ المضجرة (كان هناك مقال بعنوان الربيع تكرر في كل دفاتر البنات الكبيرات والذي يبدأ: الآن عندما يتمشى نيسان الناعم رشيقا على الأرض وعندما تغني الطيور فرحة على الأغصان والأزهار الصغيرة الأنيقة من براعمها، الخ، الخ أما الأهالي الذين يرون الدفاتر من وقت لآخر فقد كانوا بلا شك يتأثرون بشكل مناسب. بدأت دوروثي تدرك أن كل شيء تم تعليمه للبنات كان يهدف الأهالي في الحقيقة وليس الطالبات. بسبب (النسخ)، الإصرار على الكتابة والتكرار الببغائي للعبارات الفرنسية الجاهزة: كانت أساليب هينة وسهلة لخلق الانطباع. أما البنات الصغيرات اللواتي بأسفل الصف لم يستطعن القراءة والكتابة إلا بصعوبة وإحداهن - اسمها مافيس ويليامز وهي طفلة في الحادية عشر لها شكل مشؤوم وعينين متباعدتين جداً - لا تستطيع العد ويبدو أنها لم تفعل شيئاً خلال الفصل الدراسي الماضي والعام الذي قبله سوى كتابة أشكال مثل كلابات القدور وعندها كوم من الدفاتر مملوء بالكلابات - صفحة وراء صفحة منها بعروات تلتف مثل جذور شجرة القرام في مستنقع استوائي.

حاولت دوروثي ألا تؤذي مشاعر البنات بالإفصاح عن جهلهن

لكن في صميم قلبها اندهشت وارتعبت. لم تعرف أن هذا النوع من المدارس لا يزال موجوداً في العالم المتحضر. كل جو المكان كان عتيقا بشكل غريب - تذكاري جداً بالمدارس الخاصة الصغيرة الموحشة التي يقرأ عنها في الروايات الفيكتورية. أما بالنسبة للكتب المدرسية القليلة التي يملكها الصف فلا يمكنك النظر إليها دون الشعور بأنك عدت إلى منتصف القرن التاسع عشر. كان لدى كل بنت نسخة من ثلاثة كتب. أحدها كان حساب الشريك وهو من قبل الحرب الكبرى لكنه مفيد نوعاً ما وآخر كان كتاب صغير مروع يدعى تاريخ بريطانيا في مئة صفحة - كتاب كريه صغير من القطع الاثنا عشري وغلاف بني خشن والصورة المواجهة لصفحة العنوان لبوديسيا مع علم بريطانيا الملتف فوق مقدمة مركبتها. فتحت دوروثي هذا الكتاب عشوائياً واتت إلى الصفحة ٩١ وقرأت:

بعد انتهاء الثورة الفرنسية حاول الإمبراطور العصامي نابليون بونابرت أن يبدأ بطريقه لكن رغم انتصاراته القليلة ضد جيوش القارة اكتشف حالاً في وضعه الحرج بأن لديه أكثر مما لدى نده. لكن النتائج اختبرت على ساحة واترلو حيث قاتل خمسون ألف بريطاني ضد سبعين ألف فرنسي - لأن حلفائنا البروسيين وصلوا إلى المعركة متأخرين جداً وعلى ألحان النشيد البريطاني هاجم رجالنا المنحدر فهرب العدو. والآن نأتي إلى وثيقة الإصلاح الكبير لعام ١٨٣٢ وهو أول تلك الإصلاحات المفيدة التي صنعت الحرية الحالية في بريطانية وميزتنا عن الأمم الأقل حظاً الخ، الخ.....

كان تاريخ الكتاب ١٨٨٨. تفحصته دوروثي التي لم تر كتاب تاريخ مثله من قبل بشعور اقترب من الرعب. وكان هناك كتاب غير

عادي أخر (القارئ) الذي يعود تاريخه إلى ١٨٦٣ ويتألف من قطع صغيرة من فينيمور كوبر ودكتور واتس ولورد تينيسون وفي النهاية توجد فيه أغرب ملاحظات عن الطبيعة مع رسوم توضيحية لفيل وفي الأسفل بخط صغير: الفيل حيوان عاقل يبتهج في ظلال أشجار النخيل ويسمح لولد صغير بقيادته رغم أنه أقوى من ستة خيول وهو مولع بالموز وهلم جر إلى الحوت وحمار الوحش والزرافة المرقطة والبروكوبين (حيوان شائك من القوارض). وكان على مكتب المعلمة أيضاً نسخة من بيوتيفل جو وكتاب بائس يدعى نظرة خاطفة على الأراضي البعيدة وكتاب فيه عبارات من اللغة الفرنسية يعود تاريخه إلى عام ١٨٩١ يدعى كل ما تحتاجه في رحلتك إلى باريس وأول عبارة فيه كانت اربط مشدي لكن ليس بإحكام. في الغرفة كلها لا يوجد أطالس أو أدوات هندسية.

في الحادية عشرة كانت هناك فرصة مدتها عشر دقائق لعب فيها بعض الفتيات ألعابا بليدة صغيرة كلعبة الصفر وإشارة الضرب أو يتشاجرن على محافظ الأقلام وقلة من اللواتي تغلبن على خجلهن احتشدن حول مكتب دوروثي وتحدثن معها. أخبرنها الكثير عن الآنسة سترونغ وطرقها في التدريس وكيف كانت تلوي أذانهن عندما تكون هناك بقع من الحبر على دفاترهن. وظهر بأن الآنسة سترونغ كانت معلمة صارمة جداً ماعدا الحادثة التي بوغتت فيها وتكررت مرتين في أسبوع واحد. وعندما بوغتت كانت بأن الدواء الذي تناولته من القارورة البنية والذي بعد أن تشربه تصبح مرحة جداً لفترة وتحكي لهن عن أخيها في كندا. لكن في يومها الأخير بوغتت فيه بشدة أثناء حصة الحساب. حيث بدا أن الدواء قد زاد حالها سوءاً لأنها

بعد أن شربته بدأت تنهار فوراً وخرت على طاولة المكتب فحملتها السيدة كريفي إلى خارج الغرفة.

بعد الفاصل كانت هناك حصة من ثلاثة أرباع الساعة وبعدها ينتهي الدوام الصباحي في المدرسة. شعرت دوروثي بالتيبس والتعب بعد ثلاث ساعات في الغرفة القارسة وهواءها الفاسد ورغبت في الخروج لاستنشاق نسمة هواء جديد لكن السيدة كريفي أخبرتها مسبقاً أنها يجب أن تأتي لتساعد في تحضير الغداء. ذهب أغلب البنات اللواتي يسكن قريباً من المدرسة إلى بيوتهن للغداء لكن بقي سبعة منهن يتناولن غدائهن في الغرفة الصباحية بعشر بنسات للوجبة وكانت وجبة مزعجة مرت بصمت تام لان الفتيات خائفات من التكلم أمام السيدة كريفي. تألف الغداء من لحم رقبة خروف مطبوخ، وأبدت السيدة كريفي براعة غير عادية في تقديم القطع الهزيلة للدافعات الجيدات وقطع الدهن للدافعات المتوسطات. أما بالنسبة للدافعات الثلاث السيئات فقد أكلن خجلات وجبة خفيفة من أكياس ورقية في غرفة الصف.

بدأت المدرسة مرة أخرى في الساعة الثانية. وعادت دوروثي إلى عملها بفزع مزعج خفي بعد صباحها الأول في التعليم. بدأت تدرك كيف سيكون شكل الحياة التي ستعيشها، يوم تلو الأخر وأسبوع بعد أسبوع في تلك الغرفة غير المشمسة، تحاول أن تدخل مبادئ المعرفة في عقول طفلات مزعجات وغير راغبات بذلك. لكنها عندما جمعت البنات ونادت أسماءهن جاءت إلى طاولتها طفلة صغيرة شاحبة شعرها بلون الفأر تدعى لورا فيرث وقدمت لها باقة صغيرة من الأقحوان البني المصفر (باسم الجميع). لقد حملت البنات المحبة لدورثي وجمعن أربع

بنسات لشراء باقة زهور لها.

حرك شيء ما قلب دوروثي عندما أخذت الزهور القبيحة. نظرت بعيون أكثر رؤية من قبل إلى الوجوه المصابة بفقر الدم وثيابهن الرثة وشعرت فجأة بالخجل من تفكيرها في الصباح عندما نظرت إليهن بلا مبالاة وكره تقريباً. أما الآن وقد تملكها نوع من الإشفاق. البنات المسكينات! كيف أعيق نموهن وعوملن معاملة سيئة! مع كل هذا احتفظن برقة الطفولة التي دفعتهن إلى تبذير قروشهن القليلة في شراء زهور للمعلمة.

تبدل شعورها نحو عملها بعد تلك اللحظة بشكل مختلف تماماً وطفر قلبها بشعور بالوفاء والحب. إن هذه المدرسة مدرستها هي وسوف تعمل من أجلها وتفتخر بها وستبذل كل الجهود كي تحولها من مكان للعبودية إلى مكان للبشر والمحترمين. قد يكون ما تستطيع القيام به قليل لأنها تفتقر إلى الخبرة والمؤهل لكنها سوف تعلم نفسها قبل أن تعلم الآخرين وستبذل كل ما بوسعها وتقوم بكل ما تستطيع فعله الإرادة والقوة لتنقذ تلك البنات الصغيرات من الظلام المخيف الذي حبسن فيه.

٣

في غضون الأسابيع القليلة القادمة شغل دوروثي شيئان اثنان واستبعدت كل الأشياء الأخرى. كان الأول وضع نوع من النظام لصفها والثاني ترسيخ نوع من التواصل مع السيدة كريفي.

كان الشاغل الثاني أصعب بكثير من الأول. إن بيت السيدة كريفي غير صحي للعيش بقدر ما يمكن تصوره فهو بارد جداً أو بارد بشكل دائم وليس فيه أي كرسي مريح إضافة إلى الطعام المقزز. إن التعليم عمل أصعب مما يبدو عليه ويحتاج المعلم إلى طعام جيد كي يستطيع الاستمرار في عمله وتناول طعام لا طعم له من لحم الضان المطبوخ والبطاطا المسلوقة المملوءة بالثقوب السوداء والشاي الخفيف مثبط للهمم بشكل فظيع كما أنه ليس سيئاً فقط بل قليل أيضاً. كانت السيدة كريفي بخيلة لدرجة تستمتع في تقتير طعامها وتأكل نفس الوجبات التي تتناولها دوروثي لكنها تأخذ دائماً حصة الأسد. كل صباح تقسم البيضتين المقليتين إلى شرائح ثم إلى حصص غير متساوية أما طبق المرملات فلا يلمسه أحد سواها. ازداد جوع دوروثي أكثر فأكثر مع استمرارها مع السيدة كريفي. وكانت في المساءين التي نجحت في الخروج فيهما تأخذ من نقودها المتناقصة وتشتري ألواحاً من الشوكولا وتأكلها بمنتهى السرية ـ رغم أن السيدة كريفي جوعت دوروثي ذلك بشكل أو آخر دون تعمد فإنها

تتزعج جداً لو عرفت أن دوروثي تشتري طعاماً لنفسها.

أسوأ شيء في وضع دوروثي هو عدم وجود نوع من الخصوصية وقلة الوقت المخصص لنفسها. بعد أن ينتهي اليوم الدراسي تكون الغرفة الصباحية ملجأها الوحيد حيث تكون تحت رقابة السيدة كريفي وفكرتها البارزة بأن لا تترك دوروثي في حالة طمأنينة أبداً ولو لعشرة دقائق متصلة. لقد رسخ في ذهنها أو تظاهرت بأن دوروثي شخصية كسولة وبحاجة إلى المواظبة لتظل في المستوى المطلوب. (حسنا يا آنسة ميلبورو، ليس لديك عمل كثير هذا المساء على ما يبدو، أليس كذلك؟ أليس هناك بعض الدفاتر التي تحتاج إلى تصحيح؟ لماذا لا تمسكين بإبرتك وتحيكين شيء ما؟ أنا لا أطيق الجلوس دون القيام بعمل ما مثلك!) كانت تجد دائماً أعمالا بيتية لدوروثي، جعلتها تنظف أرض غرفة الصف كل صباح سبت عندما لا تأتي البنات إلى المدرسة؛ كانت تفعل هذا بدافع من طبيعتها السيئة ولا تثق بأن دوروثي تقوم بعملها بالشكل المناسب حتى أنها تعيد القيام به بعدها عادة. في إحدى الأمسيات عادت دوروثي ومعها رواية من المكتبة العامة فانفجر غضب السيدة كريفي عند رؤيتها. (حسناً يا آنسة ميلبورو! لم أكن أعرف بأنك تملكين الوقت الكافي للقراءة!) قالت ساخرة. إنها لم تقرأ أي كتاب طيلة حياتها وتفتخر بذلك.

حتى عندما لا تكون دوروثي تحت رقابة السيدة كريفي الفعلية لديها أساليب تجعل الآخرين يحسون بحضورها فكانت تطوف بجوار غرفة التعليم دائماً لهذا لم تشعر دوروثي بأمان من تطفلها وعندما تظن أن هناك ضجيج كبير تدق على الجدار فجأة بمقبض المكنسة بطريقة تجعل البنات يقفزن ويتوقفن عن العمل وتظل كل ساعات

النهار نشيطة وتصدر الضجيج. عندما لا تكون منشغلة في طبخ الوجبات تخبط بالمكنسة واللقاطة أو تضايق الخادمة النهارية أو تنقض على حجرة التعليم (لتلقي نظرة بأمل أن تلحق الأذى بدوروثي أو بالبنات الصغيرات) أو تقوم بعمل بسيط في الحديقة - بتر الشجيرات الصغيرة المريضة التي تنمو وسط الحصباء الجرداء في الحديقة الخلفية بمقص. لدروثي الحرية في فعل ما تشاء في مساءين فقط عندما كانت السيدة كريفي تهجم في غزوات سمتها (ملاحقة البنات؛ أي مراقبة الأهالي المحتملين). هذه الأوقات المسائية تمضيها دوروثي في المكتبة العامة لأن السيدة كريفي عندما لا تكون في البيت تتوقع من دوروثي أن تبقى بعيدة عنه لتوفير وقود التدفئة وغاز الإنارة. أما فيما بقي من المساء فتنشغل السيدة كريفي بكتابة الرسائل إلى الأهالي أو إلى محرري الجريدة المحلية للمساومة على سعر دزينة من الإعلانات أو تفتش دروج الطالبات لترى بأن دفاترهن قد صححت بشكل لائق أو تقوم بقليل من الحياكة. كلما خانتها حرفة ولو لخمس دقائق فإنها تخرج علبة الشغل -عندها عادة إعادة خياطة السراويل القصيرة المصنوعة من الكتان الأبيض الخشن التي تملك منها أزواجاً لا تحصى. كانت أسوأ ثياب يمكن تخيلها وتبدو متسخة - مثل قلنسوة راهبة أو قميص ناسك - طابع الطهارة الباردة البغيضة. ومجرد منظرها يجعلك تتساءل عن السيد كريفي السابق إلى درجة الشك بوجوده.

عند النظر بعين الغريب إلى أسلوب حياة السيدة كريفي يمكن القول أنها تخلو من أي نوع من المتعة. لم تفعل أبداً مما يفعله الناس العاديون لتسلية أنفسهم - لم تذهب إلى السينما أبداً أو تنظر إلى كتاب ولم تأكل الحلويات أو تطبخ لنفسها طبقاً خاصاً للعشاء أو

تلبس أي ثياب مبهرجة. لم تعني لها الحياة الإجتماعية أي شيء إطلاقاً وليس لها أي صديقة وربما كانت عاجزة عن تخيل شيء كالصداقة وقلما تبادلت كلمة مع زميل باستثناء ما يتطلبه العمل. بخصوص المعتقد الديني فلا أثر له في نفسها رغم أنها تذهب إلى صلاة التعميد كل يوم أحد لتوهم الأهالي بورعها فإنها كانت من التيار المعادي للمبادئ الإكليركية المؤسسة على فكرة أن القساوسة يسعون من أجل المال فقط. لقد بدت مخلوقاً كئيباً جداً وغارقة في بلادة وجودها تماماً لكنها في الحقيقة ليست كذلك وهناك أشياء كثيرة تحصل منها على متعة قوية لا تنضب.

كان جشعها للمال مثلاً هو اهتمامها الرئيسي في الحياة. يوجد نوعان من الجشعين - الجريء وهو النموذج الطماع الذي يدمرك لو استطاع لكنه لا ينظر أبداً مرتين إلى البنسين والبخيل التافه الذي لا يملك فعلياً حب المغامرة لجمع المال لكنه دائماً، كما يقول المثل، يأخذ ربع بنس من كوم روث بأسنانه والسيدة كريفي تنتمي إلى النوع الثاني. نجحت بالتماسها المتواصل مع الأهالي وخداعها الصفيق في جمع إحدى وعشرين طالبة في مدرستها ولا تستطع أن تزيد العدد أكثر أبداً بسبب بخلها الشديد الذي يمنعها من صرف نقود على المعدات الضرورية ودفع أجور مناسبة لمعاونتها. كانت الرسوم التي تدفعها البنات، أو لم تدفعها، خمس جنيهات في الفصل مع بعض الإضافات لذلك تجوع وترهق مساعدتها بقد ما تستطيع ولا يمكنها أن تطمح بأكثر من مئة وخمسين جنيه من الربح الصافي سنويا وهي راضية تماماً بذلك. تهتم بتوفير ست بنسات بدلا من جني جنيه. إنها سعيدة بطريقتها طالما تستطيع التفكير في طريقة تخفيض بطاطا

واحدة من عشاء دوروثي أو الحصول على دفاتر التمارين بسعر ارخص بنس أو إضافة نصف جنيه إلى فاتورة أحد الدافعين الجيدين.

ومرة أخرى، لديها هواية لا تمل أو تكل منها في القيام بأعمال حاقدة حقيرة لا يرجى منها أي مكسب وبخبث عشوائي صرف. كانت واحدة من الذين يجدون نشوة روحية في تدبير مقالب سيئة للآخرين. إن عداءها مع جارها السيد بولغر قضية من جانب واحد. في الواقع لم يكن المسكين بولغر بثقل السيدة كريفي القتالي. كانت تدير حرب بدون شفقة أو رحمة ولا مأرب. تستمتع جداً عندما تنتقد السيد بولغر لدرجة أنها مستعدة لصرف المال على ذلك أحيانا. منذ سنة كتب السيد بولغر رسالة إلى الملاك(كلاهما يكتب دائماً للمالك شاكياً من سلوك الآخر) يقول فيها أن مدخنة مطبخ السيدة كريفي تنفث دخانها في نوافذه الخلفية ويرجوها بأن تزيد ارتفاعها قدمين لكن في اليوم الذي وصلتها فيه رسالة المالك استدعت السيدة كريفي بنائي القرميد وطلبت منهم تقليل ارتفاع المدخنة قدمين فكلفها ذلك ثلاثين شلن، لكن الأمر يستحق بنظرها. بعد ذلك كانت هناك حملة طويلة من حرب العصابات برمي أشياء من فوق سور الحديقة طوال الليل وربحت السيدة كريفي معركة متقنة وبدون إراقة دماء بعد وصول دوروثي بوقت قريب عندما اكتشفت بأن جذور شجرة خوخ السيد بولغر قد امتدت إلى حديقتها من تحت السور فحقنت تنكه كاملة من قاتل الأعشاب فيها وقتلت الشجرة. كانت هذه هي المناسبة الوحيدة التي شوهدت فيها وهي تضحك.

لكن دوروثي كانت مشغولة جداً، أولا بتكريس كثير من الإنتباه إلى صفات السيدة كريفي الكريهة. فهمت تماماً إن السيدة

كريفي إمرأة بغيضة ووظيفتها هي وظيفة عبد لكن ذلك لم يقلقها كثيراً. استحوذ عملها على جل وقتها وبدا ذو أهمية قصوى مقارنة براحتها ومستقبلها.

لم يتطلب الأمر أكثر من يومين لتضع لصفها نظام مستمر والغريب أنها رغم افتقارها للخبرة التعليمية والأفكار النظرية المسبقة عن التعليم فإنها وجدت نفسها من اليوم الأول وبالغريزة تعيد الترتيب وترسم الخطط وتبتدع. هنالك الكثير من العمل الملح والضروري. من الواضح أن الشيء الأول هو التخلص من النسخ الروتيني المروع ومن اليوم الثاني لدوروثي لم يعد هناك نسخ داخل الصف رغم تجسس السيدة كريفي على الأمر مرتين وقلصت دروس الكتابة أيضاً. رغبت دوروثي بإلغاء كل دروس الكتابة لو لم تكن البنات الكبيرات مهتمات بها - بدا لها من السخف أن فتيات في الخامسة عشر يضيعن وقتهن في التمرن على كتابة الكليشات - لكن السيدة كريفي لم تستمع إلى ذلك وربطت دروس الكتابة بقيمة خرافية. والشيء التالي طبعاً هو رمي كتاب التاريخ المؤلف من مئة صفحة وكتاب (القارئ) المنافي للعقل. كان الطلب من السيدة كريفي بشراء كتب جديدة للبنات أمر مستحيل وميئوس منه. طلبت دوروثي إذنا للذهاب إلى لندن بعد ظهر سبتها الأول فوافقت السيدة كريفي بتذمر. صرفت دوروثي جنيهين وثلاث شلنات من جنيهاتها الأربعة الغالية في شراء دزينة من الكتب المستعملة بطبعة مدرسية رخيصة لشكسبير وأطلس كبير مستخدم وبعض مجلدات مستعملة من قصص هانس اندرسون للصغار ومجموعة أدوات هندسية ورطلين من اللدائن. إضافة إلى كتب تاريخ من المكتبة العامة شعرت دوروثي بأنها قامت ببداية مناسبة.

لقد أدركت بنظرة حاجة البنات والرعاية الفردية التي لم ينعمن بها أبداً. لهذا بدأت في تقسيمهن إلى ثلاث مجموعات منفصلة ورتبت الأشياء بطريقة يستطيع فيها ثلثي البنات العمل لوحدهن وتقوم هي بالعمل مع الثلث الآخر. كان الأمر صعب في البداية خصوصاً مع الفتيات الصغيرات اللواتي يتشتت انتباههن بمجرد أن ترفع النظر عنهن. كان تحسن وضع البنات خلال الأسابيع القليلة الأولى رائعاً وغير متوقع؛ لأن غالبيتهن لم يكن غبيات فعلاً وإنما دوخن بالإجراءات الميكانيكية البليدة. واصلن عدم قابلية التعلم أسبوعا وبعده وبشكل مفاجئ تماماً وثبت عقولهن الصغيرة المتضررة وامتدت مثل أزهار الربيع عندما تزيل عنها مدحلة الحديقة.

بسرعة كبيرة وسهولة دربت دوروثي البنات على عادة التفكير لوحدهن. جعلتهن يكتبن مقالات بأيدهن بدلاً من نسخ هراء الطيور المغردة على الأغصان والزهور المتفجرة في براعمها. هاجمت الحساب الذي تعلمنه من أساسه وبدأت مع البنات الصغيرات بجدول الضرب وقادت الأكبر سنا إلى القسمة والكسور وأوصلت ثلاث منهن إلى درجة الحديث عن الكسور العشرية. علمتهن المبادئ الأولى لقواعد اللغة الفرنسية بدلا من (من فضلك مرر لي الزبدة وابنة البستاني ضيعت قبعتها). عند اكتشافها بعدم وجود أي فتاة تعرف أي شيء عن أي دولة (رغم أن بعضهن يعرف أن كيوتو عاصمة الإكوادور) ساعدتهن بصنع خارطة كبيرة من المعجون وقطعة خشب من ثلاث طبقات ونسختها من الأطلس بنفس القياس. أحبت البنات صنع الخارطة وطلبن الاستمرار فيه. بدأت بقراءة مكبث مع الصف كله ماعدا الستة الصغار ومافيس وليامز المتخصصة برسم الكلابات. لم

تقرأ أي من البنات سابقاً أي شيء بشكل تطوعي في حياتهن ماعدا صحيفة البنات لكنهن بدأن بشكسبير بسهولة وطيب خاطر كما يفعل كل الصغار عندما لا يفسدوه بالإعراب والتحليل.

كانت تعليم مادة التاريخ هي أصعب شيء لهن. لم تدرك دوروثي للآن الصعوبة التي يجدها الصغار المنحدرين من بيوت فقيرة في تكوين فكرة عن التاريخ وماذا يعني. أي شخص من الطبقة العليا مهما كانت معلوماته سيئة يربو على بعض من الأفكار التاريخية فيستطيع تصور قائد عسكري روماني ما وفارس من العصور الوسطى ونبيل من القرن الثامن عشر ومصطلحات العصور القديمة والعصور الوسطى عصر النهضة وما تثيره الثورة الصناعية من معنى حتى لو كان تصورا مشوشا. لكن تلك البنات أتين من بيوت لا تعرف الكتب ومن آباء يهزؤون من فكرة أهمية الماضي بالنسبة للحاضر. لم يسمعن بروبين هود أبداً ولم يمثلن دور الفرسان وأصحاب الرؤوس المستديرة ولم يفكرن بمن أشاد الكنائس الإنكليزية أو ما الذي يرمز إليه فيدي ديفنسور المنقوش على البنس. عرفت البنات وبلا استثناء شخصيتين تاريخيتين وهما كولومبوس ونابليون. ولا يعلم إلا الله السبب - ربما لأن كولومبوس ونابليون يرد ذكرهما في الصحف أكثر من الشخصيات التاريخية الأخرى ويبدو أنهما انتفختا في عقول الصغار مثل تويلدوم وتويلدي حتى طغتا على مشهد الماضي وعندما سألت متى اخترعت السيارات أجابت طالبة بسن العاشرة مجازفة بشكل مبهم (منذ حوالي الألف عام بواسطة كولمبوس.)

اكتشفت دوروثي أن بعض البنات الأكبر سناً قد قرأن كتاب التاريخ ذو المئة صفحة أربع مرات - من بوديسيا إلى اليوبيل الأول -

لكن عملياً نسين كل كلمة فيه. ليس ذلك هو المهم لأن كل ما جاء فيه مجرد أكاذيب. بدأت مع كل الطالبات من جديد بغزو يوليوس قيصر. في البداية فكرت بأخذ كتاب تاريخ من المكتبة العامة والقراءة منه للبنات بصوت عال لكن تلك الطريقة فشلت لأن البنات لم يفهمن أي شيء إن لم يشرح لهن بكلمات مؤلفة من مقطع أو اثنين. استطاعت بكلماتها وبمعرفتها غير الكاملة أن تقوم بنوع من إعادة صياغة ما تقرأه وتوصله للبنات وجاهدت في دفع صورة ما عن الماضي داخل عقولهن الصغيرة البليدة وكان أصعب ما في الأمر هو إثارة نوع من الاهتمام فيه. لكن في احد الأيام خطرت ببالها فكرة ذكية. اشترت لفة من ورق الجدران الرخيص من محل أثاث وطلبت من البنات عمل جدول بياني تاريخي فوضعن علامات بالقرون والسنوات ولصقن قصاصات ورق قطعنها من رسومات الجرائد، صور فرسان في دروعهم وسفن إسبانية شراعية ضخمة ومطابع وقطارات السكك الحديدية - في الأمكنة المناسبة. وقدم الجدول التاريخي منظراً شاملاً للتاريخ الإنكليزي بعد تثبيته على جدران الغرفة وزيادة عدد القصاصات عليه. أغرمت البنات بالجدول أكثر من الخارطة. كن يظهرن ذكاء دائم عندما يتعلق الأمر بصنع شيء بدلاً من مجرد تعلمه. وجرى حديث عن صنع خارطة للعالم بأبعاد أربعة أقدام بأربعة من ورق لاصق إن استطاعت دوروثي إقناع السيدة كريفي في السماح لها بتحضير ورق زينة - عمل غير مرتب يحتاج إلى دلاء من الماء.

راقبت السيدة كريفي إبداعات دوروثي بعين الغيرة لكنها لم تتدخل بقوة في البداية. لم تظهر طبعاً اندهاشها وسرورها بوجود معاونة راغبة فعلا بالعمل وعندما رأت أن دوروثي تصرف نقودها في

شراء كتب مدرسية للطالبات شعرت بنفس الإحساس اللذيذ الذي تحصل عليه عند قيامها بعملية احتيال ناجحة.

لقد اشتمت وتذمرت حول كل شيء قامت به دوروثي وأمضت وقتا كثيرا فيما دعته (التصحيح الشامل) لدفاتر البنات. لكن طريقتها في التصحيح، مثل غيره في المنهاج الدراسي كله، مرتبة للاهتمام بالأهل. تأخذ الطالبات دفاترهن إلى البيت دورياً ليتفحصها أهلهن ولا تسمح السيدة كريفي بكتابة أي شيء من الذم عليها فلا توجد أي علامة (سيء) أو إشارة خطأ أو خط تحت كلمة وبدل من ذلك تقوم دوروثي في المساء بتزيين الدفاتر تحت إملاءات السيدة كريفي بتعليقات تشجيعية قوية أو عادية بالحبر الأحمر مثل (انجاز مشرف جداً وممتاز! أنت تقطعين خطوات واسعة، استمر بذلك) التي كانت مفضلة عند السيدة كريفي. كل البنات في المدرسة يقمن بخطوات واسعة دائماً لكن لم يبين في اتجاه كانت تلك الخطوات. ويبدو أن الأهالي كانوا راغبين في بلع مقادير غير محددة من هذا الشيء.

حدثت مشاكل لدوروثي مع البنات طبعاً في بعض الأحيان وفي الحقيقة اختلاف أعمارهن جعل التعامل معهن صعباً ورغم ولعهن بها وطيبتهن منذ البداية، ولو بقين طيبات دائماً فلن يكن طفلات، فهن أحياناً كسولات وأحيانا مستسلمات لأرذل صفة للطالبات ـ القهقهة. قلقت دوروثي كثيراً على مافيس وليامز في الأيام الأولى القليلة التي كانت أغبى مما يتخيله المرء في طفل في الحادية عشر من عمره. لم تستطع دوروثي فعل أي شيء لها إطلاقاً. وكانت في المحاولة الأولى لدفعها إلى فعل أي شيء يتجاوز الكلابات تطل عليك بنظرة لئيمة

خالية من أي معنى من عينيها الواسعتين وتصيبها أحياناً نوبات ثرثرة تسأل فيها أكثر الأسئلة المذهلة والأسئلة التي لا جواب لها فمثلاً بينما كانت تفتح كتابها (القارئ) وجدت إحدى الرسوم التوضيحية - ربما الفيل العاقل - وسألت دوروثي:

- لو سمحت يا آنسة، ما هذا الشيء هنا؟ هي تلفظ كلماتها بطريقة غريبة.

- ذلك فيل يا مافيس

- ما هو الفيل؟

- الفيل حيوان من الحيوانات.

- ما هو الحيوان؟

- حسنا - الكلب حيوان

- ما هو الكلب؟

وهكذا بلا نهاية وفي حوالي منتصف اليوم الرابع رفعت مافيس يدها وقالت بأدب خبيث جعل دوروثي تتحفز وتستنفر:

- لو سمحت يا آنسة هل يمكنني الذهاب إلى المرحاض ؟

- نعم، قالت دورثي

رفعت إحدى الفتيات الكبيرات يدها وقد إحمر وجهها لكنها وضعتها ثانية كما لو أنها لا تستطيع التكلم من الخجل وبتشجيع من دوروثي قالت بدون حياء:

- لو سمحت يا آنسة، كانت الآنسة سترونغ لا تدع مافيس تذهب إلى المرحاض لوحدها لأنها تقفل على نفسها ولا تخرج وهذا يغضب السيدة كريفي. يا آنسة

أرسلت دوروثي مرسالاً لكن بعد فوات الأوان. بقيت مافيس فيه

حتى الثانية عشر. بعد ذلك شرحت السيدة كريفي لدوروثي بصورة شخصية أن مافيس كانت معتوهة بالولادة ـ أو كما صاغتها(رأسها ليس سليما.) ومن المستحيل تعليمها أي شيء. طبعاً السيدة كريفي لم تخبر أهلها الذي اعتقدوا أن ابنتهم متخلفة فقط. كل ما عليك أن تعطيها دفتر وقلم رصاص ولا تطلبي منها رسم أي شيء سوى الكلابات ـ تبقى هادئة ولسانها يتدلى من فمها ما بين الحبال والكلابات.

رغم هذه المصاعب الصغيرة فقد سار كل شيء بشكل جيد أثناء الأسابيع الأولى القليلة! لكنها كانت تنذر بالسوء في الحقيقة! في حوالي العاشر من تشرين الثاني، بعد تذمر حول أسعار الفحم، بدأت السيدة كريفي باستعمال الموقد في غرفة الصف. أشرقت فطنة الفتيات بشكل ملحوظ بعد أن أصبحت الغرفة دافئة وتوفرت ساعات حلوة في بعض الأحيان عندما تكون النار مشتعلة في حامل الموقد والسيدة كريفي خارج البيت والبنات يعملن بهدوء ومنهمكات في احد الدروس المفضلة لديهن وافضل تلك الأوقات عندما تقرا مجموعتا النخبة مكبث وتطلق البنات أصوات حادة بأنفاس محبوسة خلال المشاهد وتنتقدهن دوروثي كي يلفظن الكلمات بشكل صحيح وتخبرهن من هو زوج بيلونا وكيف تركب الساحرات على المكانس والبنات يرغبن بمزيد من المعرفة بتشويق كما لو كانت قصة بوليسية وكيف أتى بيرنام وود إلى دنسينان وكيف قتل مكبث على يد رجل لم تلده امرأة. تلك اللحظات هي التي تجعل التعليم يستحق العناء ـ الأوقات التي يثب فيها حماس الصغار مثل وهج مضاد يلبي حماسك وومضات ذكاء مفاجئة غير منظورة تكافئ كدحك السابق. ليس

هناك عمل ساحر أكثر من التعليم إن توفرت لك الحرية التامة فيه. ولم تعرف دوروثي ذلك بعد بأن هذه ال(لو) هي واحدة من أكبر ال(لوات) في العالم.

ناسبها عملها تماماً وكانت سعيدة به. عرفت عقول الصغيرات بشكل صريح هذه المرة وعرفت مزاياهن الفردية والحوافز الخاصة التي تلزمهن قبل أن تدفعهن للتفكير. أغرمت بهن أكثر مما كانت تتصور قبل وقت قليل واهتمت بتقدمهن وحرصت على بذل كل جهدها لهن. ملأ جهد التعليم المعقد الذي لا ينتهي حياتها كما فعلت أعمال الأبرشية عندما كانت في البيت. كانت تفكر وتحلم بالتعليم وأخذت كتباً من المكتبة العامة وقرأت نظريات عن التعليم وشعرت بالرغبة في الاستمرار في التعليم طول حياتها حتى لو كان الأجر عشر شلنات في الأسبوع واعتقدت أنه كان مهنتها إن ظلت الأمور هكذا.

ستشكل أي وظيفة تعمل بها راحة لها بعد العبث الرهيب لزمن فقرها المدقع. لكن هذه كانت أكثر من مجرد وظيفة؛ لقد كانت - هكذا بدت لها - رسالة وهدف حياة. محاولة إيقاظ العقول الكسولة لهؤلاء الصغار وتحطيم ذلك الخداع الذي فتك بهم باسم التعليم. - ذلك بالتأكيد شيء تستطيع أن تكرس له نفسها جسدا وروحا. لهذا في الوقت الحالي وبالاهتمام في عملها أهملت بهيمية العيش في بيت السيدة كريفي ونست تماماً وضعها الغريب والشاذ ومستقبلها المجهول.

٤

لكن لم يكن استمرار ذلك ممكناً طبعاً.

ولم تمض أسابيع كثيرة حتى بدأ الأهالي في التدخل ببرنامج عمل دوروثي. كانت مشكلة الأهالي جزء من الحياة الروتينية النظامية في المدارس الخاصة. كلهم يتضايقون من وجهة نظر المعلم وأهالي الصغار الذين في مدارس الدرجة الرابعة الخاصة غير معقولين إطلاقا. فهم من جانب ليس لديهم سوى فكرة غامضة جداً عن معنى وهدف التعليم ومن الجانب الآخر ينظرون إلى التدريس كما ينظرون إلى فاتورة اللحام أو السمان ويشكون دائماً بأنهم يتعرضون للغش. يقصفون المعلم بملاحظات مكتوبة سيئة يطالبون فيها بأشياء مستحيلة يرسلونها باليد ويقرأها الصغار في طريقهم إلى المدرسة. في نهاية نصف الشهر الأول جلبت إحدى أكثر الطالبات الواعدات وتدعى مابيل بريغز لدوروثي الملاحظة التالية:

آنستي العزيزة . هل يمكنك الإكثار من دروس الحساب؟ أشعر أن ما تعطينه للبنت غير عملي تماماً. كل هذه الخرائط وتلك. هي تريد شغل عملي وليس هذه الهلوسات. المزيد من دروس الحساب من فضلك. ودمت.

الوفي لك

جو بريغز

ملاحظة: تقول مابي أنك تتحدثين عن البدء بشيء يدعى الأعداد

العشرية. أنا لا أريدها أن تتعلم الأعداد العشرية، أريدها أن تتعلم الحساب.

لهذا أوقفت دوروثي تعليم الجغرافيا لمابيل وأعطتها دروسا إضافية في مادة الحساب فبكت مابي بسبب ذلك. وتلت تلك رسائل أخرى. انزعجت إحدى السيدات لأن ابنتها تقرأ شكسبير وسمعت أن شكسبير هذا كان كاتب مسرحيات وهل الآنسة ملبورو متأكدة تماماً من أنه لم يكن كاتباً فاسقاً ؟ كما أنها لم تذهب إلى السينما في حياتها قط أو المسرح وتشعر بأن في قراءة المسرحيات خطر الخ، الخ. استسلمت واطمأنت عندما أبلغت بأن السيد شكسبير ميتا وطلب ولي أمر آخر اهتماما خاصا في خط ابنته واعتقد غيره بأن اللغة الفرنسية مضيعة للوقت وتتالت الأمور على هذا المنوال إلى أن رتبت دوروثي بحرص جدولاً مخرباً تقريباً. لقد أوضحت لها السيدة كريفي تماماً بأن تلبي طلبات أولياء الطالبات مهما كانت أو تتظاهر بفعل ذلك. وفي حالات كثيرة كان ذلك شبه مستحيل فمثلا إن تدريس طالبة واحدة مادة الحساب بينما تدرس بقية الطالبات التاريخ أو الجغرافيا يفسد كل شيء. لكن كلام أولياء الطلاب هو القانون في المدارس الخاصة. وتتواجد تلك المدارس كالدكاكين التي تقوم على مداهنة زبائنها وإن رغب ولي أمر بأن لا يتعلم طفله سوى حروف الأبجدية سيجبر المعلم على الموافقة خشية أن يفقد طالبا.

في الحقيقة لقد زادت الحكايات التي تجلبها البنات إلى البيوت عن طريق دوروثي من تشوش الأهالي ولم يجدوا أي معنى في تلك الأفكار الجديدة العصرية وصنع الخرائط وقراءة الشعر وتعلقوا بالروتين الميكانيكي القديم الذي أرعب دوروثي كثيراً ووجده معقولاً جداً. أصبحوا أكثر حرناً وأترعت رسائلهم بكلمة (عملي)

التي عنوا بها المزيد من دروس الكتابة والحساب والذي اقتصرت فكرتهم عنه على الجمع والطرح والضرب و(التدريب) وإهمال عمليات القسمة الطويلة التي ترميك في رحلة مثيرة لا قيمة فعلية لها. فهم أنفسهم لا تستطيعون سوى القليل منهم جمع الكسور العشرية ولا يضيرهم أن تكون بناتهم مثلهم أيضاً.

لكن لو انحصر الأمر بذلك لما كان هناك أي مشكلة خطيرة. لو اكتفى الأولياء بتكيد دوروثي، كما يفعلون عادة، لكانت دوروثي تعلمت كما تعلم كل المعلمين. كيف تتجاهلهم وتسلم شرهم بإظهار قليل من البراعة. لكن هناك أمر واحد سيؤدي إلى مشكلة بكل تأكيد وهو أن كل الأولياء باستثناء ثلاثة منهم من المنشقين بينما كانت دوروثي انجليكانية. صحيح أن دوروثي فقدت إيمانها - فعلياً - في الشهرين الماضيين بعد نشر مغامراتها المختلفة ولم تفكر بإيمانها أو ضياعه لكن ذلك لم يشكل فرقاً كبيراً سواء كان المرء روماني أم انجليكاني، منشق أم يهودي، مسلم أم كافر فإنه يحتفظ بالعادات التي تربى عليها. لقد ولدت دوروثي وتربت في فناء الكنيسة ولم تقبل برأي المنشقين ولن تستطع تفادي عمل أشياء تسيء لبعض أولياء الأمور مهما حاولت ومهما كانت إرادتها.

في البداية كانت هناك مناوشة حول دروس الكتاب المقدس. إذ اعتادت البنات على قراءة فصلين من الإنجيل مرتين في الأسبوع. العهد القديم والعهد الجديد بالتناوب. وقال كثير من الأولياء في الرسائل التي بعثوها لدوروثي: نرجوك يا آنسة ميلبورو عدم إجابة أسئلة الطالبات حول مريم العذراء ويجب أن تقرأ النصوص التي عن مريم العذراء بصمت ودون مناقشة أو حذفها تماماً إن كان ذلك ممكنا.

لكن الذي صعد الموقف هو شكسبير ذلك الكاتب الفاسق. شقت البنات طريقهن في مكبث وكن متشوقات لمعرفة كيفية انجاز نبوءة الساحرات ووصلن إلى المقاطع الختامية. جاء بيرنام وود إلى دانسيان ـ لقد أكمل ذلك القسم ـ والآن ماذا عن الرجل الذي لم تلده امرأة؟ ووصلن إلى المقطع الحاسم:

مكبث: إنك تضيع الجهد هباء لإراقة دمي بهيئتك العدوانية وسيفك الحاد:

دع كل نصل سيفك القاطع يهوي على الخوذات غير الحصينة،

فأنا أحمل حياة مسحورة لا تستسلم

لأي رجل ولدته امرأة

مكدف: اقنط من سحرك،

ودع الملاك الذي تخدمه

يخبرك، بأن مكدف قد انتزع من رحم أمه قبل أوانه

بدت البنات في حيرة وساد صمت عابر ثم ملأت الغرفة جوقة من الأصوات:

ـ نرجوك يا آنسة، ماذا يعني ذلك؟

شرحت دوروثي الموضوع لكن بشكل غير كامل ومتقطع مع ريبة مخيفة مفاجئة ـ انتابها هاجس بأن هذا سيؤدي إلى مشكلة ـ لكنها تابعت الشرح، وأخيرا بدأت اللعبة

سأل نصف بنات الصف تقريباً أهلهن عندما عدن إلى البيت عن معنى كلمة (الرحم). حدثت جلبة مفاجئة، رفوف من الرسائل العاجلة، هزة كهربائية من الرعب تغلغلت في خمسة عشر بيتاً من بيوت المنشقين المحتشمين. عقد الأهالي في تلك الليلة ما يشبه الاجتماع

السري وفي المساء التالي وبعد انتهاء اليوم الدراسي زار وفد منهم السيدة كريفي. سمعت دوروثي بوصولهم فرادا وأزواجا وخمنت بما سيحدث. وفور انصراف البنات نادتها السيدة كريفي بصراخ عال من أسفل الدرج:

- اصعدي إلى هنا لدقيقة يا آنسة ملبورو!

صعدت دوروثي وهي تحاول السيطرة على ركبتيها المرتجفتين. في غرفة الضيوف الكالحة كانت السيدة كريفي واقفة بجانب البيانو وستة من الأهالي جالسين على الكراسي بشكل دائري مثل دائرة من المحققين. كان هناك السيد جو بريغز الذي كتب رسالة بخصوص مابيل وهو بائع خضار يقظ المظهر وزوجته السليطة الناشفة وهناك رجل ضخم يشبه الجاموس بشاربين متدليين وزوجته التي بلا لون ومسطحة جداً وكأنها سويت بضغط شيء ثقيل - ربما زوجها. لم تقدر دوروثي أن تعرف اسميهما وهناك أيضاً السيدة ويليامز أم الطفلة المعتوهة بالولادة وهي امرأة سمراء صغيرة وبليدة جداً كانت توافق دائماً على ما يقوله المتكلم الأخير وهناك السيد بيوندر وهو تاجر متنقل في أواسط عمره له وجه كئيب وشفتان متحركتان ورأس أصلع يغطيه بشعر رطب مقزز الصقه بعناية بالغة. على شرف زيارة الآباء أشعلت نار الموقد المكونة من ثلاث قطع كبيرة من الفحم.

أشارت السيدة كريفي إلى مقعد قاس وقف مثل كرسي التوبة وسط حلقة أولياء الأمور وقالت:

- اجلسي هناك يا آنسة ملبورو (جلست دوروثي) والآن استمعي فقط إلى ما سيقوله لك السيد بيوندر.

لدى السيد بيوندر الكثير من القول ومن الواضح أن الآباء قد

اختاروه ناطقاً باسمهم، وظل يتكلم حتى ظهرت بقع صفراء من الزبد في زوايا فمه والملفت للنظر أنه نجح بالقيام بكل العمل. كانت نظرته لآداب السلوك مهذبة - دون أن يذكر أبداً الكلمة التي سببت المشكلة ولو مرة وقال بالفصاحة السطحية لتاجر الشنطة

- أشعر بأنني أعبر عن رأي الكل. إن كانت الآنسة ميلبورو تعرف بـ أن مسرحية - مكدوف أو أي كان اسمها تحتوي على مثل هذه الكلمات التي نتكلم عنها الآن فيفترض منها أن لا تعطيها للبنات أبداً ومن المعيب من وجهة نظري أن تطبع مثل هذه الكلمات في الكتب المدرسية. أنا متأكد لو أي واحد منا عرف أن شكسبير من ذلك النوع لتوقفنا منذ البداية. يجب أن أقول بأن هذا قد أدهشني. صباح قبل الأمس كنت اقرأ في جريدة نيوز كرونيكل عن شكسبير بأنه أبو الأدب الانكليزي؛ حسنا، إن كان هذا هو الأدب فلنقلل منه وأعتقد أن الكل يوافقني في هذا. ومن الجانب الأخر إن كانت الآنسة ميلبورو لا تعرف بأن تلك الكلمة - حسنا، الكلمة المشار إليها - ستمر، كان ينبغي عليها أن تواصل ولا تهتم بشرحها. ليس هناك أي ضرورة لشرحها وما عليها سوى أن تطلب من البنات السكوت وعدم السؤال. تلك هي الطريقة المناسبة مع الصغار.

- لكن الصغيرات لن يفهمن المسرحية إن لم اشرحها! احتجت دوروثي للمرة الثالثة أو الرابعة.

- طبعاً لن يفهمن! أنت لم تفهمي قصدي، يا آنسة ميلبورو! لا نريد منهن أن يفهمن. هل تعتقدين أننا نريد منهن أن يلتقطن الأفكار القذرة من الكتب؟ الكثير من هذه الأفلام القذرة وصحف البنات الرخيصة التي يعثرن عليها - كل تلك القصص الغرامية الفاسدة

والقذرة - حسناً، لن أخوض في تفاصيلها. نحن لم نرسل أطفالنا إلى المدرسة لنزرع أفكاراً في رؤوسهم. أنا أتكلم نيابة عن كل الأهالي. كلنا أناس محتشمون ونخاف الله - بعضنا معمدانيون وبعضنا الآخر منهجيون ويوجد واحد أو اثنين من الكنيسة الانكليزية لكن يمكننا إخفاء خلافاتنا عندما يصل الأمر إلى هذا الحد ونحاول أن نربي بناتنا على الاحتشام وننقذهن من الواقع الحياتي حتي يصلن إلى الواحدة والعشرين من العمر.

كانت هناك موافقة عامة من الآباء وأضاف الرجل الجاموس بتأييد قوي:

- نعم أنا معك في ذلك يا سيد بويندر!

بعد معالجة موضوع شكسبير أضاف السيد بيوندر بعض الملاحظات حول أساليب دوروثي الجديدة في التعليم التي أعطت السيد جو بريغز الفرصة للمقاطعة من حين لآخر: (هذا هو المطلوب! الشغل العملي - ذلك ما نريد - الشغل العملي! وليس هذا الخلط من الشعر وصنع الخرائط ولصق قصاصات الورق وما شابهه. زيدي كمية الحساب والخط وأهملي البقية. شغل عملي!أنت قلته!)

استمر ذلك عشرون دقيقة تقريبا حاولت منذ بدايتها دوروثي أن تجادل لكنها رأت السيدة كريفي تهز رأسها من وراء كتف الرجل الذي يشبه الجاموس وفهمت بأنها إشارة كي تظل ساكتة. بمرور الوقت انتهى الأولياء واضعفوا دوروثي وأوشكت على البكاء وبعد ذلك استعدوا للمغادرة لكن السيدة كريفي أوقفتهم قائلة:

- بوفالو، دقيقة فقط، أيها السيدات والسادة بعد أن قلتم كل ما تريدونه - وأنا متأكدة بأنني سعيدة لأني أعطيتكم فرصة ذلك - أود

فقط قول شيء على حسابي - أنا - مسؤولة عن هذا العمل الكريه الذي حدث (وأضافت) أما أنت يا آنسة دوروثي فظلي هنا أيضاً!

التفت إلى دوروثي ولقنتها درساً حاقداً استمر عشر دقائق أمام الأهالي. الفكرة أن دوروثي جلبت هذه الكتب القذرة إلى المدرسة من وراء ظهرها وكانت تلك خيانة عظمى وإن تكرر حدوث شيء مثل هذا فسوف تطرد دوروثي ومعها أجر أسبوع في جيبها. أعادت ذلك التوبيخ المرة تلو الأخرى بعبارات مثل (البنت التي آويتها في بيتي وتأكل من خبزي وتعيش على إحساني.) جلس الأهالي يتفرجون ويمكن أن ترى في وجوههم البليدة - وجوه ليست قاسية أو شريرة بل متعبة من الجهل والفضائل الوضيعة - الاستحسان الجليل والمتعة المقدسة لمنظر توبيخ الخطيئة. أدركت دوروثي هذا وفهمت بأنه ينبغي على السيدة كريفي أن تلقنها درساً أمام الآباء كي يشعروا بأنهم نالوا قيمة أموالهم ويرضوا لكن التأنيب القاسي تواصل فاضطرم الغضب الشديد في قلبها لدرجة كانت تفكر بالوقوف وضرب السيدة كريفي على وجهها. فكرت كثيرا(أنا لن أتحمل ذلك، لن أتحمل أكثر من ذلك سوف أقول لها رأي فيها ثم اخرج من بيتها مباشرة!) لكنها لم تفعل شيئاً من هذا القبيل. رأت بكل وضوح عجز موقفها. مهما حدث ومهما كانت الإهانات يمكن هضمها ويجب أن تحافظ على وظيفتها. جلست هادئة بوجهها المهان المتورد وسط دائرة الآباء وعلى الفور تحول غضبها إلى بؤس وأدركت أنها ستنفجر بالبكاء إن لم تصارع لمنع ذلك لكنها أدركت أيضاً أن البكاء سيكون القشة الأخيرة وسيطالب الآباء بطردها بعده ولكي توقف نفسها حفرت أظافرها في راحتي يديها بقوة - وجدت فيما بعد نقاط من الدم.

انتهى التوبيخ بعد قليل بتأكيد من السيدة كريفي بأن هذا لن يحدث أبداً مرة أخرى وكتب شكسبير المنتهكة للحياء سوف تلاحق فوراً. سر الآباء بذلك كثيراً. نالت دوروثي درسها الذي ستستفيد منه بلا شك؛ لم يحملوا عليها أي حقد ولم يدركوا بأنهم أذلوها. ودعوا السيدة كريفي وودعوا دوروثي ببرود كبير وغادروا. نهضت دوروثي أيضاً لكن السيدة كريفي أشارت لها بالبقاء حيثما كانت.

- انتظري دقيقة فقط (قالت عندما غادر الآباء الغرفة) لم أكمل بعد وليس بالطريقة التي أريدها.

جلست دوروثي مرة أخرى. شعرت بالضعف الشديد في ركبتيها واقرب إلى البكاء من قبل. عادت السيدة كريفي بعد أن ودعت الآباء إلى الباب الأمامي بزبدية مملوءة بالماء ورشتها على النار - أين وجه الحكمة من حرق الفحم الجيد بعد ذهاب الآباء؟ شعرت دوروثي أن الدرس التأديبي سوف يبدأ من جديد. لكن يبدو أن غيظ السيدة كريفي برد - وتخلت عن الهيئة الحانقة التي كانت ضرورية أمام الآباء.

- أريد أن أتكلم قليلاً معك يا آنسة ميلبورو لقد حان الوقت لنسوي نهائياً كيفية تسيير أمور هذه المدرسة، قالت.

- نعم، قالت دوروثي.

- حسناً سأكون صريحة معك. عندما أتيت رأيت بأنك لا تعرفين مبادئ التعليم ولم أهتم بذلك لو كان لديك الحس العام فقط مثل أي فتاة أخرى لكن من الواضح أنك لا تملكينه. تركتك تتبعين طرائقك أسبوع أو اثنين وأول شيء فعلتيه هو تأليب الأهالي علينا. حسنا لن أسمح بحدوث ذلك ثانية. من الآن فصاعدا أنا سأسير الأمور بطريقتي

وليس بطريقتك. هل تفهمين ذلك؟

ـ نعم، قالت دوروثي ثانية.

ـ لا تظني أنني لا استطيع التخلي عنك (واصلت السيدة كريفي) يمكنني التقاط معلمات ببنسين في أي يوم من أيام الأسبوع وكلهن من حملة البكالوريوس. ولولا أن حملة الماجستير والبكالوريوس معتادون على الشراب لكانوا ـ حسناً، لا يهم ما ـ وسوف أقول إنك لست معتادة على الشرب أو أي شيء من هذا النوع. يمكنني القول بأن علاقتنا يمكن أن تكون جيدة إن تركت تلك الأفكار الحديثة وفهمت ما المقصود بالتعليم المدرسي العملي. لهذا اسمعيني فقط.

استمعت دوروثي. بوضوح باهر وبأكبر درجة من السخرية المقرفة اللامنطقية شرحت السيدة كريفي تقنية الخداع القذر لما سمته بالتعليم المدرسي العملي وبدأت:

ـ ما يجب عليك التحكم به بشكل دائم هو أن الشيء الوحيد المهم في المدرسة هو الرسوم وكل هذا الهراء عن تطوير عقول الصغار كما تسمينه غير موجود لا هنا ولا هناك. إن ما أسعى من أجله هي الرسوم وليس تطوير عقول الصغار. وفي النهاية إن الأمر ليس أكثر من حس عام. ليس من المفترض أن تتحملي عناء الاهتمام بمدرسة وبمجموعة من المزعجين الصغار التي تقلب البيت رأسا على عقب إن لم تجني قليل من الربح جراء ذلك. الرسوم أولا وكل الأشياء الأخرى تأتي بعدها. ألم أخبرك بذلك منذ اليوم الأول لمجيئك؟

ـ نعم، قالت دوروثي بتذلل.

ـ حسناً، إذاً من يدفع الرسوم هم الآباء لهذا يجب أن تفكري بهم. افعلي ما يريده الآباء هذه هي القاعدة هنا. يمكنني القول أن كل

هذا الفوضى من المعجون وقصاصات الورق التي عملت بها لم تسبب أي ضرر محدد للأطفال لكن لا يريدها الآباء ويجب وضع نهاية لها. حسنا، يريدون أولادهم أن يتعلموا موضوعين فقط هما الخط والحساب. وخصوصاً الخط. هذا شيء يمكنهم إدراك معناه. والخط شيء يجب أن تحافظي على مواصلته دائماً. مزيد من النسخ الأنيق الذي تستطيع البنات أخذه معهن إلى البيت ليعرضه الأهل على الجيران مما يعطينا دعاية مجانية. أريدك أن تعطي البنات ساعتين يومياً فقط في الكتابة ولا شيء غيرها.

- ساعتان من الكتابة فقط، كررت دوروثي صاغرة.

- نعم. والكثير من الحساب أيضاً. إن الأهالي أذكياء جداً في الحساب وخصوصا في جمع المبالغ المالية. ركزي اهتمامك على الآباء دائماً. إن التقيت بأحدهم في الشارع تمسكي به وابدئي بالتحدث عن ابنته وأوضحي إنها أفضل فتاة في الصف وان استمرت ثلاثة فصول دراسية أخرى في المدرسة ستصنع المعجزات. هل تفهمين ما أقصد؟ لا تقولي لهم ليس مجال لأي نوع من التحسن لأنك إن قلت لهم ذلك فسيأخذون بناتهم من المدرسة. بعد ثلاثة فصول دراسية أخرى فقط - هذا ما يجب قوله لهم وعندما تعدين تقارير نهاية الفصل ما عليك سوى أن تجلبيها لي لألقي نظرة عليها. أود أن أضع العلامات بنفسي.)

تلاقت عيون دووثي بعيون السيدة كريفي. كانت علو وشك أن تقول إنها كانت دائماً تتدبر أمر العلامات لكي تكون كل البنات قريبة من الأولى في الصف لكنها أحجمت. لم تستطع دورثي أن ترد للحظة وبدت خاضعة ومقهورة وشاحبة جداً من الخارج لكن في قلبها كانت تصارع لإخفاء الغضب والتمرد المهلك قبل أن تستطيع الكلام.

ربما لم تفكر في معارضة السيدة كريفي لأن الحديث فتت شجاعتها. ضبطت صوتها وقالت:

- سوف لن أعلم سوى الكتابة والحساب - أليس هذا هو المطلوب؟

- حسنا، أنا لم اقل ذلك بالضبط. هناك الكثير من المواد التي تبدو جيدة في الدليل. اللغة الفرنسية مثلا - الفرنسي جيد في الدليل لكنه لا يستحق صرف كثير من الوقت عليه. لا تحش عقول البنات بالقواعد والنحو والأفعال وكل هذه الأشياء. هذا الهراء الذي لا يعود بأي نفع عليهن في أي مكان وكما أرى علميهن عبارات مثل(هل تتكلم الفرنسية وومرر لي الزبدة وهكذا. ولا أعتقد أنك قوية في اللغة اللاتينية أليس كذلك؟

- كلا، اعترفت دوروثي.

- حسنا، لا يهم ذلك. ليس عليك تعليمه. لا يحب أولياء طالباتنا بأن تهدر بناتهم الوقت على اللغة اللاتينية. لكنهم يحبوا أن يروها على الدليل. طبعاً هناك الكثير من المواضيع التي لا نستطيع فعليا تعليمها لكن علينا أن نعلن عنها أسوة بغيرها مثل مسك الدفاتر والطباعة والاختزال بالإضافة إلى الرقص والموسيقى التي تبدو جيدة في الدليل كلها.

- الحساب والخط واللغة الفرنسية - هل هناك أي شيء آخر؟ قالت دوروثي.

- أوه، التاريخ والجغرافيا والأدب الانكليزي طبعاً. لكن احذ في صنع الخرائط فورا - ليست إلا مضيعة للوقت. أفضل ما يجب تعليمه بالجغرافيا قائمة بأسماء العواصم. اجعليهن يثرثرن بعواصم الأقاليم الانكليزية كلها كما لو أنها جدول الضرب. عندها سوف يستعرضن

ما تعلمنه بشكل ما وبالنسبة للتاريخ استمر بكتاب تاريخ بريطانية في مئة صفحة. لا أريد أن يتعلمن من تلك الكتب الكبيرة التي تستمرين في جلبها من المكتبة. فتحت أحد تلك الكتب قبل يوم أمس وكان اول ما رأيت قطعة منه تقول أن الانكليز هزموا في بعض المعارك. هناك أشياء جميلة تناسب تعليم الصغار! الأهالي لا يطيقون أن يتعلم أبناءهم مثل هذه الأشياء. يمكنني أن أقول لك ذلك!

- والأدب؟ قالت دوروثي.

- حسنا، طبعاً سيقومون ببعض القراءة ولا أعرف لماذا تكبرت على كتبنا الجميلة. اعملي بهن. إنها قديمة نوعاً ما لكنها مناسبة ومفيدة جداً لحفنة من الصغار وأعتقد أيضاً بأنهن يجب أن يتعلمن قطعاً قليلة من الشعر ويحفظنها عن ظهر قلب. بعض الآباء يحبون أن يقول أولادهم بعض الشعر. الولد الذي وقف على متن القارب المحترق - تلك قطعة جيدة وهناك تحطم السفينة البخارية هيسبيروس. قليل من الشعر بين الحين والآخر لا يضر. لكن أرجوك لا تعلمي أي شيء لشكسبير!

لم تشرب الشاي دوروثي في ذلك اليوم. لقد مر وقت الشاي منذ زمن بعيد وبعدما أنهت السيدة كريفي محاضرتها الرنانة أرسلت دوروثي دون قول أي شيء عن الشاي. ربما كان هذا عقاباً زائداً بسبب قضية مكبث.

لم تطلب دوروثي إذنا للخروج لكنها شعرت بعدم القدرة على البقاء في البيت أكثر من ذلك فتناولت قبعتها ومعطفها وانطلقت في طريق ضعيف الإضاءة إلى المكتبة العامة. كان الوقت أواخر شهر تشرين ورغم رطوبة النهار فقد عصفت الرياح في الليل بحدة كتهديد

عبر الأشجار شبه الجرداء مما جعل الأضواء الغازية تضطرب رغما عن أغطيتها الزجاجية وحركت الأوراق المتلبدة التي فرشت الرصيف. ارتجفت دوروثي قليلاً وأرسلت الريح القاسية ذكرى برد ساحة ترافيلغار في لب عظامها علما أنها لم تفكر بأن ترك وظيفتها يعني العودة إلى العالم نصف البشري الذي أتت منه . في الواقع لم تكن يائسة إلى ذلك الحد؛ بأسوأ الأحوال سيساعدها عمها أو شخص ما غيره لكن حديث السيدة كريفي قرب ساحة ترافيلغار كثيرا ودفعها إلى إدراك أعمق من ذي قبل للوصية الكبيرة الحديثة - الوصية الحادية عشر التي مسحت كل الوصايا الأخرى: (يجب أن لا تضيعي وظيفتك).

أما بالنسبة إلى ما قالته السيدة كريفي عن التعليم المدرسي العملي فهو ليس سوى مواجهة واقعية للحقائق لقد عبرت بصوت علي عما يفكر فيه أغلب الناس الذين في موقعها ولم يكشفوه. كانت عبارتها المتكررة(الرسوم هي ما اسعى إليه) شعار يمكن أن يكون - أو يجب أن يكون - مكتوب فوق باب كل مدرسة خاصة في انكلترا.

كان هناك، بالمناسبة، عدد واسع من مدارس الدرجة الثانية والثالثة والرابعة الخاصة في انكلترا (بيت رينغوود عينة من مدارس الدرجة الرابعة) التي تواجدت بالعشرات في كل ضواحي لندن وبلداتها الريفية. في أي لحظة تجد في مكان ما من مناطق الجوار عشرات الآلاف منها لكن التي تخضع للرقابة الحكومية أقل من الألف ويتفاوت مستواها من قسم إلى أخر وهناك عدد محدود منها أفضل من مدارس المجالس التي تنافسها لكن كلها تعاني من نفس الآفة الأساسية أي خلوها من أي هدف جوهري سوى كسب المال وتفتح

غالبا - إن لم يكن هناك عائق غير قانوني - بنفس الروح التي يفتح فيها المرء بيت دعارة أو محل قواديس. (من العادي تماماً في هذه المدارس أن يكون ملاكيها غير متعلمين) يقول رجل أعمال بغيض صغير الحجم لزوجته في صباح ما:

- خطرت لي فكرة يا ايما! ما رأيك بأن نفتح مدرسة، ها؟ تدر المدارس سيولة كثيرة كما تعرفين ولا يشبه العمل فيها عمل الدكان أو الحانة بالإضافة أنك لا تخاطرين بشيء وليس هناك أي شيء غامض تقلقين منه ماعدا عدد قليل من المناضد والألوح. لكننا سنجعلها عصرية ونجلب أحد فتيان أكسفورد وكامبريدج بما إنهم بلا وظائف نعم سيأتي بأجر رخيص ونلبسه عباءة و. ماذا يسمون المربع الصغير (قبعات بشرائط زينة برأسها؟ ذلك سيجلب الآباء، أليس كذلك؟ افتحي عينيك وابحثي لتجدي منطقة جيدة ليس فيها كثير من المدارس الداخلة في اللعبة مسبقا.

ويختار منطقة في واحدة من مناطق الطبقة المتوسطة حيث يتواجد فيها ناس لا يستطيعون توفير رسوم المدارس المحترمة بسبب فقرهم ولا يرضون بإرسال أولادهم إلى مدارس المجالس ويبدأ. وبالتدريج يشكل علاقات بنفس الطريقة التي يقوم بها بائع الحليب أو البقال وان كان ماكرا وبارعا ولم يكن له منافسين فإنه يجمع بضع مئات من الطلاب في سنة واحدة.

بالطبع ليست كل هذه المدارس متشابهة وليس كل المدراء مثل الطماعة السليطة السيدة كريفي فهناك كثير من المدارس جوها العام مقبول ولائق والتعليم فيها جيد بقدر ما هو متوقع من رسوم قدرها خمس جنيهات في الفصل الدراسي الواحد. لكن بعضها

فضائح مجلجلة، ففي وقت لاحق تعرفت دوروثي على معلمة في مدرسة خاصة أخرى في ساوثبريدج وسمعت حكايات عن المدارس أسوأ بكثير مما كان يحدث في رينفوود هاوس. سمعت عن مدرسة داخلية رخيصة حيث يتخلص الممثلون المتنقلون من أولادهم ويضعونهم فيها كما ترمى الأمتعة في حجرة الإيداع في محطات السكك الحديدية ويعيش الأولاد فيها دون القيام بأي شيء ويبلغوا سن السادسة عشر دون أن يتعلموا القراءة؛ ومدرسة أخرى حيث يمر اليوم في شغب مستمر ومدير يطارد الأولاد هنا وهناك بفأس عاطلة ويضربهم بعصا لكنه ينهار فجأة ويبكي ورأسه على المنضدة وسط ضحك الأولاد عليه. طالما أن المدارس تهدف إلى جمع المال بشكل أساسي ستظل هذه الأشياء تحدث. إن المدارس الباهظة الكلفة التي يرسل الأغنياء أولادهم إليها ليست بهذا السوء ظاهريا لقدرتها على توفير طاقم تدريسي مناسب ونظام امتحانات المدارس العامة يبقيها بمستوى جيد لكنها تظل ملطخة بنفس العيب الجوهري.

لم تكتشف دوروثي هذه الحقائق عن المدارس الخاصة حتى وقت متأخر. في البداية عانت من خوف سخيف بأن يحل المفتشون يوما ما على رينفوود هاوس ويكتشفوا مدى الغش والخداع فيها ويزيلوا غبار الزيف لكنها علمت فيما بعد أن ذلك لن يحدث أبداً لأن مدرسة رينفوود هاوس لم يكن معترف بها لذلك فهي غير خاضعة للتفتيش. في احد الأيام زار موظف حكومي المدرسة لكنه لم يفعل شيء تعدى قياس أبعاد غرفة الصف ليرى إن كانت الطالبات يحصلن على عدد الأقدام المكعبة من الهواء المخصص لكل واحدة؛ ليس لديه سلطة لعمل أكثر من ذلك. تخضع قلة صغيرة من المدارس معترف بها فقط.

اقل من واحد بالعشرة - لاختبارات تقرر إن كانت تحافظ على معيار تعليمي معقول. أما بالنسبة للمدارس الأخرى فلها كامل الحرية في أن تعلم أو لا تعلم كما تريد بالضبط. لا احد يفتش عليها أو يضبطها سوى الآباء - عميان يقودون عميانا.

٥

بدأت دوروثي بتغيير جدولها الدراسي في اليوم التالي بناء على أوامر السيدة كريفي. الدرس الأول في اليوم خط والثاني جغرافيا. وقالت دوروثي عندما دقت الساعة العاشرة:

ـ هذا يكفي يا بنات. سنبدأ بدرس الجغرافيا الآن

فتحت البنات أدراجهن ورمين داخلها دفاتر الكتابة المقيتة وأطلقن تنهدات ارتياح مسموعة وسمعت همهمة أوه جغرافيا! جيد! لقد كانت من دروسهن المفضلة. قفزت البنتان المرشدتان الأسبوعيتان ـ وظيفتهما تنظيف اللوح وجمع كتب التمارين وغيره وتتقاتل التلميذات للقيام بهذا النوع من الأعمال ـ من مكانيهما لتحضرا الخارطة شبه المنتهية المستندة على الجدار. لكن دوروثي أوقفتهما.

ـ انتظرا لحظة، اجلسا كليكما. لن نواصل العمل في الخارطة هذا الصباح.

علت صيحة رعب:

ـ أوه، لماذا لا يا آنسة؟ نرجوك دعينا نستمر فيها.

ـ لا. أخشى بأننا أضعنا وقتاً كثيراً في العمل على الخارطة. سوف نبدأ بدراسة بعض عواصم الأقاليم الانكليزية وأريد من كل طالبة منكن أن تعرفها كلها بنهاية الفصل

تدلت وجوه الفتيات. رأت دوروثي ذلك وأضافت بمحاولة ذكية

جوفاء من ذكاء المعلمين المكشوف في محاولة لإخفاء المادة المملة وتقديمها على إنها مادة ممتعة:

ـ فقط فكرن كم سيكون سرور اهلكن كبيرا عندما يسألونكن عن عواصم الأقاليم الانكليزية وتعرفن الإجابة عليها كلها!

لم تنطل الخدعة على البنات وتضورن من الرأي المقزز:

ـ (أوه، عواصم! تعلم العواصم! ذلك ما كنا نفعله مع الآنسة سترونغ. نرجوك يا آنسة، لماذا لا نستطيع الاستمرار بصنع الخارطة؟

ـ لا أريد جدالاً الآن. اخرجن دفاتركن واكتبن كما أملي وبعد ذلك سنقولها معاً.

سحبت البنات دفاترهن بتردد وهن يدمدمن:

ـ نرجوك يا آنسة هل نستطيع المواصلة بالخارطة الدرس القادم؟

ـ لا أعرف. سنرى

في ذلك المساء أزيلت الخارطة من غرفة الصف وكشطت السيدة كريفي المعجون عن اللوح ورمته وحدث نفس الأمر مع المواد التالية الواحدة تلو الأخرى وضاع كل التغيير الذي أحدثته دوروثي. عادت البنات إلى روتين النسخ وتمارين الجمع التي بلا نهاية والى التعلم الببغائي من مرر لي الزبدة وابن الجنايني فقد قبعته، إلى كتاب التاريخ الانكليزي المؤلف من مئة صفحة وكتاب (القارئ) الذي لا يطاق. أما السيدة كريفي فقد حجزت كتب شكسبير زاعمة حرقها والاحتمال أنها باعتها. خصصت ساعتان باليوم لدروس الخط. عادت أيضاً قطعتي الورق الأسود الكئيب التي أزالتهما دوروثي عن الجدار إلى مكانيهما وكتبت عليهما الأقوال المأثورة بخط جديد وأنيق ثانية.

أما الجداول التاريخية فقد نزعت وحرقت.

عندما أدركت الطالبات أن الدروس التي كرهنها والتي اعتقدن بنجاتهن منها إلى الأبد تعود الواحد تلو الآخر اندهشن في البداية ثم أحسسن بالبؤس والنكد. لكن الوضع كان أصعب على دوروثي مما كان على البنات. بعد يومين من الهراء الذي كانت ملزمة في إقحامهن فيه شعرت بالاشمئزاز وبدأت تشك إن كانت لديها المقدرة على الاستمرار في ذلك وتأملت بشكل غير جاد فكرة السيدة كريفي المرة تلو الأخرى. لماذا لا ، بما إن البنات يأسن ويستتكرن ويرزحن تحت عبء عبوديتهن التعيسة ـ لماذا لا توقف الهراء وتعود إلى الدروس المناسبة حتى لو كان درساً واحداً أو اثنين في اليوم؟ لماذا لا تحذف كل دروس الخداع وتترك البنات يلعبن فقط؟ سيكون ذلك أفضل لهن من هذا. دعهن يرسمن صورا أو يصنعن أشياء من العجينة أو يؤلفن خرافات ـ أي شيء حقيقي، أي شيء يمتعهن بدلاً من الهراء المرعب. لكنها لم تجرؤ ويتوقع حضور السيدة كريفي في أي لحظة وإن وجدت البنات (يعبثن بدلا من مواصلة عملهن الروتيني ستحدث مشكلة مخيفة. لهذا قست دوروثي قلبها وتقيدت بأوامر السيدة كريفي حرفيا وأصبحت الأشياء أسوأ مما كانت في زمن الآنسة سترونغ عندما بوغتت.

وصلت الدروس إلى حد من الملل أصبح فيها أبهج وقت في الأسبوع ما يسمى بحصة الكيمياء التي يعطيها السيد بوث بعد ظهر يوم الخميس. كان السيد بوث رجل متوعك الصحة ومرتعش في حوالي الخمسين من عمره بشاربين طويلين رطبين لونهما كلون روث البقر. عمل معلما في مدرسة حكومية في وقت ما لكنه يعمل حاليا بإعطاء

الدروس باثنين وست بنسات للدرس الواحد لكسب قوت حياته كشبه سكير مزمن. كانت دروسه عبارة عن هراء مزعج. حتى في ازهى أيامه لم يكن السيد بوث محاضراً رائعاً والآن وبعد جولته الأولى من الرعاش الهذياني يعيش في خوف يومي من الجولة الثانية ومهما كانت معرفته الكيميائية فإنها قد هجرته إلى الأبد. يقف مرتجفاً أمام الصف مكرراً نفس القول المرة تلو الأخرى ويحاول جاهداً أن يتذكر ما كان يتحدث به. (تذكرن يا بنات) يقول بصوته الأبوي المنتظر الأجش بأن عدد العناصر ثلاثة وتسعون ـ ثلاثة وتسعون عنصرا، يا بنات، انتن كلكن فقط – ثلاثة – وتسعون ـ أليس كذلك؟) إلى أن تشعر دوروثي بالخزي نيابة عنه ـ كان يجب عليها أن تبقى في غرفة الصف أثناء محاضرات الكيمياء لأن السيدة كريفي ترى بأنه لا يجوز ترك الطالبات مع رجل لوحدهن). كانت كل محاضراته تبدأ بالعناصر الثلاث والتسعين ولا تتعداها أبدا. كان هناك حديث عن (تجربة صغيرة ممتعة سأحضرها لكن الأسبوع القادم، سوف تجدنها رائعة يا بنات ـ سوف نأخذها الأسبوع القادم بالتأكيد ـ تجربة صغيرة ممتعة جدا) التي لا حاجة للقول بأنها لم تنفذ أبدا. ليس عند السيد بوث عدة كيمياء ويداه المرتجفتان جداً لا تمكنانه من استخدامها حتى لو توفرت وتجلس الفتيات في محاضراته في سبات ممل لكنه كان محل ترحيب حار كتغيير لدروس الخط.

لم تظل البنات مع دوروثي كما كن بعد زيارة الآباء. لم يتبدلن في ليلة وضحاها طبعاً. ازداد ولعهن بالعجوز ميلي وتوقعن أنه بعد يوم أو يومين من تعذيبهن بدروس الخط والحساب التجاري ستعود إلى شيء ممتع. لكن باستمرار دروس الخط والحساب تلاشت بالتدريج

شعبية دوروثي التي نعمت بها كمعلمة تعطي دروساً غير مملة ولا تصفع وتقرص وتلوي الأذان. إضافة إلى أن قصة الشغب التي حدثت حول مسرحية مكبث لم تظل طويلا حتى تسربت. أدركت البنات بأن العجوز ميلي قد ارتكبت خطأ ما - لم يعرفنه بالضبط - أدى إلى قيل وقال(محاضرة) أنزلت مكانتها بنظرهن. لا يمكن التعامل مع الصغار حتى المولعين بك إلا إذا حافظت على هيبتك كشخص بالغ وإن اتلف هذا المقام مرة فإن أطيبهم يحتقرك.

لهذا بدأن باحتقار دوروثي بالطريقة العادية التقليدية. كان على دوروثي سابقا التعامل مع الكسل العرضي وانفجارات الضجة ونوبات القهقهة السخيفة لكن أضيف إليها الآن الحقد والمخاتلة أيضاً. استمر تمرد البنات دون توقف ضد الروتين الفظيع. لقد نسين الأسابيع القصيرة التي كانت ميلي الكبيرة فيها شخص جيد جداً والمدرسة نفسها أقرب إلى التسلية. عادت المدرسة الآن إلى ما كانت عليه من قبل، وماذا تتوقع أن تكون - مكان للارتخاء والتثاؤب وقتل الوقت بقرص جارك ومحاولة إخراج المعلمة عن طورها ولحظة انتهاء الدرس يطلق هتاف الارتياح. أحيانا كن يرفضن الكلام وتتنابهن نوبات من البكاء وأحياناً أخرى يجادلن بالطريقة الملحة المخبلة التي يملكها الصغار مثل لماذا يجب أن نفعل هذا؟لماذا يجب أن يتعلم الجميع القراءة والكتابة؟ المرة تلو الأخرى إلى أن تقف دوروثي فوقهن وتسكتهن بالتهديد بالضرب. ازداد إدمانها على سرعة الهياج الآن وأدهشها ذلك وصدمها لكنها لم تستطع إيقافه. كل صباح كانت تقسم لنفسها(لن افقد هدوئي اليوم) لكنها تفقد أعصابها كل صباح بانتظام ضاغط خصوصا في حوالي الساعة الحادية عشرة عندما

تكون البنات في أسوأ حالاتهن. لا شيء في العالم يثير الأعصاب أكثر من التعامل مع الصغار المتمردين. لقد عرفت دوروثي أنها ستفقد السيطرة على نفسها وتبدأ بضربهن عاجلا أم آجلا. بدا لها أن ضرب الأطفال شيء لا يغتفر لكن كل المعلمين تقريبا يصلون إلى هذه المرحلة في النهاية. أصبح من المستحيل أن تدفع أي من البنات إلى العمل إلا إذا راقبتها وبمجرد أن تدير ظهرها للحظة تتطاير كرات الورق المبقعة بالحبر في الصف ذهابا وإيابا. رغم ذلك وبدفع عبودي لا يتوقف أبدن بعض التحسن في الخط والحساب الذي أرضى الآباء بلا شك.

كانت الأسابيع الأخيرة من الفصل الدراسي سيئة جدا. ظلت دوروثي مفلسة تماماً أكثر من نصف شهر لأن السيدة كريفي أخبرتها بأنها لن تستطيع أن تدفع لها أجرها حتى تأتيها بعض الرسوم. لهذا حرمت من ألواح الشوكولا السرية التي كانت تمدها بالبقاء وعانت من جوع خفيف دائم سبب لها الفتور والكآبة. مرت الدقائق وكأنها ساعات في صباحات ثقيلة كثيرة وهي تصارع نفسها لتمنعها من النظر إلى الساعة الجدارية وسئم قلبها من التفكير بالدرس الآخر الذي يلوح بعده درس أخر مثله تماماً بل الكثير منها والتي تمتد إلى ما يشبه الأبدية الموحشة. كان الأسوأ عندما تكون البنات في مزاجهن الصاخب ويلزم جهد مرهقا ومستمر من الإرادة لا بقائهن تحت السيطرة بأي شكل وخلف الجدار تترصدها السيدة كريفي المستعدة دائماً للهبوط في الغرفة بعد ان تلوي الباب وتفتحه بقوة وتحملق في أرجاء الغرفة مع عبارة (والآن! لماذا كل هذه الضجة؟) ويلوح الطرد في عينيها.

أدركت دوروثي تماماً الآن شناعة العيش في بيت السيدة كريفي.

بدا الطعام الفاسد والبرد وقلة الاستحمام أهم بكثير مما كانت سابقا. فضلا على أنها بدأت تقدر العزلة المطلقة لوضعها التي لم تفكر بها من قبل عندما كانت تستمتع ببهجة عملها الطازجة. لم يكتب لها والدها ولا السيد ورييرتون كما أنها لم تجد أي صديقة واحدة في ساوثبريدج في الشهرين المنصرمين. كل شخص كان في وضع يستحيل فيه العثور على أصدقاء وخصوصا النساء. هي بلا مال ولا بيت وملجأها الوحيد خارج البيت هو المكتبة العامة في الأمسيات القليلة إضافة إلى الكنيسة صباح أيام الأحد. كانت تذهب إلى الكنيسة بانتظام طبعاً لأن السيدة كريفي أصرت على ذلك. لقد حددت مسألة طقوس دوروثي الدينية عند الإفطار منذ صباح أول يوم احد لها وقالت:

ـ كنت أتساءل عن أي مكان عبادة يجب أن تذهبي إليه؟ اعتقد انك تربيت على الكنيسة الانكليزية، أليس كذلك؟

(نعم،) قالت دوروثي.

(هممم، حسنا، لا يمكنني أن أقرر أين سأرسلك. هناك كنيسة القديس جورج ـ كنيسة انكليزية وهناك الكنيسة المعمدانية التي اذهب إليها نفسي. أكثر الآباء عندنا من المستقلين ولا اعرف إن كانوا يستحسنون ذلك من المعلمة. لا يمكنك إلا أن تكوني حذرة جداً من الآباء. لقد أصابهم قليل من الذعر قبل سنتين عندما ثبت أن المعلمة التي كانت عندي آنذاك من الرومان الكاثوليك، العفو منك! بالطبع حاولت أن تخفي ذلك بقدر ما استطاعت لكنها انكشفت في النهاية واخرج ثلاثة من الآباء بناتهم من المدرسة فتخلصت منها بنفس اليوم الذي كشفتها فيه طبعاً.

كانت دوروثي صامتة. وتابعت السيدة كريفي:

ـ رغم ذلك لدينا ثلاثة من الطالبات سي من اي وأنا لا اعرف لماذا، يحب أن لا تثير صلة الكنيسة المشاعر. لهذا ربما تفضلين المخاطرة بالذهاب إلى كنيسة القديس جورج. لكنك عليك أن تكوني حذرة. قيل لي أن كنيسة القديس جورج واحدة من الكنائس التي يقيمون فيها كثير من الركوع والتصليب والكشط وغيره من الأمور. لدينا اثنان من الآباء من بلايموث برذرز وسيصعقون إن شاهدوك تضعين إشارة الصليب على نفسك لهذا لا تذهبي ولا تفعلي ذلك)

ـ حسنا جدا، قالت دوروثي.

ـ وابق عينيك مفتوحتين دائماً أثناء الخطبة. الق نظرة جيدة حولك وتأكدي من عدم وجود أي بنت تلاحظك من جماعة المصلين. إن رأيت أيا منهن، اذهبي إلى القس بعد ذلك وحاولي أن تعرفي أسماءهن وعناوينهن.

لهذا ذهبت دوروثي إلى كنيسة القديس جورج. كانت مظللة أكثر من كنيسة القديس اثليستان مقاعدها عادية وليست طويلة ودون بخور أما القس ـ السيد غور وليامز ـ فيرتدي سترة كهنوتية غير مزخرفة ورداء ابيض باستثناء أيام الأعياد. بالنسبة للصلوات كانت مثل التي تقوم بها دوروثي في البيت وتستطيع فهم كل الصلوات بتجرد مطلق والتعبير عن كل الإجابات بالوقت المناسب. لم ترجع إليها قوة إيمانها ولو للحظة. في الواقع لم يعد لمفهوم العبادة كله أي معنى بالنسبة لها وتلاشى إيمانها تماماً وبشكل لا يمكن استرداده. إن ضياع الإيمان شيء غامض كالإيمان نفسه. إن الإيمان غير متأصل في المنطق أساسا وهو تغير في مناخ العقل. لكن مهما عنت لها صلوات

الكنيسة فهي ليست نادمة على الساعات التي أمضتها فيها وعلى العكس من ذلك فقد تطلعت إلى صباح أيام الأحد كفاصل من السلام وليس لأن صباح الأحد مجرد فترة راحة من تجسس السيدة كريفي ونقها. في إحساس آخر أعمق كان جو الكنيسة يهدئها ويطمئنها. لقد أدركت وجود شيء من الصعب تعريفه في كل ما يحدث في الكنيسة ومهما كان قصده سخيفا لكنه شيء من الحشمة والجمال الروحي الذي يصعب العثور عليه في العالم الخارجي وبدا لها إن الذهاب إلى الكنيسة أفضل حتى لو لم تعد تؤمن ؛ إن إتباع الطرق العتيقة اسلم من الانجراف في حرية عديمة الجذور. لقد عرفت جيدا أنها لم تعد قادرة أبداً أن تنطق بالصلاة وتعنيها لكنها يجب أن تستمر في الشعائر والطقوس النى تربت عليها لآخر يوم في حياتها. إن ما بقي من إيمانها الذي كان يهيمن على كل حياتها شيء يشبه العظام في الكائن الحي.

لم تفكر للآن بشكل عميق في خسارة إيمانها وما سيعني ذلك لها في المستقبل. كانت مشغولة جداً بصراع البقاء وبمحاولة الاحتفاظ بالسيطرة على أعصابها حتى نهاية الفصل الدراسي الذي اقترب من نهايته وأصبحت مهمة ضبط الصف منهكة جدا. تصرفت البنات بوحشية وكن عدوات لدودات لدوروثي لأنهن تولعن بها مرة وشعرن بأنها خدعتهن. بدأت معهن بسلوك مهذب ثم انقلبت وصارت حيوانية مثل المعلمة القديمة وغيرها ـ حيوان كريه تستمر بإعطاء دروس الخط المثيرة للقرف وترد بعنف وجفاء إن كانت هناك لطخة حبر على الكتاب. لقد أمسكت بهن دوروثي وهن ينظرن إلى وجهها أحيانا بتفحص الصغار القاسي الذي لا رحمة فيه. كانت بنظرهن معلمة

ظريفة أما الآن فهي عجوز شمطاء هزيلة الجسم. لقد ازدادت نحافتها بالفعل منذ أن أتت إلى رينغوود هاوس. كرهنها الآن مثلما كرهن المعلمات السابقات وضايقنها بشكل متعمد تماماً أحيانا. عرفت البنات الكبيرات والأكثر ذكاء الوضع تماماً بأن ميلي أصبحت تحت سيطرة السيدة العجوز كريفي وسقطت عندما أصدرن ضجيجا هائلا؛ تعمدن أحيانا بإصدار كل الضجيج الذي يجرؤن عليه لكي يحضرن السيدة العجوز كريفي إلى الصف ويستمتعن بمراقبة وجه ميلي حين تطلب منها العجوز كريفي الخروج. لقد تمكنت دوروثي من الاحتفاظ بهدوئها ومسامحتهن جميعا على كل أفعالهن مرات كثيرة لأنها تأكدت بأن الغريزة السليمة هي التي تدفعهن للتمرد على رتابة عملهن المثير للاشمئزاز لكنها مرت بأوقات أخرى كانت فيها أعصابها على الحافة وهي تنظر إلى عشرين وجه من الوجوه الغبية الصغيرة المستهزئة او المتمردة فوجدت أن كرههن ممكنا. الصغار عميان وأنانيون جداً ودون رحمة ولا يعرفون متى يعذبونك إلى درجة تتجاوز القدرة على التحمل وحتى لو عرفوا فإنهم لا يهتمون بذلك. حتى لو استطعت أن تفعل كل وأفضل ما بوسعك من اجلهم وسيطرت على أعصابك كقديس فإنهم سيكرهونك إن أجبرت على قمعهم وإضجارهم دون أن يسالوا أنفسهم إن كان اللوم يقع اللوم عليك أم عليهم وان لم تكن معلما ستبدو لك هذه الأبيات صحيحة وحقيقية:

- تحت رقابة قاسية وتهديديه
- يمضي الصغار يومهم
- في تحسر وفزع!

لكن حين تكون أنت المراقب القاسي والمهدد تدرك أن للصورة

وجه آخر.

جاء الأسبوع الأخير ونفذ الامتحان المهزلة. كان النظام، كما شرحته السيدة كريفي، بسيط جدا. تدرب المعلمة البنات على سلسلة من عمليات الجمع حتى تتأكد أن كل فتاة يمكنها حلها ثم تضع نفس هذه العمليات على ورقة أسئلة الحساب قبل أن يتسنى لهن الوقت لنسيان الإجابات وهكذا يتكرر الأمر مع كل مادة بدورها وترسل أوراق الطالبات إلى الآباء للمعاينة طبعاً. وكتبت دوروثي التقارير بناء على ما تمليه السيدة كريفي وكتبت كلمة ممتاز مرات كثيرة وكما يحدث أحيانا عندما تكرر كتابة كلمة ما كثيرا فإنك تنسى تهجيتها فبدأت تكتبها بإنقاص أو تبديل بعض الحروف.

مر اليوم الأخير بجلبة مخيفة ولم يكن بمقدور السيدة كريفي نفسها فرض الالتزام بالنظام على الأولاد وفي منتصف النهار تلفت أعصاب دوروثي ولقنتها السيدة كريفي محاضرة أمام الطالبات السبعة اللواتي بقين في المدرسة لتناول الغداء. كان الصوت أسوأ من قبل فانهزمت دوروثي أخيرا وناشدت البنات للتوقف وهي توشك على البكاء وصاحت بأعلى صوتها لتسمع في الضجة:

- يا بنات! أرجو أن تتوقفن عن الصراخ وعن التصرف بشكل مرعب معي. هل تعتقدن أن الاستمرار في ذلك أمر لطيف؟

كان ذلك خطأ قاتلا طبعاً. لا ترم نفسك أبداً تحت رحمة طفل! خيم صمت مفاجئ ثم صاحت إحدى البنات بصوت عال وساخر ميل - لي! وفي اللحظة التالية بدأ كل الصف يصيح حتى المعاقة مافيس في الإنشاد معا(ميل - لي! ميل - لي لميل - لي!) عند ذلك بدأ شيء داخل دوروثي بالفرقعة. توقفت لحظة ثم اختارت الفتاة التي كانت تصدر

أكثـر الضـجيج، مشـت نحوهـا ولطمتهـا علـى أذنهـا بأقسـى مـا استطاعت. لحسن الحظ كانت واحدة من بنات (الدافعين المتوسطين).

٦

في اليوم الأول من العطلة تسلمت دوروثي رسالة من السيد وربيرتون.

عزيزتي دوروثي [كتبا] - أو هل أخاطبك بهيلين لأنني فهمت بأنه اسمك الجديد؟ أخشى أنك ظننت بأنني عديم الرحمة لأنني لم اكتب لك قبل ذلك، لكن أؤكد لك بأني لم اعرف عن فرارنا المزعوم إلا منذ عشرة أيام. لقد كنت خارج البلاد، أولا في أجزاء مختلفة من فرنسا ثم في النمسا ومن بعد في روما، وكما تعرفين فأنا أتحاشى أبناء بلدتي بأقصى شكل في تلك الرحلات فهم مقرفين كفاية في البلد لكن سلوكهم في البلدان الأجنبية يشعرني بالخزي لذلك أتظاهر عادة بأنني أمريكي.

عندما وصلت إلى نايبهل رفض والدك استقبالي لكن استطعت الإمساك بالأب ستون فأعطاني مترددا عنوانك والاسم الذي تستخدمينه الآن. جمعت بأنه كغيره من المدينة السامة لا يزال يعتقد بأنك أسأت التصرف بحق نفسك بشكل ما. اعتقد أن نظرية فرارنا قد خفت لكن الناس يشعرون بأنك قمت بشيء مشين. حين تترك امرأة شابة البيت فجأة يجب أن يكون هناك رجل في القضية؛ تلك هي الطريقة التي يفكر فيها السكان المحليون. ليس هناك ضرورة كي أخبرك أنني أنكرت صحة القصة برمتها بأقصى قوة وسوف يسرك

سماع نجاحي في عزل العجوز الشمطاء السيدة سيمبريل وأعطيتها جزءا من أفكاري وأؤكد لك انه جزء مرعب جداً من أفكاري لكن هذه المرأة دون مستوى البشر. لم استطع الحصول منها على شيء سوى العويل الكاذب على المسكينة دوروثي.

سمعت بأن والدك يفتقدك كثيرا جداً وتسره عودتك إلى البيت ثانية لولا الفضيحة. وجباته ليست منتظمة بدقة هذه الأيام وكشف بأنك رحلت لتتعافى من مرض خفيف وحصلت الآن على منصب وظيفي ممتاز في مدرسة للبنات وسوف تندهشين لسماع أحد الأشياء التي حدثت له. لقد اجبر على سداد كل ديونه! سمعت بأن دائنيه هبوا دفعة واحدة وعقدوا اجتماع في بيت الكنيسة. لم يكن يحدث هذا في بلومستيد ايبسكوبي . لكن هذه أيام الديمقراطية، وا حسرتاه! أنت الشخص الوحيد الذي كان يبعد الدائنين عنه دائماً.

أما الآن فيجب أن أخبرك بعضا من أخباري، الخ، الخ، الخ.

عند هذه النقطة مزقت دوروثي الرسالة في خيبة أمل وانزعاج واعتقدت انه من المفروض أن يبدي تعاطفا. كأن السيد وربيرتون هو الذي ورطها في هذه المشكلة الخطيرة وظل وقحا جداً ولا مباليا وهو من يقع عليه اللوم جراء ما حدث أولا وأخيرا. لكن عندما فكرت بالمسألة مليا برأته من عدم الرحمة. لقد فعل اقل ما يمكنه لمساعدتها وليس متوقعا منه أن يشفق على المشاكل التي لم يسمع بها. بالإضافة إلى أن حياته الخاصة كانت سلسلة من الفضائح المدوية وربما لم يقدر أن يفهم أن الفضيحة بالنسبة للمرأة مسألة خطيرة.

لم يكتب والد دوروثي لها في عيد الميلاد أيضاً وإنما بعث لها بجنيهين هدية عيد الميلاد. أوضحت نغمة الرسالة بأنه غفر لها في هذا

الوقت. لم يكن غفرانه محددا بالضبط لأن ما فعلته دوروثي لم يكن محددا لكن رغم ذلك فقد سامحها. بدأت الرسالة ببعض الأسئلة الروتينية الودية وتمنى أن تكون وظيفتها الجديدة قد ناسبتها وغرفها في المدرسة مريحة وبقية الهيئة التدريسية متجانسة ومتحابة. لقد سمع بأنهن نجحن في جعل المدرسة واحدة من المدارس الجيدة ومختلفة جداً عما كانت عليه منذ أربعين عاما كما في عصره، الخ، الخ، الخ. من الواضح أن ليس لديه أي فكرة عن ظروفها وعلى ذكر المدارس طار ذهنه إلى وينشستر، مدرسته القديمة التي كانت أبعد مما يتصور مقارنة برينغوود هاوس.

دارت بقية الرسالة حول التذمر من الطريقة التي سارت عليها الأمور في الأبرشية. اشتكى القس بأنه مجهد بالعمل ومهموم ويضايقه وكلاء الكنيسة بهذه وتلك ومل من تقارير بروجيت عن برج الأجراس المنهار ومن أن الخادمة النهارية التي تورط بإحضارها لمساعدة هيلين كانت مصدر إزعاج كبير ووضعت عصا مكنستها بوجه ساعة الجد الجدارية التي في مكتبه - وهكذا لعدة صفحات. لقد قال مرات كثيرة بطريقة غير مباشرة وغير واضحة انه يتمنى لو كانت دوروثي هناك لتساعده لكنه لم يقترح عليها فعليا بأن تأتي إلى البيت وبانت ضرورة بأن تظل غائبة ومنسية - فضيحة منسية في خزانة محكمة الإقفال.

ملأت الرسالة دوروثي بحنين موجع إلى البيت. وجدت نفسها تواقة للعودة إلى زيارات الأبرشية ودروس الطبخ للمرشدات وتعجبت كيف تمكن والدها من التصرف بدونها كل هذه الفترة وإن كانت هاتان المرأتان تعتنيان به جيدا. لقد كانت مغرمة بوالدها بطريقة لم تتجرأ

أن تبديها أبداً لأنه لم يكن من النوع الذي يمكنك إظهار أي عاطفة نحوه. أدهشها وصدمها إدراكها قلة تفكيرها به خلال الأشهر الأربعة المنصرمة. لقد مرت أسابيع نسيت فيها وجوده. لكن الحقيقة إن مجرد الانشغال في إبقاء الروح والجسد معا لم يترك لها أي مجال للعواطف الأخرى.

لقد انتهت المدرسة الآن وتوفر لها الوقت رغم كل جهود السيدة كريفي بابتداع أعمال منزلية لإشغال دوروثي جل اليوم وأوضحت لدوروثي بأنها ليست سوى نفقة عقيمة أثناء العطلة لذا يجب أن تخدمها في وجباتها لأنها اعتبرت الأمر انتهاكا عندما تأكل دوروثي دون أن تقوم بأي عمل وأصبح أسلوبها أخيرا لا يحتمل لهذا ابتعدت دوروثي عن البيت قدر ما استطاعت وبشعورها بالغنى من أجرها البالغ أربع جنيهات وعشر عن تسعة أسابيع وجنيها والدها كانت تشتري صندويش من محلات لحم البقر والخنزير في البلدة وتأكل عشاءها خارج البيت. قبلت السيدة كريفي وهي شبه منزعجة لأنها أحبت أن تظل دوروثي في البيت لتضايقها لكنها كانت شبه مسرورة لكون ذلك فرصة لتقتير وجبات أكثر.

قامت دوروثي بمشاوير طويلة لوحدها مشيا واستكشفت ساوثبريدج ودورلي وويمبريدج وويست هيلتون. لقد حل فصل الشتاء وكان رطبا جداً وبلا ريح وأكثر كآبة في تلك الضواحي التي تشبه متاهة من البرية الجرداء. في مناسبتين أو ثلاث رغم أن هذا التبذير سيعني أيام جوع فيما بعد أخذت دوروثي تذكرة عودة رخيصة إلى ايفرهيث او بيرنهام بيتشز. كانت الأيكات مشبعة بالماء وكئيبة مع مفارش وثيرة من أوراق شجر المران التي بدت متوهجة مثل النحاس في

الجو الساكن الرطب وكانت النهارت معتدلة جداً لدرجة انك تستطيع الجلوس في الخارج وتقرأ إن أبقيت يديك داخا قفاز. في مساء عيد الميلاد أنتجت السيدة كريفي زينة نباتية ادخرتها من السنة الماضية، نفضت عنها الغبار ونصبتها لكنها لم تنو إعداد عشاء الميلاد وقالت إنها لا تستحسن هراء عيد الميلاد وانه مجرد احتيال كبير لأصحاب المحلات وإنفاق غير ضروري وتكره الديك الرومي وكل أنواع الحلويات. ارتاحت دوروثي من عشاء عيد الميلاد في تلك الغرفة الصباحية الباردة وكونت رؤيا خاطفة للسيدة كريفر في قبعة ورقية خارجة من مفرقعات العيد التي بدا حتى التفكير بها لا يحتمل. تناولت عشاء الميلاد - بيضة مسلوقة وسندويشتين من الجبن وقارورة من الليموناده في الأيكات قرب بيرنهام وهي متكئة على شجرة زان كبيرة كثيرة العقد فوق نسخة من المرأة الغريبة لجورج غيسينغ.

أمضت دوروثي معظم وقتها في الأيام المطرة التي لا يمكنها المشي فيها في المكتبة العامة - وأصبحت فعلا من مرتادي المكتبة مع العاطلين عن العمل الجالسين بحزن وهم يتأملون الصفحات التوضيحية التي لا يقرؤونها ومع الكهل الأعزب ذو اللون الباهت الذي يعيش بجنيهين في الأسبوع ويأتي إلى المكتبة ليقرأ كتبا عن الإبحار باليخوت بالساعة دون انقطاع. كانت نهاية الفصل الدراسي راحة كبيرة لها لكن هذا الشعور تلاشى فورا وفي الواقع مرت الأيام ببطء اكبر من ذي قبل لعدم توفر أي شخص تتحدث معه. لا يوجد في ربع العالم المأهول مكان يستطيع المرء أن يكون بمفرده تماماً كما في ضواحي لندن. يعطيك ازدحام واستعجال المدينة الكبيرة الوهم بالرفقة على الأقل وفي الريف يهتم الناس في بعضهم البعض أكثر مما

يجب في الحقيقة. لكن في أماكن مثل ساوثبردج يمكن أن تمضي نصف عمرك دون تجد صديقا إن لم يكن لديك بيت أو عائلة. هناك نسوة في هذه الأماكن وخصوصا السيدات المنسيات اللواتي يعملن بوظائف سيئة الأجر يمضين سنينا في شبه عزلة مطلقة. لم يمر وقت طويل قبل أن تجد دوروثي نفسها في حالة دائمة من الحزن والإنهاك التي مهما حاولت فلا شيء قادر على تشويقها. كانت في حالة من السأم الفاسد الذي يترصد لمهاجمة كل روح عصرية - التي أوصلتها لأول مرة إلى إدراك تام لمعنى ضياع إيمانها.

حاولت تخدير نفسها بالكتب ونجحت في ذلك أسبوع أو اثنين لكن بعدها بدت كل الكتب تقريبا مملة وغامضة لأن عمل العقل لا يكون هادفا عندما يكون معزولا ووجدت نفسها في النهاية لا تستطيع الارتقاء إلى مستوى ارفع من القصص البوليسية. قامت بمشاوير امتدت إلى عشرة وخمسة عشر ميل في محاولة لإجهاد نفسها وتعديل مزاجها لكن طرقات الضواحي الحقيرة والرطوبة والدروب الموحلة عبر الأيكات والأشجار الجرداء والطحلب الرطب والفطور الأسفنجية الكبيرة أضفت عليها سوداوية مميتة. كانت بحاجة إلى الرفقة البشرية التي لا يبدو وجود أي سبيل للحصول عليها. في الليالي عندما تعود إلى المدرسة مشيا كانت تنظر إلى نوافذ البيوت المضاءة الدافئة وتسمع أصوات الضحك والحان الحواكي في الداخل فيمتلأ قلبها بالحسد. آه لو كنت مثل هؤلاء الناس ولدي عائلة وعدد قليل من الأصدقاء المهتمين! مرت أيام تاقت فيها إلى الشجاعة للتكلم مع الغرباء في الشارع وأيام تأملت فيها أيضاً الورع الزائف لكي تكسب معرفة القس في كنيسة القديس جورج وعائلته وتحظى بفرصة عمل

في الأبرشية الصغيرة لإشغال نفسها ويئست في أيام أخرى وفكرت في الانضمام إلى منظمة الشباب العالمي.

لكن عند نهاية العطلة تقريبا وعبر لقاء بالمصادفة في المكتبة أقامت، علاقة صداقة مع امرأة صغيرة الحجم اسمها الآنسة بيفر وهي معلمة جغرافيا في مدرسة توت كوميرشال كوليج الخاصة في ساوثبريدج التي كانت اكبر بكثير وأكثر بهرجة من رينغوود هاوس وفيها حوالي مئة وخمسين طالبا وطالبة ويزيد عدد طلابها المقيمين عن دزينة وكان منهاجها اقل خداعا. لقد كانت واحدة من تلك المدارس التي تستهدف نموذجا من الآباء الذين يتكلمون بحماقة عن احدث التدريبات في التجارة والأعمال وشعارها هو الكفاءة التي تعني عرضا للاحتيال ونفيا لكل الدراسات الإنسانية ومن إحدى خصائصها شيء يشبه التعليم الشفوي يسمى طقوس الكفاءة التي يجب أن يتعلمها كل الأطفال عن ظهر قلب فور انضمامهم إلى المدرسة وتتكون من أسئلة وأجوبة مثل:

سؤال: ما هو سر النجاح

جواب: الكفاءة هي سر النجاح.

سؤال: ما هو اختبار الكفاءة؟

جواب: النجاح هو اختبار الكفاءة.

وهكذا وهلم جر. وقيل إن منظر المدرسة كان مؤثر جداً حين يردد اولادها وبناتها معا طقوس الكفاءة بقيادة المدير وكانوا يقومون بهذا الطقس الشعائري صباحاً مرتين في الأسبوع بدلا من الصلاة.

كانت الآنسة بريفر امرأة أنيقة صغيرة الحجم بجسم مدور ووجه نحيل وانف محمر تمشي كدجاجة غينية. بعد عشرين سنة من

العبودية وصل دخلها إلى أربع جنيهات في الأسبوع وميزة السكن في الخارج بدلا من وضع التلاميذ المقيمين في أسرتهم في الليالي. عاشت في بيت مستأجر يتألف من غرفة نوم ومعيشة بنفس الوقت كانت تدعو إليه دوروثي حين يتوفر لكليهما مساء بلا عمل. كان شوق دوروثي لتلك الزيارات كبيرا! لكنها لم تكن ممكنة إلا في فترات نادرة لأن صاحبة البيت لا تحبذ الزوار وعندما تصل هناك لا يمكنهما فعل شيء سوى حل الكلمات المتقاطعة من الديلي تلغراف والتفرج على صور الآنسة بيفر التي التقطت لها في رحلة الى تيرول في النمسا عام تمثل قمة المجد في حياتها ١٩١٣. لكن ظل لتلك الزيارات معنيا كبيرا ، حيث تجلس مع شخص وتتحدث إليه وتشربا فنجانا من الشاي بطريقة ودية بدلا من شاي السيدة كريفي الخفيف! لدى الآنسة بيفر مصباح كحولي في صندوق سفر ياباني(كان معها عندما كانت في ترويل) كانت تخمر عليه قدورا من الشاي الأسود كالقطران لتعب منه دلوا في اليوم وكشفت لدوروثي بأنها تأخذ معها إلى المدرسة قارورة حافظة دائماً للتمكن من شرب كوبا من الشاي الساخن اللذيذ خلال الفاصل وكوبا آخرا بعد الغداء. أدركت دوروثي أن أي معلمة من الدرجة الثالثة سوف تسلك احد الدربين المطروقين جيدا: طريق الآنسة سترونغ المؤدي إلى الإصلاحية بسبب الويسكي أو طريق الآنسة بيفر إلى موت محتشم في بيت السيدات الفاضلات المتعفنات جراء الشاي الثقيل.

في الحقيقة كانت الآنسة بيفر امرأة بليدة قصيرة القامة وتمثل تذكار لدوروثي بالموت أكثر مما هي تذكار بالهرم. ذبلت روحها حتى أصبحت مهجورة مثل قشرة صابون جافة منسية في المصبنة.

وصلت إلى درجة قبول العيش في غرفة واحدة للنوم والمعيشة تحت سلطة صاحبة منزل ظالمة وغرز الكفاءة في حلوق الطلاب المتقيأة في كوميرشال جيوغرافي واعتبار ذلك مصيرها الوحيد الذي يمكنها تخيله. رغم ذلك ازداد تعلق دوروثي بالآنسة بيفر وبتلك الساعات العرضية التي أمضتاها معا في غرفة النوم. المعيشة في حل كلمات متقاطعة من صحيفة الديلي تلغراف مع كوب من الشاي الساخن اللذيذ التي كانت كالواحات في حياتها.

لقد سرت كثير عندما بدأ فصل عيد الفصح الدراسي لأن العمل العبودي أفضل من العزلة الإجازة الفارغة. إضافة أن ضبط البنات سيكون أفضل بكثير هذا الفصل ولم تجد ضرورة للطم البنات على رؤوسهن. لقد أدركت الآن أن إبقاء البنات تحت السيطرة سهل جداً إن كان المرء قاسيا معهن منذ البداية. في الفصل الماضي تصرفت البنات بشكل سيء لأنها عاملتهن ككائنات بشرية لكن عندما انقطعت الدروس يفضلنها تمردن ككل الكائنات البشرية. لكن إن اضطررت بأن تعلم الهراء للأطفال يجب أن لا تعاملهم ككائنات بشرية. يجب أن تعاملهم بالقسر كالحيوانات وليس عن طريق الحث والإقناع. وقبل كل شيء يجب أن تعلمهم أن التمرد سيؤلمهم أكثر من الانصياع. قد تكون هذه المعاملة ليست جيدة جداً للصغار لكنهم يفهمونها ويستجيبون لها بلا شك.

تعلمت أساليب معلمي المدارس البائسة. تعلمت أن تسطح عقلها ضد ساعات من الملل المتواصل لكي تقتصد في قدرتها العصبية ولتكون عديمة الرحمة ومتيقظة دائماً وتفتخر وتستمتع برؤية انجاز إجراءات معقدة وعقيمة. لقد ازدادت قسوة ونضجا وفقدت عيناها

نظرتهما شبه الطفولية السابقة كما هزل وجهها أكثر مما جعل انفها يبدو أطول. في أوقات بدا وجه معلمة تماماً ويمكن تخيل نظارة فوق انفها لكنها لم تصبح متشائمة تماماً بعد. لا تزال تعرف بأن تلك الصغيرات ضحايا عملية خداع قذرة وتشتاق، لو كان الأمر ممكنا، بأن تقوم بشيء أفضل لهن وإن حدث وساقتهن بالقوة وحشت رؤوسهن بالهراء فقد كان لسبب واحد فقط هو التالي: كل ما حدث كان للحافظ على وظيفتها.

كانت الضجة اقل في غرفة الصف هذا الفصل وتلهفت السيدة كريفي كعادتها لكشف أي خلل لكنها لم تجبر بأن تدق الجدار بمقبض المكنسة إلا نادرا. وفي احد الصباحات وعلى الإفطار نظرت بقسوة إلى دوروثي كما لو أنها تفكر مليا في قرار ثم دفعت طبق المرملات عبر الطاولة وقالت بطريقة مهذبة تماما:

- تناولي بعض المرملات إن رغبت يا آنسة ميلبور

كانت المرة الأولى التي لامست المرملات فيها فم دوروثي منذ أن أتت إلى رينغوود هاوس. توردت قليلا. (لكي تدرك المرأة أنني فعلت أقصى جهدي من اجلها،) لم تستطع منع نفسها من التفكير. بعد ذلك، ظلت تتناول المرملات في الفطور كل صباح وأصبح سلوك السيدة كريفي –ليس لطيفا في الواقع - لأنها لم تستطيع أن تكون كذلك في كل حياتها - بل اقل عدوانية وهمجية. وبدت لدوروثي متجعدة بسبب الجهد في بعض الأحيان وبدأت تشير بحديثها إلى الفصل الدراسي القادم. (الفصل القادم سوف تفعل والفصل القادم أريد منك أن تقومي بذلك) حتى شعرت دوروثي بأنها فازت بثقة السيدة كريفي وبدأت تعاملها كزميلة أكثر منها امة وترسخ في قلبها أمل

صغير وغير معقول لكنه مثير جداً بأن تزيد السيدة كريفي أجورها! وهذا غير محتمل أبدا. حاولت أن تقطع هذا الأمل لكنها لم تنجح تماما. حتى لو زاد أجرها نصف كراون في الأسبوع فهل سيشكل ذلك أي فرق بالنسبة لها!

جاء اليوم الأخير. فكرت دوروثي بأي حظ ستدفع لها السيدة كريفي أجورها غدا. احتاجت النقود كثيرا وكانت مفلسة تماماً في الأسابيع الفائتة وجائعة بشكل لا يحتمل كما أنها بحاجة إلى بعض الجوارب الجديدة وليس لديها زوج غير مرتق أو بال. في الصباح التالي قامت بحصتها من العمل المنزلي وبدلا من الخروج انتظرت السيدة كريفي في الغرفة الصباحية التي كانت تخبط بمكنستها في الطابق العلوي. نزلت السيدة كريفي للأسفل في الحال وقالت بنبرة غريبة هادفة:

- أوه، أنت هنا إذا يا آنسة ميلبورو!حسنا طالما انك هنا فإنني سأدفع لك أجورك

- شكرا لك، قالت دوروثي.

- وبعد ذلك، أضافت السيدة كريفي، لدي القليل الذي أريد أن أقوله لك

رف قلب دوروثي. هل ذلك الشيء القليل يعني زيادة الأجر المنتظرة؟ آم أن ذلك محض خيال. أخرجت السيدة كريفي محفظة جلدية رثة منتفخة من درج مقفول في الخزانة، فتحتها وبللت إبهامها وقالت:

- اثنا عشر أسبوع وخمسة أيام، اثنا عشر أسبوع تكفي، لا حاجة أن نهتم بيوم. ذلك يستحق ست جنيهات.

عدت خمسة جنيهات ورقية قذرة وقطعتين ورقيات من فئة العشر

شلنات ثم تفحصت إحدى الأوراق ووجدتها نظيفة جداً فأعادتها إلى محفظتها وأخرجت واحدة أخرى ممزقة إلى نصفين. ذهبت إلى الخزانة وتناولت قطعة من الورق اللاصق الشفاف وألصقت النصفين معا بعناية. ثم ناولتها مع الست الأخرى إلى دوروثي.

- تفضلي يا آنسة ميلبورو والآن أرجو أن ترحلي من البيت فورا. لم اعد أريدك هنا.

- آنت، لا..

تحولت أحشاء دوروثي إلى جليد ونشف دم وجهها لكنها حتى الآن بسبب رعبها ويأسها لم تكن متأكدة تماماً من معنى ما قيل لها وظلت تفكر قد تكون السيدة كريفي تقصد أن تبقى خارج البيت بقية اليوم فقط.

- لم تعدين بحاجة لي أكثر من ذلك؟ كررت بإغماء.

- (كلا، لقد حصلت على معلمة جديدة لبداية الفصل القادم. وليس من المتوقع أن أؤويك العطلة كلها مقابل لاشيء أليس كذلك؟

- لكنك لا تقصدين بأنك تريدينني أن ارحل. انك تطردينني؟

- طبعاً اقصد. ماذا تعتقدين أنني اقصد غير ذلك؟

- لكنك لم تعطني أي إنذار! قالت دوروثي.

- إنذار! وما الفرق بالنسبة لك إن أعطيتك إنذار أم لا؟ ليس لديك عقد مكتوب، أليس كذلك؟ قالت السيدة كريفي بانزعاج مباشرة.

- كلا، اعتقد لا

- حسنا، إذا! من الأفضل أن تصعدي للطابق العلوي وتضعي أشياءك في صندوقك. من غير المفيد بقاؤك لفترة أطول لأنه ليس لدي أي شيء من اجل الغداء.

صعدت دورثي إلى الطابق العلوي وجلست على طرف السرير. كانت ترتعش بصورة لا إرادية ولم تستطع استعادة عقلها وحزم أمتعتها إلا بعد مرور بعض الوقت. شعرت بالدوخة. كانت الكارثة التي وقعت عليها مفاجئة وبلا سبب لذلك لاقت صعوبة في تصديق حدوثها بالفعل. لكن في الحقيقة إن سبب طرد السيدة كريفي لها كان مباشرا وكافيا.

كانت هناك مدرسة صغيرة بائسة في حالة سبات ليست بعيدة عن رينغوود هاوس تدعى غيبلز بها سبعة تلاميذ فقط وكانت المعلمة التي فيها عجوز غير مؤهلة تدعى الآنسة اولكوك التي عملت في ثمان وثلاثين مدرسة في حياتها ولم تكن لائقة لترعى كناري مدجن. لكن لدى الآنسة اولكوك موهبة بارزة وحيدة فهي ناجحة في خيانة مستخدميها. في مدارس المستوى الثالث والرابع هناك نوع من القرصنة المستمرة دائماً إذ يتم التحايل على الآباء ويسرق التلاميذ من مدرسة إلى أخرى وتكون خيانة المعلمة دائماً الأخيرة. تتقرب المعلمة من الأهالي واحدا تلو الآخر(أرسل ابنتك لي وسأعلمها بعشر شلنات للفصل) وبعدما تفسد عددا كافيا تترك عملها فجأة لتفتح واحدا لحسابها أو تنقل معها الطالبات إلى مدرسة أخرى. نجحت الآنسة اولكوك في سرقة ثلاث من أصل سبع طالبات من المدرسة التي عملت فيها وجاءت إلى السيدة كريفي لتبيعهن لها. وبالمقابل ستحل مكان دوروثي وتأخذ عمولة تقدر بخمسة عشر في المئة على طالباتها اللواتي أحضرتهن.

مرت أسابيع من المساومة الماكرة قبل أن تثبت الصفقة وهزمت الآنسة اولكوك في النهاية وهبطت عمولتها إلى اثنا عشر ونصف في

المئة. قررت السيدة كريفي سرا أن تطرد اولكوك في اللحظة التي تتأكد من بقاء الطالبات الثلاثة وبنفس الوقت كانت الآنسة اولكوك تخطط لسرقة طالبات السيدة كريفي القديمات في الساعة التي ترسخ فيها أقدامها في المدرسة.

منذ أن قررت طرد دوروثي كان من الواضح أن أهم شيء هو منعها من اكتشاف ذلك. لأنها إن عرفت ما سيحصل فقد تبدأ بسرقة الطالبات لحسابها أو لن تقوم بأي شخطة قلم إلى نهاية الفصل على الأقل. (تفتخر السيدة كريفي بمعرفتها للطبيعة البشرية). لهذا السبب كانت المرملات والابتسامات الخبيثة والحيل الأخرى لتبعد شكوك دوروثي. أي شخص خبير كان سيبحث عن عمل آخر منذ أن دفع طبق المرملات إلى وسط الطاولة.

بعد نصف ساعة من قرار الطرد فتحت دوروثي الباب الأمامي حاملة حقيبة يدها. كان ذلك في الرابع من نيسان في يوم مشمس وعاصف لا يحتمل برده وسماءه بزرقة بيض عصفور السياج وريح ربيعية بغيضة تعصف على طول الرصيف في انفجارات مفاجئة تقتلع وتجفف وتذرو الغبار في وجهك. أغلقت دوروثي البوابة وراءها وبدأت تمشي ببطء باتجاه المحطة الرئيسية.

أخبرت السيدة كريفي بأنها ستعطيها عنوان لإرسال صندوقها إليه. انتزعت السيدة كريفي مباشرة خمس شلنات من اجل العربة. لهذا قبضت دوروثي خمس جنيهات وخمسة عشر بيدها التي قد تكفيها ثلاثة أسابيع بإدارة اقتصادية حذرة. لم تعرف ما ستفعل سوى الذهاب إلى لندن وإيجاد إيجار مناسب. لكن تبدد ذعرها الأولي وأدركت أن الوضع ليس ميئوس منه أبدا. لاشك بأن والدها

سيساعدها بأي شكل ولفترة وعلى أسوأ الأحوال ويمكنها أن تطلب مساعدة ابن عمها مرة ثانية رغم أنها كرهت مجرد التفكير فيه. إضافة أن فرصها في إيجاد عمل كانت على الأرجح جيدة نوعا ما. فهي شابة وتتحدث بلهجة ارستقراطية وراضية بأن تكدح مقابل اجر خادمة . مواصفات ستكون جيدة على الأغلب. لكن ينتظرها زمن سيئ من الشك والجوع المحتمل، زمن البحث عن وظيفة.

الفصل الخامس

١

لكن الأمور تحولت باتجاه آخر إذ لم تبتعد دوروثي خمس ياردات من البوابة حتى وصل صبي البرقيات على دراجته من الجهة المعاكسة من الطريق وهو يصفر وينظر إلى أسماء البيوت. رأى اسم رينغوود هاوس حرك الدراجة حوله وسندها على الحاجز الحديدي وبادر دوروثي بالكلام قائلا وهو يهز رأسه باتجاه رينغوود هاوس:

ـ هل تسكن الآنسة ميلبورو هنا؟

ـ نعم، أنا الآنسة ميلبورو.

فقال الولد وهو يأخذ ظرفاً برتقالياً من حزامه:

ـ يجب أن تنتظري، لك جواب

أنزلت دوروثي حقيبتها وشعرت برجفة عنيفة مرة أخرى ولم تتأكد إن كان سببها الخوف أم الفرح لأن الفكرتين وثبتا إلى عقلها بنفس الوقت. واحدة نوع من الأخبار الطيبة! والأخرى والدك مريضاً جداً!. نجحت في تمزيق الغلاف وفتحه ووجدت برقية شغلت صفحتين لكنها وجدت صعوبة كبيرة لفهمها وكانت:

ابتهجي برب الصلاح! أنباء عظيمة! سمعتك الحسنة توطدت ثانية. وقعت السيدة سيمبريل في الحفرة التي حفرتها وشر اعمالها. عمل التشهير. لم يعد يصدقها احد. والدك يتمنى عودتك إلى البيت فوراً. أنا قادم إلى المدينة بنفسي وسأقلك إن أحببت. سأصل قريباً بعد هذا.

انتظريني. مجديه بنوتة الصنجات العالية لمع كثير من الحب.

لا ضرورة للنظر إلى التوقيع. كانت من السيد وربيرتون طبعاً.

شعرت دوروثي بضعف وارتعاش اكبر من ذي قبل ولم تدرك إلا بشكل غامض بأن صبي البرقيات سألها شيئاً.

- أي رد؟ قالها للمرة الثالثة أو الرابعة.

(ليس اليوم. شكرا لك.) قالت دوروثي بشكل غير واضح.

عاد الصبي إلى امتطاء دراجته وانطلق مصفرا بصوت أعلى ليظهر احتقاره لدوروثي لأنها لم تعطه بقشيشا. لكن دوروثي لم تتنبه إلى سخرية الصبي. كانت العبارة الوحيدة التي فهمتها جيدا من البرقية هي والدك يتمنى عودتك الفورية إلى البيت، والمدهش أنها تركتها في حالة تشبه الدوخة. وقفت على الرصيف وقتاً غير محدد إلى أن قدمت سيارة أجرة في الشارع وبداخلها السيد وربيرتون. رأى دوروثي فأوقف السيارة وقفز منها ولاقاها ببشاشة. امسك بيديها الاثنتين وهتف قائلاً:

- مرحباً!

ورمى ذراعه بشكل أبوي زائف حولها فورا وجذبها نحوه دون الاهتمام بمن كان ينظر.

- كيف حالك؟ لكن بحق جوف، كم أصبحت نحيلة! يمكنني تلمس أضلاعك. أين مدرستك؟

دوروثي التي لم تنجح للتخلص من ذراعه بعد، استدارت جزئيا ورمت نظرة نحو النوافذ المظلمة لرينغود هاوس.

- ماذا! ذلك المكان؟ يا الهي، يا له من مسكن حقيرا ماذا فعلت بأمتعتك؟

- إنها في الداخل. تركت لهم نقودا ليبعثوها لي. اعتقد أنها

ستكون على ما يرام.

- أوه، هراء! لماذا تدفعين؟ سنأخذها معنا. يمكن وضعها على ظهر السيارة.

- لا، لا! دعهم يرسلونها. لا أجرؤ على الرجوع. ستغضب السيدة كريفي كثيرا.

- السيدة كريفي؟ من هي السيدة كريفي؟

- المديرة - على الأقل هي تملك المدرسة.

- ماذا، هل هي تنين؟ اتركيها لي - أنا سأتعامل معها. بيرسوس والتنين، ماذا؟ أنت اردوميدا. مرحبا!

نادى سائق السيارة وذهبا إلى الباب الأمامي. قرع السيد وربيرتون الباب بطريقة ما، لم تصدق دوروثي بأنهما سينجحان في الحصول على صندوقها من السيدة كريفي. في الواقع توقعت أن تراهما خارجين طائرين للنجاة بروحيهما وتتبعهما السيدة كريفي بمكنستها لكنهما ظهرا ثانية بعد دقيقتين وكان السائق يحمل الصندوق على كتفه. قاد السيد وربيرتون دوروثي إلى السيارة وبعد أن جلسا اسقط في يدها نصف كراون.

قال بشكل شامل بينما كانت السيارة تقلهم بعيدا

- يا لهذه المرأة! يا لهذه المرأة! بحق الجحيم كيف تحملت كل هذا الوقت؟

- ما هذا؟ قالت وهي تنظر إلى القطعة النقدية المعدنية.

- نصف الكروان الذي تركتيه من اجل الأمتعة. إن تحصيله بطولة من البنت الكبيرة، أليس كذلك؟

- لكنني تركت خمسة شلنات! قالت دوروثي.

ـ ماذا! أخبرتني المرأة انك تركت نصف كراون. يا للوقاحة! سنعود ونأخذ نصف الكروان منها. فقط نكاية بها! ونقر على الزجاج.

لكنها وضعت يدها على ذراعه وقالت:

ـ لا، لا!. ليست مسألة مهمة. لنبتعد عن هنا، بعيدا جدا. لا استطيع تحمل العودة إلى ذلك المكان مرة أخرى أبدا!

شعرت بأنها يمكن أن تضحي ليس بنصف كراون بل بكل ما تملكه من نقود على ألا تقع عينها على رينغود هاوس ثانية. لهذا واصلوا سيرهم تاركين السيدة كريفي بنشوة انتصارها. وسيكون ممتعا العلم بأن هذه كانت مناسبة أخرى ضحكت فيها السيدة كريفي

أصر السيد وربيرتون على اخذ السيارة على طول الطريق داخل لندن وتحد ث بغزارة في البقع الهادئة من المواصلات لكن دوروثي لم تسمع أي كلمة ولم تفهم منه سبب التبدل المفاجئ في حظها إلا بعد أن وصلوا إلى الضواحي الداخلية فقالت:

ـ اخبرني، ماذا حدث؟ أنا لا افهم. لماذا أصبح بإمكاني العودة إلى البيت فجأة؟ لماذا لم يعد الناس يصدقون السيدة سيمبريل؟ من المؤكد أنها لم تعترف؟

ـ (تعترف؟ كلا هي لا تعترف! لكن فضحتها آثامها وذلك نفس الشيء. انه شيء يشبه ما يعزوه الناس الأتقياء إلى إصبع العناية الإلهية. كل ما عليك أن ترمي خبزك على الماء. ورطت نفسها بفوضى قذرة ـ عمل تشهير. لم نتحدث بشيء سواها في نايبهل في نصف الشهر الماضي. أظن بأنك رأيت ما كتب في بعض الصحف.

ـ لم انظر إلى الجرائد منذ مدة طويلة. من رفع دعوى التشهير؟ ليس أبي بالتأكيد؟

ـ يا الهي كلا! لا يستطيع القس أن يرفع دعوى تشهير. لقد كان مدير البنك هو الذي فعل. هل تتذكرين قصتها المفضلة عنه ـ كيف كان يعيل امرأة على حساب أموال البنك ؟

ـ نعم، اعتقد ذلك.

ـ قبل شهور قليلة، كانت على درجة من الغباء لتكتب قسما من تلك القصة في رسالة فأخذها شخص لطيف واعتقد أنها صديقة لمدير البنك فرفع دعوى تشهير ضدها ـ أمرت السيدة سيمبريل أن تدفع مئة وخمسين جنيها تعويضا عن الأضرار. لا اعتقد أنها دفعت قرشا لكن ذلك أنهى سيرتها كمروجة إشاعات التي استمرت فيها سنوات وهي تشوه سمعة الناس وسيصدقك الجميع تقريبا حتى لو كان كذبك واضحا. لكن بمجرد إثبات كذبك في محاكمة مفتوحة تحرمين من حق الكلام. انتهت السيدة سيمبريل في نايبهل وذهبت. غادرت البلدة فجأة وسرا في الليل. اعتقد أنها تبلي نفسها في بيري ست ادموند الآن.

ـ لكن ما علاقة كل ذلك بالأشياء التي قالتها عنك وعني؟

ـ لاشيء، لا شيء إطلاقا. لكن لماذا أنت قلقة؟ المهم أن وضعك السابق قد عاد لك ؛ وقالت كل العجائز التي كنت تقبلين أفواههن في الأشهر الماضية أن المسكينة دوروثي أصابها ظلما كبيرا من تلك المرأة البغيضة!

ـ هل تقصد أنهن يعتقدن بما أن السيدة سيمبريل لفقت الأكاذيب في قضية فإنها تلفقها في قضية أخرى!

ـ لا شك أنهن ما سيقولون هذا لو استطعن الاستنتاج. على أي حال،

السيدة سيمبريل في حالة مخزية لذلك كل الناس الذين افترت عليهم يجب أن يكونوا شهداء. حتى سمعتي أصبحت طاهرة في الوقت الحاضر.

ـ وهل تعتقد أن تلك نهايتها؟ هل تعتقد أنهم يصدقون بإخلاص أن الموضوع كان حادثا مصادفة وإنني فقدت ذاكرتي ولم افر مع أي شخص؟

ـ أوه، حسنا، أنا لم اقصد الذهاب بعيدا إلى ذاك الحد. يبقى في هذه الأماكن الريفية مقدار من الشك يتجول. ليس شكا بشيء على وجه الخصوص كما تعرفين بل مجرد شك عام. نوع من العقلية الريفية القذرة والغريزية. استطيع أن أتخيل وجود إشاعات غامضة في بهو مشرب دوغ اند بتل تستمر إلى عشر سنوات بأن لديك سر بغيض في ماضيك لكن لا يستطيع احد أن يتذكر ما هو ومع ذلك انتهت مشاكلك. لو كنت مكانك لن أعطي أي تفسير إلا إذا سئلت. الرواية الرسمية هي انك أصبت بالأنفلونزا ورحلت لاسترداد عافيتك. عليك التمسك بذلك وستجدين بأنهم سيتقبلونها تماما. رسميا ليس هناك أي شيء ضدك.

بعد وقت قريب وصلوا إلى لندن واخذ السيد وربيرتون دوروثي إلى مطعم في شارع كوفنتري حيث تناولا فروجا صغيرا مشويا مع الهليون وبطاطا صغيرة بلون اللؤلؤ قطفت قبل أوانها من أمها الأرض ودبسا حامضا وقارورة لذيذة من البيرغندي أيضاً لكن الذي أمتع دوروثي كثيرا هو القهوة السوداء التي تناولاها بعد الطعام اثر شاي السيدة كريفي المكون من الماء الفاتر. بعد الغداء استقلا سيارة إلى محطة شارع ليفربول ولحقا بقطار الثانية والربع. كانت رحلة من أربع

ساعات إلى نايبهل.

أصر السيد وربيرتون على السفر بالدرجة الأولى ولم يقبل بأن تدفع دوروثي أجرتها وأعطى بقشيشا للحارس ليتركهم يستقلون عربة لوحدهم دون أن تراه دوروثي. كان يوما باردا وصاحيا من الأيام الشتوية أو الربيعية إن كنت داخل البيت أم خارجه. بدت السماء من خلف النوافذ المغلقة للعربة دافئة ولطيفة، وكل أحياء الفقراء التي مر بها القطار مجلجلا المكونة من متاهات من البيوت الصغيرة ذات الألوان الداكنة والمصانع الكبيرة غير المنظمة والأقنية الملوثة وأراضي البناء المهجورة الممتلئة بالغلايات الصدئة التي تنمو فوقها أعشاب مسودة بالدخان وتسترد لونها بالشمس. لم تتفوه دوروثي بأي كلمة خلال النصف الساعة الأولى من الرحلة لأنها في هذه اللحظة كانت سعيدة جداً ولا تريد التكلم وجلست لا تفكر بأي شيء محدد وهي تسترسل في أشعة الشمس من وراء الزجاج على الكرسي المريح المحشو وبشعورها بالنجاة من براثن السيدة كريفي لكنها أدركت أن هذا الشعور لن يدوم طويلا. كان رضاها مثل دفء الخمر الذي شربته على الغداء، كان ينجزر وارتسمت في ذهنها أفكار موجعة أو صعبة التفسير أما السيد وربيرتون فقد كان يراقب وجهها بانتباه أكثر مما اعتاد عليه محاولا أن يقدر التبدلات التي مرت بها في الشهور الثمانية الماضية.

- تبدين اكبر من عمرك، قال أخيرا.

- أنا كبيرة، قالت دوروثي.

- نعم، لكن تبدين - حسنا أكثر من بالغة واصلب. شيء ما بدل وجهك. تبدين - إن أعذرتني على التعبير - كما لو انك تطهرت من

المرشدة نهائيا. أتمنى أن لا يكون قد حل بدلها سبعة شياطين داخلك. (لم تجب دوروثي، وأضاف) في الحقيقة اعتقد انك مررت بوقت صعب وسيء؟

- أوه، بغيض جداً وبهيمي! لا يمكن للكلمات أن توصفه أحيانا. هل تعرف انه أحيانا ....) وتوقفت

أوشكت أن تحكي له كيف تسولت طعامها ونامت في الشوارع؛ كيف اعتقلت وأمضت يوم في مخفر الشرطة بسبب التسول؛ كيف كانت السيدة كريفي تضايقها وتجوعها لكن توقفت لأنها أدركت فجأة أن هذا ليس ما أرادت الحديث عنه. لقد أدركت بأن هذه الأشياء بلا أهمية وإنها مجرد حوادث عرضية لا صلة لها بالموضوع ولا تختلف جوهريا عن الإصابة ببرد في الرأس أو الانتظار ساعتين عند وصلة للسكة الحديدة. إنها غير مستساغة لكنها لا تهم. الحقيقة البديهية أن كل الأحداث الحقيقية كانت تضرب بقوة في عقلها الآن وقالت:

- هذه الأشياء ليست مهمة. اقصد الإفلاس وعدم توفر الطعام حتى عندما تكاد تموت من الجوع فعلا فهي لا تغير شيئاً في داخلك.

- ألا تهم؟ سأستخدم تعبيرك. يجب أن أكون شديد الأسف على المحاولة.

- أوه، حسنا هي بغيضة أثناء حدوثها طبعاً لكنها لا تشكل أي فرق حقيقي؛ المهم هي الأشياء التي تحدث في داخلك.

- المعنى؟ قال السيد وربيرتون.

- أوه، تتغير الأشياء في عقلك وبعدها يتغير العالم كله لأنك ستنظر إليه بشكل مختلف.

كانت لا تزال تنظر من وراء النافذة عندما اقترب القطار كثيرا من الأحياء الفقيرة القذرة الشرقية وهو يجري بسرعة متجاوزا الجداول التي تحدها أشجار الصفصاف والمروج المنبسطة التي على سياجاتها. رسمت البراعم الصغيرة خضرة ناعمة باهتة كالغيمة وفي حقل قرب خط القطار كان هناك عجل عمره شهر منبسط مثل سفينة نوح يقفز بأرجل متصلبة خلف أمه وفي كوخ حديقة عامل هرم كان يقلب التراب تحت شجرة كمثرى مغطاة بأزهار غير واضحة بحركات بطيئة علية ولمعت مجرفته تحت أشعة الشمس عندما مر القطار. حرك خط التراتيل الحزينة (التبدل والخراب هو كل ما أراه حولي) عقل دوروثي. كان صحيحا ما قالته قبل قليل. لقد حدث شيء ما في قلبها وكان العالم أكثر خلوا وفقرا في تلك اللحظة. في مثل هذا اليوم من الربيع الماضي كانت تشكر الرب بفرح كبير ودن تفكير متعب من اجل السماء الزرقاء الأولى والزهور الأولى للسنة العائدة إلى الحياة! أما الآن وعلى ما يبدو لا وجود لرب تشكره أو زهرة أو بحصة أو ورقة عشب - لم يظل شيء في الكون مثلما كان سابقا.

- تتبدل الأشياء في عقلك (كررت القول وأضافت بحدة بعد أن اكتشفت انه من المعيب التلفظ بمثل هذه الكلمات) لقد فقدت إيماني

- فقدت ماذا؟ قال ورييرتون الذي لم يألف منها هذا النوع من اللغة.

- إيماني. أوه، انك تعرف ما أقصد! قبل شهور قليلة بدا وكأن كل عقلي قد تبدل فجأة - كل شيء أمنت به حتى ذلك الحين - كل شيء بدا فجأة بلا معنى وسخيف. الرب - واقصد به الحياة الأبدية

والجنة والنار —كل شيء. كلها اندثرت. لم يكن ذلك نتيجة التفكير والمحاكمة العقلية وإنما مجرد حادث. مثل طفل يتوقف يوما عن الاعتقاد بالجن دون سبب معين. لم اعد استطيع الإيمان فيها أطول من ذلك.

- انك لم تؤمن بها أبدا ، قال السيد وربيرتون بلا مبالاة.

- لكني فعلا فعلت! اعرف بأنك تعتقد بأنني لم افعل وأنني كنت أتظاهر فقط لأنني كنت خجلة من الاعتراف بذلك لكن لم يكن الأمر هكذا أبدا. لقد أمنت بها وصدقتها كما اصدق أنني الآن في عربة القطار هذه.

- طبعاً ، لم تؤمني، يا طفلتي المسكينة! كيف يمكنك ذلك؟ وفي عمرك؟ هذا يفوق ذكاءك بكثير لكنك تربيت على هذه المعتقدات السخيفة وسمحت لنفسك الاستمرار في التفكير بطريقة مكنتك من هضمها وقبولها وبنيت لنفسك أسلوب الحياة - لو أعذرتني على افتقاري إلى لغة علم النفس - الممكن الوحيد للمؤمن ومن الطبيعي أن يجهدك. في الواقع كانت معاناتك واضحة دائماً ويجب أن أقول انه كان السبب المحتمل جداً لفقدان ذاكرتك.

- ماذا تعني؟ قالت مرتبكة نوعا ما بملاحظته.

أدرك بأنها لم تفهم وشرح لها إن فقدان الذاكرة هو مجرد وسيلة آو أداة استخدمت دون وعي للخلاص من وضع لا يطاق. وقال بأن العقل يقوم بخدع غريبة عندما يكون في وضع صعب. دوروثي لم تسمع بشيء من هذا القبيل من قبل ولم تستطع تقبل تفسيره في بادئ الأمر لكنها تأملت التفسير لحظة وأدركت بأنه لن يبدل شيئاً من الحقيقة الأساسية حتى لو كان صحيحا.

ـ أنا لا أرى بأن ذلك يشكل أي فرق، قالت أخيرا.

ـ ألا يشكل؟ كان يجب أن أقول فرقا هاما.

ـ لكن، ألا ترى، إن كان إيماني ضاع فما أهمية إن فقدته الآن آم فقدته فعليا قبل سنوات؟ المهم أنني فقدته، وعلي أن أبدأ حياتي كلها من جديد.

ـ بالتأكيد أنا لا أريد أن أحملك على القول بأنك نادمة فعليا على ضياع إيمانك، كما تسمينه؟ قد يندم المرء على ضياع الغدة الدرقية. انتبهي، أنا أتكلم ـ كما لو كان الكتاب غير موجود ـ كرجل لم يكن لديه الكثير من الإيمان ليضيعه. القليل الذي هجرته بلا الم إطلاقا وأنا في التاسعة من عمري واعتقد بأنه ليس ذلك الشيء الذي يندم المرء على ضياعه. إن اعتاد على ـ لو تذكرت بشكل صحيح ـ فعل أشياء مرعبة مثل الاستيقاظ في الساعة الخامسة صباحاً للذهاب إلى العشاء الرباني على بطن خاوية؟ من المؤكد انه لن يحن إلى ذلك النوع من الأشياء؟ قال السيد وربيرتون

ـ لم اعد أؤمن بها إن كان هذا ما تقصده وارى بأن كثيرا منها سخيفة. لكن ذلك لا يجدي. النقطة هي أن كل المعتقدات التي أمنت بها ولت وليس لدي بديل أضعه محلها.

ـ لكن يا الله! لماذا تريدين وضع شيء في مكانها؟ لقد تخلصت من عبء من الهراء الخرافي ويجب أن يسرك ذلك. بالتأكيد لن يسعدك مزيدا من الارتعاد خوفا من نار جهنم؟

ـ لكن ألا تدرك ـ يجب أن تفهم أن كل شيء يكون مختلفا جداً عندما يصبح العالم كله فارغا فجأة ؟

ـ فارغ؟ (هتف السيد وربيرتون) ماذا تقصدين بأنه فارغ؟ أرى بأن

هذا مخز تماماً لفتاة بمثل سنك. انه ليس فارغا أبداً وهذه نظرة بعيدة عن الاعتدال والمشكلة فيها. نحن أحياء اليوم وسنموت غدا وليس لدينا الوقت للاستمتاع بما في حوزتنا

ـ لكن كيف يستطيع المرء الاستمتاع بشيء انتزعت كل معانيه؟

ـ يا الهي! ماذا تريدين بالمعنى؟ عندما أتناول عشائي لا أقوم بذلك من اجل مجد الرب؛ أقوم بذلك لأنني استمتع به. العالم مملوء بالأشياء المسلية –الكتب والسينما والخمر والسفر والأصدقاء ـ كل شيء. لا أرى أي معنى فيها ولا أريد أن أرى. لماذا لا تأخذين الحياة كما تجدينها؟

ـ لكن ـ

توقفت لأنها أدركت مسبقا بأنها كانت تهدر الكلام في محاولة التعبير عن نفسها له. كان عاجزا تماماً عن فهم مشكلتها، عاجزا عن إدراك كيف ينقلب عقل ورع ضد عالم اكتشف تفاهته. حتى ملاحظات القائلين بوحدة الوجود الكريهة ستكون ابعد من إدراكه. من المحتمل أن فكرة عدم جدوى الحياة كانت ستجذبه لو فكر فيها مرة وسيجدها مسلية أكثر من غيرها. رغم كل ذلك كان ذكيا ليرى صعوبة الوضع الذي آلت إليه وقال:

ـ طبعا، أرى أن الأشياء ستكون مربكة قليلاً عندما تصلين إلى البيت. سوف تكونين، على سبيل المثال، ذئبا بثياب خروف. وأعتقد أن عمل الأبرشية واجتماع الأمهات والصلاة مع المحتضرات وكل ذلك ستكون مثيرة للاشمئزاز أحيانا. هل تحسين بأنك لا تستطيعين مواصلة ذلك – أليست هذه هي المشكلة؟

ـ أوه، لا. لم أفكر بذلك. سأستمر بها كما كنت من قبل تماماً

فقد تعودت عليها. إضافة إلى أن والدي بحاجة إلى مساعدتي ولا يستطيع تحمل نفقات مساعد أبرشية، والأعمال يجب أن تنجز.

- إذا ما هي المشكلة؟ هل ما تخشينه هو الرياء؟ هل أنت خائفة من أن يلصق الخبز المقدس بحلقك وهلم جرا؟ يجب أن لا انزعج. يجب أن أقول بأن نصف بنات القساوسة في انكلترا تعاني من نفس المشكلة.

- هذا صحيح جزئيا. يجب أن أظل متظاهرة دائماً - أوه، لا يمكنك تخيل بأية أشكال! لكن ليس ذلك هو الأسوأ. ربما يكون ذلك الجزء غير مهم فعليا وربما يكون الرياء أفضل - ذلك النوع من الرياء - من أشياء أخرى.

- لماذا تقولين ذلك النوع من الرياء؟ أتمنى انك لا تقصدين أن التظاهر بالإيمان هو أفضل شيء يلي الإيمان؟

- نعم. . . . . . اعتقد أن هذا هو ما اقصد تماما. أن يتظاهر المرء بالإيمان أفضل واقل أنانية من أن يفصح بشكل مكشوف بأنه غير مؤمن مما قد يساعد على تحويل الناس إلى ملحدين أيضاً.

- عزيزتي دوروثي، عقلك، لو سمحت لي بالقول، في حالة مرضية. كلا، اللعنة! بل انه أكثر من مريض ومتعفن. لديك نوع من الغرغرينا العقلية التي تخيم عليك بسبب تربيتك المسيحية. لقد قلت لي بأنك تخلصت من المعتقدات السخيفة التي حشيت بداخلك منذ المهد ومع ذلك تتبنين موقفا من الحياة يجعلها بلا معنى من دون تلك المعتقدات. هل تعتبرين هذا منطقيا؟ قال السيد وربيرتون

- لا اعرف. لا ربما ليس معقولا. لكن اعتقد أن هذا هو ما يحدث معي بشكل طبيعي

- إن الذي تحاولين فعله بوضوح هو اختيار الأسوأ من العالمين. حافظت على النظام المسيحي للأشياء لكنك حذفت منه الفردوس. اعتقد لو عرفت الحقائق بوجد الكثيرين من أمثالك الذين يتسكعون بين خرائب الكنيسة الانكليزية. عمليا أنتم طائفة دينية لوحدكم، أضاف متأملا: طائفة الملحدين الانجليكانيين التي يجب أن أقول بأنني لا اهتم بالانضمام إليها، واصل السيد وربيرتون

تحدثا لفترة طويلة لكن دون غرض هام. في الحقيقة كل موضوع المعتقد الديني والشك الديني ممل ومبهم بالنسبة للسيد وربيرتون. فتنته الوحيدة له بأنه ذريعة للتجديف. وبدل الموضوع في الحال متظاهرا بأنه استسلم لمحاولة فهم وجهة نظر دوروثي وقال:

- ما نتحدث به مجرد هراء لقد تمسكت بأفكار محزنة جداً لكنك ستكبرين عليها فيما بعد. المسيحية ليست مرضا عضالا لكن هناك شيء مختلف تماماً سأقوله لك وأريد منك أن تسمعيني لحظة. أنت عائدة إلى البيت بعد غياب دام ثمانية شهور وإلى وضع غير مريح واعتقد بأنك أدركته. لقد عانيت حياة قاسية من قبل - يجب أن اسميها حياة قاسية على الأقل - والآن لم تظلي تلك البنت المرشدة السابقة وستكون الحياة أصعب بكثير فهل تعتقدين أن العودة إليها ضرورية جداً ؟

- لكنني لا أرى ما يمكنني فعله غير ذلك، إلا إذا حصلت على وظيفة أخرى. أنا فعلا لا املك بدائل.

رمى السيد وربيرتون نظرة غريبة أخرى برأسه المرفوع المائل إلى الطرف وقال بنبرة أكثر جدية من المعتاد:

- في الحقيقة يمكنني طرح بديل واحد عليك على الأقل.

- هل تقصد الاستمرار كمعلمة مدرسة؟ ربما هذا ما كان ينبغي علي فعله حقيقة. على أي حال سأعود إلى ذلك في النهاية.

- كلا. لا اعتقد أن هذا ما يجب أن أشور به عليك.

في هذا الوقت خلع السيد وربيرتون الذي لم يرغب أبداً في كشف صلعه قبعته الرمادية الخليعة ذات الحواف العريضة ووضعها بحرص على المقعد الفارغ بجانبه فبدت جمجمته العارية التي ليس عليها سوى حزمة ضيقة أو اثنتين من الشعر الذهبي المتبقي قرب أذنيه مثل لؤلؤة وردية ضخمة جدا. راقبته دوروثي بدهشة خفيفة وقال:

- اخلع قبعتي لكي تريني في أسوأ أحوالي. ستدركين السبب في لحظة. دعيني أكون بديلا أخرا عن العودة إلى المرشدات واتحاد الأمهات آو سجن نفسك في زنزانة مدرسة.

- ماذا تقصد؟ قالت دوروثي.

- اقصد، أرجو أن تفكري قبل أن تردي؛ اعترف بوجود بعض الاعتراضات الواضحة جدا، لكن - هل تتزوجيني؟

انفرجت شفتا دوروثي عن دهشة وازداد شحوب وجهها قليلا. بارتداد سريع ولاشعوري تقريبا تحركت بعيدا عنه بقدر ما سمح لها به مسند الكرسي. لكنه لم يأت بأي حركة نحوها وقال باتزان تام:

- تعرفين طبعاً أن دولوريس تركتني منذ سنة، أليس كذلك؟ [دولوريس كانت خليلة السيد وربيرتون السابقة]

- لكن لا استطيع، لا استطيع! تعرف بأني لا استطيع! أنا لست كذلك. ظننت بأنك كنت تعرف دائماً. لن أتزوجك أبدا. صرخت دوروثي

تجاهل السيد وربيرتون تلك الملاحظة وقال بهدوء نموذجي:

- اقر معك بأني لا اندرج تماماً تحت عنوان الشبان المرغوبين فأنا اكبر منك إلى حد ما. يبدو أننا سنضع أوراقنا على الطاولة اليوم، لهذا سأفضي إليك بسر وأقول حتى بعمري البالغ التاسعة والأربعين وأولادي الثلاثة وسمعتي السيئة وازدراء والدك لهذا الزواج ودخلي الذي لا يتعدى السبع مائة جنيه بالسنة أفلا تعتقدين بأنه لا يزال عرض جدير بالاعتبار!

- لا استطيع، أنت تعرف لماذا لا استطيع! قالت دوروثي.

لقد سلمت بأنه يعرف سبب عدم استطاعتها رغم أنها لم تشرح له أو لأي شخص آخر أبداً سبب استحالة زواجها وحتى لو فعلت ربما لن يفهمها واستمر بالتكلم دون أن يهتم بما قالت وتابع قائلا

- دعيني أضعها لك على شكل صفقة. طبعاً لا حاجة للقول بأنها صفقة كبيرة أكثر من تلك. أنا لست من النوع المزواج، كما يقول المثل، ولن اطلب الزواج منك إن لم يكن لديك أي انجذاب خاص نحوي. لكن دعيني أضع جانب البزنس فيه أولا. أنت بحاجة إلى بيت وسبيل عيش وأنا احتاج إلى زوجة تضبطني فقد سئمت النساء المثيرات للاشمئزاز اللواتي أمضيت حياتي معهن - إن غفرت لي الإشارة - وأنا تواق للاستقرار. متأخر قليلاً اليوم أفضل من متأخر دائماً؛ إضافة إلى احتياجي إلى شخص يعتني بالأطفال الغير شرعيين كما تعرفين. لا أتوقع منك أن تجديني جذابا جداً (وأضاف وهو يمرر يده على رأسه الأصلع) لكن بالمقابل إن التواصل معي سهل جداً وفي الحقيقة كل الفاسقون كذلك عادة، ومن وجهة نظرك سيكون للخطة بعض الامتيازات. لماذا تمضين حياتك في تسليم مجلات الأبرشية وتدليك أرجل العجائز البغيضات بمرهم ايلمان؟ ستكون سعادتك اكبر

كزوجة حتى ولو كان الزوج أصلعا وذو ماض مشبوه. لقد أمضيت حياة قاسية بليدة على فتاة بعمرك ولن يكون مستقبلك باسما جدا. هل فكرت فعلا كيف سيكون عليه مستقبلك إن لم تتزوجي؟

- لا، لا اعرف. يجب أن إلى حد ما، قالت.

بما انه لم يحاول أن يضع يديه عليها أو يبدي أي ملاطفات فقد كانت تجيب على أسئلته دون أن ترفض مرة أخرى. نظر من النافذة واستمر بصوت متأمل واهدأ بكثير من نغمته العادية لذلك لم تستطع سماعه في البداية بسبب جلجلة القطار لكن صوته ارتفع في الحال واخذ طابع الجدية التي لم تسمعها منه من قبل أو حتى تتخيلها وكرر قائلا:

- فكري كيف سيكون مستقبلك. انه نفس المستقبل الذي ينتظر كل فتاة من طبقتك لا زوج أو مال لديها. دعينا نقول بأن والدك سيعيش عشرة سنوات أخرى لكن قبل نهاية تلك الفترة سيتبخر آخر بنس يملكه. إن الرغبة في تبديد ماله ستبقيه حيا بقدر ما يدوم ذلك المال فقط وطيلة ذلك الوقت سيزداد خرفه وتعبه واستحالة العيش معه وسيستبد بك أكثر فأكثر ويبقيك بحاجة اكبر إلى النقود ويسبب لك مشاكل أكثر مع الجيران والتجار وسوف تستمرين بتلك الحياة المزعجة الوضيعة التي عشتها وأنت تكافحين لتأمين الحد الأدنى من المال بتدريب المرشدات وقراءة الروايات لاتحاد الأمهات وتلميع أدوات المذبح النحاسية وتسول النقود من اجل صندوق الارغن وصنع الأحذية الورقية البنية لمسرحيات أولاد المدرسة وتمضين حياتك في حزازات وفضائح الكنيسة. في الصيف والشتاء وسنة وراء أخرى ستظلين تركبين دراجتك متنقلة من كوخ متعفن إلى آخر ليتصدقوا عليك

ببنسات من صندوق الفقراء وتكررين صلوات لم تعد تؤمنين بها وستقومين بخدمات الكنيسة اللانهائية التي في النهاية ستسبب لك مرضا جسديا لتماثلها وعدم جدواها. كل سنة ستزداد حياتك كآبة وستكثر الأعمال الصغيرة المميتة التي أقحمت فيها امرأة وحيدة وتذكري بأنك لن تظلي دائماً في الثامنة والعشرين من العمر بل ستخبين وتذبلين حتى يأتي صباح ما تنظرين فيه بالمرآة لتكتشفي بأنك لم تعودي فتاة بل مجرد عذراء هرمة وهزيلة. ستصارعين ضد ذلك طبعاً وستحافظين على قوتك البدنية وسلوك البنات - لمدة أطول قليلا. هل تعرفين ذلك النموذج من العوانس المتأنقات اللواتي يكررن قول سام ورائع وصحيح ويفاخرن بأنهن مسليات لدرجة يعكرن فيها صفو أي شخص وهن متحمسات وممتازات في لعبة التنس وبارعات في تمثيل الهواة المسرحي ويرمن أنفسهن بنوع من اليأس في عمل مرشدات البنات وزياراتهن الدينية وهن حياة وروح علاقات الكنيسة الاجتماعية ويظنن دائماً سنة تلو أخرى بأنهن فتيات صغيرات ولا يعرفن بأن الكل يضحك عليهن من وراء ظهورهن لأنهن عجائز وعوانس بائسات؟ هذا ما ستضحين عليه وما يجب، تنبأت بالكثير فحاولي أن تتجنبيه. لا يوجد لك مستقبل آخر إذا لم تتزوجي. النساء اللواتي لا يتزوجن يذبلن مثل أوراق النبات الذي في النوافذ الخلفية لغرفة الاستقبال والمصيبة لا يعرفن بأنهن يذبلن.

جلست دوروثي صامتة وهي تنصت بانتباه مرعب ومركز ولم تلاحظه وهو واقف ويضع يده على الباب ليثبته بسبب تأرجح القطار. كانت كالمنومة مغناطيسيا ليس بفعل صوته بل بالرؤى التي أثارتها كلماته التي وصفت حياتها كما ستكون عليه بشكل حتمي وبدقة

مفزعة وحملتها عشر سنين داخل المستقبل الخطير ولم تعد تلك الفتاة الممتلئة بالنشاط بل مجرد عذراء منهكة في الثامنة والعشرين. لم تشعر عندما امسك بيدها التي كانت تستلقي بكسل على ذراع الكرسي واستمر بالقول:

ـ بعد عشر سنوات سيموت والدك دون أن يترك لك قرشا واحدا بلا حرفة أو فرصة زواج بل مجرد ابنة قس مهملة مثل عشرات الآلاف غيرها في انكلترا. وبعد ذلك ما الذي سيؤول إليه حالك باعتقادك؟ عليك أن تجدي لنفسك وظيفة من النوع الذي تحصل عليها أمثالك. مربية في حضانة أو مرافقة لعجوز مريضة همها التفكير بطرق لإذلالك أو العودة إلى التعليم في المدارس بخمس وسبعين جنيه في السنة وقوتك وإجازة سنوية مدتها نصف شهر في آب على الشاطئ في بيت يقدم الطعام. ليس أمامك سوى الذبول والتجفاف والهزال والعزلة الدائمة. لذلك ـ

شد دوروثي لتقف على قدميها وهو يقول ذلك. لم تقاوم. كان فعل صوته عليها كالسحر. لأن ذهنها انشغل بمنظر ذلك المستقبل المنفر الذي لم تدرك خلوه مثلما أدركه هو وطغى اليأس عليها ولو تكلمت فستقول نعم سأتزوجك. وضع ذراعه حولها بلطف وجذبها نحوه، لم تحاول أن تقاوم حتى الآن وتركزت عيناها شبه المنومتين على عينيه. عندما وضع ذراعه حولها كان كما لو انه يحميها ويوفر لها ملجأ وينتشلها من حافة فقر قاتل ويعيدها إلى عالم الأشياء المحببة والمرغوبة ـ إلى الآمان والراحة، إلى البيوت الجميلة والثياب الجيدة، إلى الكتب والأصدقاء والزهور، إلى أيام الصيف والأراضي النائية. وعلى مدى دقيقة وقف الأعزب الفاسق والفتاة العازبة النحيلة وجها

لوجه وتلاقت عيونهما وتلامس جسديهما بينما كان القطار يهزهما بحركته دون أن يريا الغيوم وأعمدة التلغراف والأسيجة ذات البراعم المبللة وحقول القمح الصغيرة الخضراء.

احكم السيد وربيرتون قبضته عليها وشدها نحوه بقوة اكبر فافسد التعويذة والرؤى التي أبقتها عاجزة ـ رؤى الفقر المدقع والفرار منه التي تلاشت فجأة وصدمها ما كان يحدث لها وأدركت أنها بين ذراعي رجل بدين وكبير السن! وسرت موجة من القرف والخوف في جسدها وتقلصت أحشاءها. كان جسده الغليظ يضغطها للخلف والأسفل ووجهه الواسع الوردي الناعم الهرم يضغط على وجهها أيضاً ونفذت رائحة الرجولة الخشنة بقوة داخل انفها. تراجعت. أفخاذ اله إغريقي فروية ـ بدأت تصارع بهياج لكنه لم يقم بأي جهد ليحتجزها وبلحظة تلوت وحررت نفسها وسقطت على كرسيها شاحبة ومرتجفة. نظرت إليه بعين غريبة من الخوف والمقت.

بقي السيد وربيرتون واقفا، نظر إليها بخيبة مذعنة ومضحكة. لم يبدو منزعجا أبدا. عندما استردت هدوءها أدركت أن كل ما قاله لم يكن أكثر من حيلة ليخدع مشاعرها ويقنعها بالزواج منه؛ والأغرب انه قالها دون اهتمام بالغ بموافقتها أو رفضها. كان في الحقيقة يسلي نفسه وربما كل ما حدث هو واحدة من محاولته المتكررة دوريا لإغوائها. جلس، لكن بترو أكثر منها مهتما بتجاعيد بنطاله وقال بلطف:

ـ إن أردت أن تشدي حبل الاتصال، دعيني أتأكد بأن في محفظتي خمس جنيهات.

بعد ذلك استعاد نفسه تماماً أو تقريبا ثانية مثلما يستطيع أي

شخص بعد هذا المشهد واستمر بالكلام بدون أي ارتباك. إن إحساسه بالحياء –إن عرفه قط . قد مات منذ سنوات كثيرة الذي ربما قتله إجهاد عمر من العلاقات القذرة مع النساء. ظلت دوروثي تشعر بعدم الراحة ساعة تقريبا وبعد ذلك وصل القطار إلى ابسويتش حيث توقف لمدة ثلاثة أرباع الساعة وحان التحول للذهاب إلى غرفة المنعشات والوجبات الخفيفة من اجل كوب من الشاي وبعدها امضيا العشرين ميلا الأخيرة من الرحلة في حديث ودي. لم يشر السيد ورببرتون إلى اقتراحه بالزواج ثانية لكن عندما اقترب القطار من نايبهل عاد بجدية اقل مما سبق إلى قضية مستقبل دوروثي.

ـ إذاً أنت عازمة للعودة إلى عمل الأبرشية والجولات التافهة والواجب الخسيس وروماتيزم السيدة بيثر ولبخات السيدة ليوين وغيره؟ الم يرعبك المنظر المتوقع؟

ـ لا اعرف ـ يرعبني أحيانا. لكن أتوقع أن يكون الوضع على ما يرام بمجرد أن أعود للعمل. لقد تعودت على ذلك، أنت تعرف.

ـ وهل تشعرين بأنك مؤهلة لسنوات من النفاق المتعمد؟ لأن ذلك ما سيؤول إليه الأمر كما تعرفين. ألا تخشين من أن ينكشف سرك وهل أنت متأكدة تماماً بأنك لن تجدي نفسك تعلمين أولاد مدارس الأحد الصلاة بالعكس أو تقرئين الفصل الخامس عشر من جيبون بدلا من جيني ستراتون بورتر لاتحاد الأمهات ؟

ـ لا اعتقد هذا. لأنني اشعر بأن هذا العمل،كما ترى، مفيد بشكل ما حتى لو كان قراءة الصلاة التي لم يعد يؤمن بها المرء أو تعليم الأطفال أشياء لا تعتقد بصحتها دائماً

ـ مفيد؟ أنت مغرمة جداً بكلمة مفيد الكئيبة. إن مشكلتك هي

تضخم الشعور بالواجب. الآن سأستمتع قليلاً طالما الحالة جيدة استجابة للحس العام. قال السيد بيرتون باشمئزاز.

- هذا هو مبدأ المتعة بعينه، عارضت دوروثي.

- يا طفلتي المسكينة، هل يمكنك أن تريني فلسفة للحياة ليست عن المتعة؟ إن قديسيك المسيحيين القذرين هم اكبر المعتقدين بمبدأ المتعة. هم يسعون من اجل المتعة الأبدية بينما نحن الآثمين المساكين لا نطمح بأكثر من سنوات قليلة منها وفي النهاية كلنا نبحث عن قليل من المتعة لكن بعض الناس يأخذونها بأشكال منحرفة. ففكرتك عن المتعة تتجلى في تدليك ساقا السيدة بيثر.

- ليس الأمر كذلك تماما، لكن - أوه!بطريقة لا استطيع شرحها!

كان يجب أن تقول بأنها لم تتغير رغم إيمانها الذي جافاها ولم تستطع أو ترغب بتغيير الخلفية الروحية لعقلها ولا يزال عالمها الذي بدا لها فارغا وتافها عالما مسيحيا ولا تزال طريقة العيش المسيحية هي ما يجب أن تعود إليها بشكل طبيعي. لكنها لم تعرف التعبير عن هذا بالكلمات وشعرت بأنها حتى لو حاولت ذلك فسيسخر منها لهذا ختمت حديثها بشكل منقوص:

- بطريقة ما أشعر أنه من الأفضل لي أن استمر بمواصلة ما كنت عليه سابقاً.

- تماماً كما كنت من قبل؟ بكامل فاتورة التكلفة؟ البنات المرشدات واتحاد الأمهات وفرقة الأمل ورفقة الزواج وزيارة الأبرشية وتعليم يوم الأحد والعشاء الرباني مرتين أسبوعياً والتجول حول شجرة الشكر وأنت تنشدين الأغنية الغريغورية البسيطة؟ هل أنت متأكدة بأنك ستنجحين في ذلك؟

ابتسمت دوروثي رغماً عنها وقالت: ليست أغنية بسيطة. أبي لا يحبها.

- وهل تعتقدين، عدا أفكارك الداخلية، بأن حياتك ستكون نفس ما كانت عليه تماماً قبل أن تفقدي إيمانك؟ ألن يكون هناك تغييراً في عاداتك؟

فكرت دوروثي. نعم، سيكون هناك تغيير في عاداتها لكن أكثره سيظل سرياً. وتذكرت الدبوس التأديبي الذي ظل سر دائم تخفيه عن أي شخص وقررت أن لا تذكر شيئاً عنه وأخيراً قالت:

- حسنا ربما أركع على يمين السيدة ميلفيل في العشاء الرباني بدلاً من شمالها.

٢

بعد مرور أسبوع

صعدت دوروثي التل قادمة من البلدة على دراجتها ووقفت عند بوابة البيت. كان أصيلا جميلاً صحواً وبارداً غارت شمسه غير الملطخة في سماء بعيدة مخضرة. لاحظت دوروثي أن شجرة الدردار التي بجانب البوابة قد أزهرت ببراعم حمراء داكنة متكتلة بدت مثل جرح ملتهب.

كانت متعبة قليلاً بسبب أسبوعها الحافل بالعمل وزيارة كل النسوة المسجلات في جدولها ومحاولة إعادة نوع من النظام إلى شؤون الأبرشية ثانية. لقد دبت فوضى عارمة في كل شيء بعد غيابها. كانت الكنسية قذرة إلى حد لا يصدق . كان على دوروثي أن تمضي القسم الأكبر من اليوم في التنظيف بالفرشاة والمكنسة وسلة النفايات والآسرة ومن قذارة الفئران الموجودة خلف الارغن والتي يرعبها مجرد التفكير بها. (السبب الذي أتى بالفئران هو غريغوري فرو، نافخ الأرغن الذي كان يجلب علب البسكويت الرخيصة إلى الكنيسة ويأكلها أثناء الخطبة.) لقد أهملت كل جمعيات الكنيسة وبالنتيجة

توقفت فرقة الأمل ورفقة الزواج عن العمل وهبط عدد حضور مدرسة الأحد إلى النصف ودارت رحى حرب ضروس في اتحاد الأمهات بسبب ملاحظة غير لائقة أبدتها الآنسة فوتي وكان برج الكنيسة في أسوأ حال عرفها وتوقف تسليم مجلة الأبرشية بشكل منتظم ولم تجمع نقودها ولم يحفظ أي حساب من صناديق تمويل الكنسية بشكل مناسب، وكان هناك تسعة عشر شلناً غير مفسرة فيها كلها، حتى سجل الكنيسة كان في حالة فوضى. وهلم جرا، إلى اللانهاية. لقد ترك القس الأشياء كلها تتدهور.

ظلت دوروثي غارقة في العمل حتى أذنيها منذ أن وصلت إلى البيت وعادت الأشياء إلى رتابتها القديمة بسرعة مذهلة فعلياً وكأنها رحلت بالأمس. تلاشت الفضيحة الآن وأثار رجوعها إلى نايبهل بعض الفضول وفرحت بعودتها بصدق بعض النسوة اللواتي في قائمة زياراتها وخصوصاً السيدة بيثر كما شعر فيكتور ستون بالخجل بسبب تصديقه المؤقت لتشهير السيدة سيمبريل لكنه نسي ذلك فور سرده لدوروثي آخر انتصاراته في تشيرتش تايمز. كثير من سيدات المقهى طبعاً اوقفن دوروثي في الشارع قائلات (عزيزتي، جميل جداً أن نراك مرة أخرى! لقد غبت طويلا! وتعرفين يا عزيزتي بأننا اعتبرنا ما كانت تقوم به المرأة الكريهة وهي تتجول وتروي تلك القصص عنك عار. لكن نتمنى بأنك ستفهمين يا عزيزتي انه مهما ظن الآخرون فلم نصدق كلمة منها، الخ، الخ ولم يسألها أي شخص أسئلة تخشاها وأرضت إجابتها (كنت اعلم في مدرسة قرب لندن)الجميع؛ ولم يسألن أبداً حتى عن اسم المدرسة. ولم تر أبداً ضرورة الاعتراف بنومها في

ساحة ترافيلغار وإلقاء القبض عليها بتهمة التسول. في الحقيقة أن أهالي البلدات الصغيرة ليس لديهم سوى فكرة غامضة عما يحدث على بعد عشرة أميال من أبواب بيوتهم ولا يعني العالم الخارجي لهم سوى ارض مجهولة تسكنها التنانين وآكلي لحوم البشر، وغير ممتع أيضاً.

رحب بها والدها أيضاً وكأنها غابت في عطلة أسبوعية فقط. عندما وصلت كان في مكتبه يدخن غليونه بتأمل مقابل ساعة الجد الجدارية التي حطمت زجاجها الخادمة النهارية بمقبض مكنستها منذ أربعة شهور ولم يتم إصلاحها بعد. عندما دخلت دوروثي الغرفة اخرج غليونه من فمه وخبأه في جيبه بحركة عجوز شارد وبدا اكبر مما هو عليه بكثير باعتقاد دوروثي وقال:

- ها أنت قد عدت أخيراً، هل كانت رحلتك جيدة؟

وضعت دوروثي ذراعيها حول عنقه ولمست خده الفضي الباهت بشفتيها، ربت على كتفها بأثر عاطفي محسوس أكثر من المعتاد وهو يحرر نفسه وقال:

- ما الذي ادخل إلى رأسك الهروب بتلك الطريقة؟

- قلت لك يا أبي - لقد فقدت ذاكرتي.

همهم القس ورأت دوروثي بأنه لم يصدقها ولن يصدقها أبداً في مناسبات كثيرة جداً في المستقبل عندما يكون في مزاج أقل قبولاً مما هو عليه الآن، إن الفرار سينقلب ضدها وأضاف:

ـ حسناً، عندما تأخذين محفظتك إلى الطابق العلوي أجلبي آلة الطباعة إلى الطابق الأرضي، أريد أن أكتب خطبتي.

لم تحدث أشياء مهمة في البلدة. شوه توسع مشرب الشاي القديم الطريق العام وتحسن حال السيدة بيثر من الروماتيزم ويعود الفضل في ذلك إلى شاي انجليكا بدون شك لكن السيد بيثر كان تحت رقابة الطبيب وخافوا من أن يكون لديه حصاة في المثانة. أما السيد بلفيل فقد أصبح عضواً في البرلمان الآن ويجلس مطيعاً وصامتاً في المقاعد الخلفية لحزب المحافظين ومات السيد العجوز تومز بعد عيد الميلاد مباشرة واستولت الآنسة فوتي على سبع من قططه وقامت بجهود بطولية لتجد مأوى للقطط الباقية وخلفت ايف تويس ابنة أخ السيد تويس تاجر الحديد ولدا غير شرعي ومات. قام بروجيت بحفر أرض الحديقة وزرع بذور قليلة فيها وظهرت لتوها الفاصوليا العريضة والبازيلا أما ديون المحلات فقد بدأت بالأرتفاع مرة أخرى بعد اجتماع الدائنين وصار لكارجيل ست جنيهات. أقام فيكتور ستون مناظرة مع البروفيسور كولتن في تشيرش تايمز حول محاكم التفتيش المقدسة وهزمه هزيمة منكرة وساء وضع الاكزيما المصابة بها هيلين خلال فصل الشتاء ووافق لندن ميركيوري على قبول قصيدتين لوالف بيلفيل غوردون.

دخلت دوروثي إلى قاعة الموسيقى وكان أمامها عمل كثير من صناعة الأزياء اليدوية من اجل الموكب الذي سيقيمه طلاب المدرسة في عيد القديس جورج لمساعدة لصندوق الارغن الذي لم يدفع ولا بنس من اجله في الأشهر الثمانية الماضية فقد كان القس يرمي الفواتير

دون أن يفتحها لأن نبرتهم ازدادت سخونة. أجهدت دوروثي أفكارها بالبحث عن وسيلة تجمع فيها بعض المال واستقرت أخيراً على مهرجان تاريخي يبدأ بيوليوس قيصر وينتهي بدوق ويلينغتون الذي قد يجمع جنيهين وربما ثلاث جنيهات! إن تحالف الحظ الجيد والطقس الجميل.

نظرت في أرجاء القاعة التي لم تدخلها منذ أن عادت إلى البيت. كان واضحاً بأنه لم يلمس أي شيء فيها منذ غيابها وكانت أشياءها ملقاة كما تركتها ويغطيها غبار كثيف. كانت ماكينة الخياطة ملقاة على الطاولة وسط نفايات من قصاصات الورق القديمة المعتادة صفحات من الورق البني وبكرات القطن والدهان ورغم إن الإبرة قد صدئت إلا أن الخيط لا زال فيها. نعم! وكانت هناك الأحذية التي صنعتها في الليلة التي هربت فيها. حملت واحدة منها ونظرت إليها. تحرك شيئاً في قلبها. نعم مهما قيل فقد كانت أحذية جيدة! ومن المؤسف أنها لم تستخدم! قد تنفع للمهرجان ربما لتشارلز الثاني أوه كلا من الأفضل عدم إدراج تشارلز الثاني دعنا نستبدله بكرومويل لأنه لن يجبرها على صنع شعر مستعار له.

أشعلت دوروثي موقد الزيت ووجدت مقصها وصفحتين من الورق البني وجلست. يجب عليها أن تصنع جبلاً من الملابس والأفضل أن تبدأ بدرع يوليوس قيصر. لقد كان الدرع اللعين دائماً يشكل أكبر صعوبة! كيف يبدو درع الجندي الرماني؟ قامت دوروثي بجهد وتذكرت تمثال إمبراطور وضع على قاعدة مجعد اللحية في الغرفة الرومانية في المتحف البريطاني. يكمن صناعة درع قاسي من الورق البني والصمغ والصاق شرائط ورقية عليه ليبدو درعاً معدنياً ثم تطليه

كله باللون الفضي. ليس هناك حاجة لصناعة الخوذة، الحمد لله! لأن يوليوس قيصر كان يضع دائماً إكليل غار - خجلاً من صلعه لا شك مثل السيد بيرتون. لكن ماذا عن دروع السيقان؟ هل كانوا يلبسونها في عهد يوليوس قيصر؟ وهل كانت أحذية طويلة أم قصيرة أم صنادل؟

توقفت بعد لحظات قليلة وارتمى المقص على ركبتها. لقد كانت تراودها فكرة شتت انتباهها خلال الأسبوع الماضي مثل شبح لا يطاق في كل لحظة لم تكن منشغلة فيها. إنها الفكرة التي تكلم عنها السيد وربيرتون في القطار عن شكل حياتها في المستقبل دون زواج أو نقود.

لم يساورها أي شك في حقائق مستقبلها الخارجية التي رأتها كلها بوضوح تام. قد تعمل عشر سنوات كمساعدة خوري دون اجر ثم تعود إلى التعليم في مدرسة ليست بالضرورة مثل مدرسة السيدة كريفي - لكن على الأقل واحدة رثة كالسجن أو ربما بنفس الكدح الإنساني الشاق. مهما حدث وفي أفضل الأحوال فإنها ستواجه مصيراً مشتركاً تنتهي إليه كل امرأة وحيدة مفلسة. (عجائز انكلترا القديمة العذارى) كما سماهن أحدهم إنها في الثامنة والعشرين من عمرها وعلى وشك الدخول في صفوفهن.

لكن لا يهم. لا يهم! كان ذلك هو الشيء الذي لا يمكن إقحامه في رأس السيد وربيرتون وأمثاله في هذا العالم حتى لو ظلت تتحدث معهم لمدة ألف عام بأن الأشياء الظاهرية مثل الفقر والكدح وحتى العزلة ليست مهمة بحد ذاتها وإنما المهم هو ما يحدث في القلب من أشياء. لقد عرفت الفقر في لحظة شيطانية حين كان السيد وربيرتون

يتحدث معها في القطار لكنها تغلبت عليه فهو ليس بالشيء الذي يستحق القلق وليس بسبب ذلك عليها أن تقوي شجاعتها وتعيد تصنيع كل بنيتها العقلية بشكل مختلف.

لا ، إنه أكثر من أساسي جدا ، انه الفراغ القاتل الذي اكتشفته في لب الأشياء. فكرت كيف كانت تجلس على هذا الكرسي العام الماضي وهذا المقص في يدها وكانت تفعل ما تفعله الآن بالضبط ومع كل ذلك تشعر بين الحين والأخر بأنها كائنين مختلفين. أين ولت تلك الفتاة صاحبة النية الحسنة والمضحكة التي كانت تصلي منتشية في حقول الصيف ورائحتها العبقة ، البنت التي كانت تخز ذراعها بالإبرة عقوبة على أفكارها المدنسة؟ بل أين أي واحد منا عما كان عليه قبل سنة واحدة فقط؟ وأخيرا - وهنا تكمن المشكلة - كانت نفس الفتاة. إن المعتقدات تتبدل والأفكار تتغير لكن يبقى قسم عميق داخل الروح لا يتبدل. يتلاشى الإيمان لكن الحاجة إليه تبقى كما كانت من قبل.

كيف يمكن لأي شيء أن يكون مهما لولا الإيمان؟ كيف يمكن أن تخاف لو كان لديك هدف في العالم تخدمه وتتمكن من فهمه وأنت تخدمه؟ إن الإحساس بالهدف ينير حياتك كلها ولن يعرف قلبك الإرهاق ولا الشعور بالعبث أو الملل البودليري في انتظار ساعات غير محمية. وسيكون كل عمل ذو مغزى وكل لحظة طاهرة محاكة بالإيمان في قالب من الفرح الأبدي.

بدأت تتأمل الحياة الطبيعية. يخرج المرء من الرحم ليعيش ستين أو سبعين سنة ثم يموت ويتعفن وسيواجه نوع الكآبة والتعاسة التي لا

يمكن وصفها لكن يمكن الشعور بها مثل غصة جسدية في القلب في كل جزئية من حياته إن لم يكن له هدف أساسي يعوضها. إن كان القبر يضع نهاية للحياة فهي بشعة ومروعة جداً. لا فائدة من محاولة تعميق الجدل حولها. فكر في الحياة كما هي عليه في الواقع، فكر في تفاصيلها وسترى بأنها بلا معنى ولا غرض ولا أمل لها سوى القبر. وبالتأكيد هل هناك من يستطيع أن يواجه تلك الفكرة بدون إحجام سوى الأغبياء ومن يخدعون أنفسهم أو الذين يعيشون سعداء بشكل استثنائي.

حولت محلها على الكرسي. لكن في النهاية لابد أن يكون هناك مغزى وغرض لكل شيء! لا يمكن أن يكون العالم مجرد حادث عارض. كل شيء يحدث يجب أن يكون له سبب نهائي ومن ثم غرض. بما أنك موجود فإن الرب هو من خلقك ولأنه خلقك كائنا عاقلا فهو عاقل أيضاً لأن الأكبر لا يأتي من الأصغر. هو من خلقك وهو الذي سيقتلك لغرضه الخاص. لكن ذلك الغرض مبهم. إنها طبيعة الأشياء التي لا يمكنك اكتشافها وحتى لو اكتشفتها فستنفر منها. إن حياتك وموتك مجرد نغمة منفردة في الفرقة الموسيقية الخالدة التي تعزف لتسليته. وبفرض أنك لم تحب اللحن؟ وفكرت بالقس المخلوع في ساحة ترافيلغار. هل كانت تحلم بالأشياء التي قالها أم أنه قالها فعلاً؟ ستحشر مع الشياطين وملوكهم ومع كل أهل جهنم. لكن تلك سخافة فعلاً لأن عدم حب اللحن كان جزء من اللحن أيضاً.

تصارع عقلها مع المشكلة وهي تدرك بأنها لا تحل. كما رأت بوضوح بأنه لا يوجد بديل ممكن عن الإيمان، لا القبول الوثني بأن

الحياة مكتفية بنفسها ولا هراء الوجوديين عن الابتهاج ولا الأديان الزائفة التي تتحدث عن (التقدم) ورؤى المدن الفاضلة المتألقة وأكوام النمل من الفولاذ والاسمنت. ليس هناك حل وسط. إما أن الحياة على الأرض ليست إلا تحضير لشيء أعظم وأطول ديمومة وإما هي بلا معنى وقاتمة ومرعبة.

جفلت دوروثي. سمعت صوت غليان آت من إناء الصمغ. لقد نسيت أن تضيف ماء في المقلاة فبدأ الصمغ بالاحتراق. أخذت المقلاة وسارعت إلى حوض غسل الأطباق لتملأها ثم أعادتها ووضعتها على الموقد ثانية. يجب أن اتمم صنع الدرع قبل العشاء! بعد يوليوس قيصر يأتي دور ويليام الفاتح. المزيد من الدروع! ويجب أن تذهب في الحال إلى المطبخ لتذكر هيلين كي تسلق بعض البطاطا ليأكلوها مع لحم البقر المفروم على العشاء؛ بالإضافة يجب أن تكتب جدول أعمال يوم الغد. صنعت نصفي الدرع وقصت فتحات الذراعين والعنق ثم توقفت ثانية.

إلى أين يجب أن تصل؟ كانت تقول إن كان الموت ينهي كل شيء فلن يظل أي أمل أو معنى لأي شيء. حسنا، وماذا بعد؟

لقد بدل ذهابها إلى المطبخ وملء المقلاة اتجاه أفكارها. أدركت للحظة بأنها سمحت لنفسها بالوقوع في المبالغة والإشفاق على الذات. جلبة كبيرة لا جدوى منها، أولاً وأخيراً الا يوجد عدد لا يحصى من الناس يعاني من نفس حالتها! آلاف وملايين الناس في العالم فقدوا إيمانهم دون أن يفقدوا الحاجة إلى الإيمان. نصف بنات الكهنة في انكلترا، كما قال السيد واربيرتون الذي ربما كان مصيباً. وليس فقط بنات الكهنة بل من كل أنواع البشر الذين يعانون من المرض

والعزلة والفشل وكل الذين يعيشون حياة إحباط وخذلان، الذين يحتاجون إلى الإيمان ولا يملكونه كي يدعمهم ويقويهم. حتى راهبات الأديرة اللواتي ينظفن الأرض وينشدن في ماریاس بالسر غير مؤمنات.

من الجبن الندم على خرافة تخلصت منها - والرغبة في تصديق شيء تعرف في أعماقك بأنه غير صحيح!

ولكن.. !

رمت دوروثي مقصها وركعت بجانب كرسيها وخبأت وجهها بيديها وبدأت تصلي بقوة العادة تقريباً لأن عودتها إلى البيت لم ترجع لها إيمانها وإنما استرجعت العادات الظاهرية من التقوى والولاء فقط.

- يا ربي أنا أؤمن بك، ساعدني على شكي. يا ربي أنا أؤمن بك، ساعدني على شكي.

لكن كان ذلك عبث لا جدوى منه إطلاقاً. حتى وهي تنطق بالكلمات كانت تدرك بأنها بلا فائدة وكانت خجلة من فعلتها. رفعت رأسها وتسللت إلى أنفها في تلك اللحظة رائحة خبيثة دافئة كانت منسية في تلك الأشهر الثمانية لكنها مألوفة جداً، إنها رائحة الصمغ. كان ماء المقلاة يفور ويصدر صوتاً. قفزت دوروثي واقفة وتحسست مقبض فرشاة الصمغ. كان الصمغ ليناً وسيصبح سائلاً بعد خمس دقائق.

دقت ساعة الجد الجدارية السادسة في مكتب والدها. وثبت دوروثي. أدركت أنها ضيعت عشرين دقيقة، أوجعها ضميرها بشدة لذلك طارت من عقلها كل الأسئلة التي كانت تقلقها. تباً ماذا كنت

أفعل كل ذلك الوقت؟ وبدا لها في تلك اللحظة بأنها لم تعرف ما كانت تقوم به. اندهشت من نفسها. هيا يادوروثي!لا تتكاسلي من فضلك! يجب أن تتمي صنع الدرع قبل العشاء. جلست وملأت فمها بالدبابيس لتثبت نصفي الدرع مع بعضهما لتعطيه الشكل المناسب قبل أن يجهز الصمغ.

كانت رائحة الشمع جواباً لصلواتها. لم تعرف هذا. لم تفكر ملياً وبشكل واع بأن حل بلوتها يكمن في قبول حقيقة عدم وجود حل لها؛ إن استأنف المرء العمل الذي كان ينتظره بعد انقطاع تتلاشى أهمية هدفه الأساسي، ويتشابه الإيمان وعدمه شرط أن يقوم المرء بفعل ما اعتاد عليه بشكل نافع ومقبول. عاشت هذه الأفكار لكنها لم تستطع صياغتها بعد. قد تفعل ذلك في وقت لاحق وتستمد الراحة منها. لا تزال هناك دقيقة أو اثنتان قبل أن يجهز الصمغ. أنهت دوروثي ربط نصفي الدرع بالدبابيس معاً وبنفس اللحظة بدأت برسم مخططات في ذهنها لأزياء لا تحصى ينبغي إنجازها. بعد وليام الفاتح - هل كان هناك دروع حديدية في عصر وليام الفاتح؟ - يأتي روبين هود - لينكولن غرين والقوس والسهم - وتوماس بيكيت بعباءته وتاجه المدبب وطوق الملكة اليزابيث المكشكش وقبعة دوق ويلينغتون البهية العالية. يجب أن أذهب وأرى ما حل بتلك البطاطا قبل السادسة والنصف. وعليها كتابة جدول أعمال الغد. غداً هو يوم الأربعاء - - يجب أن لا تنسى ضبط المنبه على الخامسة والنصف. أخذت قصاصة ورق وبدأت تكتب عليها جدول الأعمال.

- ٧ تشرين الأول. العشاء الرباني

- طفل السيد ج. الشهر القادم اذهبي وزوريها

- الفطور. لحم خنزير مقدد.

توقفت عن التفكير ببنود جديدة. إن المقصود بالسيدة جي هو السيدة جويت، زوجة الحداد التي كانت تأتي للصلاة في الكنيسة أحياناً بعد ولادة أطفالها إن تملقتها بلباقة مسبقاً. ويجب أن آخذ بعض المسكنات للسيدة فرو، وفكرت دوروثي بأن تكلم جورجي بالتوقف عن أكل البسكويت أثناء الخطبة. أضافت السيدة فرو إلى جدولها. والآن ماذا عن غداء الغد - يجب أن ندفع شيئاً لكارجيل! وغدا هو يوم شاي اتحاد الأمهات والسيدة فوتي أنهت الرواية التي كانت تقرأها لهن ويبقى السؤال ماذا سنقدم لهن بعدها؟ يبدو أنه لم يبق أي كتب أخرى لمفضلتهن جين ستراتون بارتر. ماذا عن وريك ديبنغ؟ ربما مستواه عال جداً ويجب أن أطلب من بروجيت بأن يحصل على شتلات قرنبيط لزرعها في الحديقة.

لقد ذاب الشمع تماماً. أخذت دوروثي صفحتين جديدتين من الورق البني وقصتهما إلى شرائط ضيقة على نحو غير لائق بسبب صعوبة الحفاظ على تحدب الدرع - ألصقت الشرائط أفقياً على الصدر والظهر وجف بالتدريج وهو في يديها وبعد أن قوته كله وضعته على نهايته لتنظر إليه. في الحقيقة لم يكن سيئاً جداً! غطاء آخر من الورق ويبدو كدرع حقيقي. يجب أن ننجح ذلك المهرجان! يا للأسف لو بإمكاننا استعارة حصان لنقدم بوديسيا في عربتها! قد نكسب خمس جنيهات لو كان لدينا عربة حقيقية بمناجل وعجلات. وماذا عن هينغست وهورسا؟ زخرفة الجوارب والخوذ المجنحة. قطعت دوروثي صفحتين

ثانيتين من الورق البني وقصتهما إلى شرائح ضيقة وأخذت الدرع لتعطيه غطاءه الأخير. تلاشت مشكلة الإيمان أو عدمه من عقلها. بدأ الظلام يخيم لكن شغلها الكثير منعها من إشعال المصباح فاستمرت بالعمل وهي تلصق شريطاً تلو الآخر في أمكنتها بتركيز تقي وآسر وسط رائحة صمغ الإناء النفاذة.

انتهت


facebook.com/ketabme

ابنة القس

نتعرف في هذه الرواية على أورويل الناقد الاجتماعي الذي سخر بمرارة بالغة من المجتمع الطبقي الانكليزي وتقاليده ومن الكنيسة وتعاليمها وطوائفها المتناحرة.
دوروثي (بطلة الرواية)، لا تتحمل الواقع الصعب الذي تعيشه في بيت بائس وخرب للكنيسة لا يشاركها فيه سوى أب أرمل وبخيل ألقى عليها بأعباء أعمال البيت والكنيسة ولم يكن لها عون سوى خادمة بلهاء..... تستهلك تلك الأعمال الرتيبة والمملة جل وقتها فتصاب بفقدان الذاكرة وتهرب من البيت لتجد نفسها في لندن. ترحل مع مجموعة من المتشردين للعمل في مزرعة في الريف وتعود إلى لندن ثانية بعد أن يتخلى عنها والدها لتواجه التشرد وبرد الشوارع والتسول.... وحين تعود إلى بيت والدها ترفض عرض الزواج الذي تقدم به الرجل الوحيد الذي تحبه وترتاح برفقته لأنها تحمل عقدة نفسية جراء العلاقة غير الناجحة بين والدها وأمها والتربية الدينية المتزمتة وشعورها المريض بالواجب.

ISBN 978-9933-407-59-9



نينوى
للدراسات
والنشر
والتوزيع